قصص

عشاء برفقة عائشة



د. محمد المنسي قنديل

عشاء برفقة عائشة

مجموعة قصص

د. محمد المنسي قنديل

المحتويات

عشاء برفقة عائشة

تتقافز سيارة الأجرة بين الحفر، يدمدم السائق غاضبا: " ياست، لايمكن أن يكون هناك مطعما محترما وسط هذه الحواري الضيقة" ترد عليه عائشة بصوت خافت ولكنه حازم: " امض للأمام واستدر يسرا" ثم تلتفت إلي وهي تقول : " لا أحب سائقي سيارات الأجرة عندما يتدخلون"، كان هذا هو موعدنا الأول، تركت لها حرية اختيار المكان فاختارت هذا المطعم، لم أكن قد سمعت به ، وكذلك السائق، كانت هي المرة الأولى أيضا التي أجلس معها بهذه الدرجة من القرب، خصلات شعرها تلامس وجهي أحيانا وأشم رائحة عطرها دائما، يتكئ جسدها الدافئ علي كلما انحرفت السيارة أو كلما حاولت تتطلع من خلال نافذتي للتأكد من المكان، تتداخل الحواري وتضيق المسالك وتتقارب الجدران التي تساقط طلاؤها، لا أجرؤ على سؤالها إن كانت متأكدة من وجود هذا المطعم، كنت مشغولا بما سيحدث بعده هل ستذهب عندي ، إلى غرفتي الضيقة، أم عندها في مسكنها الذي لا أعرف عنه شيئا؟

يدخل السائق في حارة أكثر ضيقا، لم نعد نرى السماء، يمرق أطفال مذعورين من أمام السيارة ، يخرجون من أبواب لا نراها ليدخلوا بسرعة إلى أبواب لا نراها أيضا، تهتف أخيرا" توقف هنا، وصلنا" ، يتوقف السائق بسرعة قبل أن تغير رأيها، أسرع بالنزول أنا أيضا وأعطيه ضعف الأجرة حتى يكف عن تذمره، تقف مثل طفلة تحبس أنفاسها وهي تترقب إزاحة الورق المفضض عن هدية عيد ميلادها.

إذا كان هناك مطعم هنا بالفعل فمن الصعب التعرف عليه، لا توجد لافتة ولا علامة تدل على ذلك، مجرد صف من البيوت القديمة، استبدل جدار واحد منها بواجهة زجاجية معتمة، مغبرة ومطموسة، لا تستجيب للضوء ولا يظهر عليها صورة أو ظل أو خيال، ليس فيها غير ذلك الاستواء المحايد الممتد وسط الثقوب والشروخ المتعرجة التي تملأ جدران البيوت الآيلة للسقوط من حولها، في جانب منه يوجد باب صغير، بجانبه أصيص من نبات داكن الخضرة، حين لمسته اكتشفت أنه غير حقيقي، مصنوع من معدن بارد، يتسع الباب بالكاد لدخول شخص واحد في المرة الواحدة، فكرت أنها ربما حضرت إلى المطعم منذ زمن بعيد قبل أن يصيبه البلى والشحوب، وربما تحاول الآن ـ في لقائنا الأول ـ أن تستعيد هذه الذكرى الأولية الشاحبة.

تتقدم وتفتح الباب وهي تصيح في جذل: "هيا"، أسرع بالدخول خلفها، يرن جرس معلق خلف الباب، أجد نفسي في لحظة وجيزة داخل المطعم ، أظل واقفا حتى أتبين تفاصيله من خلال العتمة التي تحيط بالمكان، ما يزال الجرس يصلصل، كنت أتوقع شيئا مختلفا ومفاجئا، ولكنه ـ بالفعل ـ مطعم، واسع ومعتم ومليئ بالمناضد المتراصة، عليها مفارش بيضاء ناصعة، بعضها خال، وبعضها يشغله زبائن، اثنان على كل منضدة وبينهما شمعة مضاءة، كل شيْ مغلف بضباب رائق خفيف كأننا نقف على حافة حلم ما.

لا أرتدي الملابس المناسبة ، بينما يرتدي كل رواد المطعم ثيابا رسمية، عائشة أيضا ترتدي ثوبا صيفيا خفيفا موشى بالأزهار يكشف عن ذراعيها وجزء من نحرها، لا يتناسب إلا مع مطعم للوجبات السريعة، ولكنها تبدو مثل زهرة متألقة وسط كل هذه الألوان الباهتة.

لا أفطن للرجل الطويل الأصلع بحلته الرسمية السوداء إلا عندما يصبح بجانبي تماما، يتأملنا بوجه جامد الملامح وهو يقول:

ـ مائدة لاثنين يا سيدي؟

صوته غريب، كأن هناك فراغا بداخله ترتج فيه الحروف فتخرج مصحوبة بصدى خافت، لا أجيب، ولا ينتظر هو جوابا منا، يسير أمامنا بخطوات متصلبة دون أن يصدر صوتا عن وقع أقدامه، يرفع الزبائن رؤوسهم ويرمقوننا بنظرات خاطفة يعودون بعدها للمضغ والتهامس، يشير الرجل إلى منضدة بجانب الحائط، ولكن عائشة تهز رأسها وهي مبتسمة وتشير إلى منضدة أخرى بجانب الواجهة الزجاجية التي تفصل المطعم عن الشارع، تختار مكانا بعيدا نسبيا عن الزبائن، ترغب في حديث طويل لا يستمع إلينا فيه أحد، يتردد الرجل لبرهة كأنه يقيس كل الاحتمالات ثم يسير حتى يتوقف أمام المنضدة، تبتسم عائشة في انشراح وهي تأخذ مكانها:

ـ آرأيت؟

حتى الآن لم يكن هذا ما تخيلته عن لقائنا الأول، ولكني كنت أريد أن أبدو أمامها مهذبا وأن أحصل على رضاها الكامل، أتصنع الابتسام ولكن السؤال يخرج من فمي رغما عني:

ـ هل أتيت إلى هنا كثيرا قبل الآن؟

يرفع الجميع رؤوسهم من فوق المناضد، يرمقوننا في نظرة عاتبة، تهمس عائشة:

ـ اخفض صوتك، هذا المطعم مثل المكتبة، لا يجب التحدث فيه بصوت عال، الهمس يجعل الأمر أكثر حميمية ، هذه هي الفكرة.

لا تنتبه لسؤالي ، أو لعلها تجاهلته، اتأملها عبر المنضدة، بيننا شمعة مطفأة ووردة حمراء وحيدة، ألمس أوراقها فتسري في بدني رعدة مفاجئة كأنما مسني تيار كهربي، أهتف :

ـ وردة من المعدن.

تقول عائشة :هذه مجرد بداية ، كل شيْ هنا مختلف ومثير.

أشاهد ماذا يحدث في الجانب الآخر من خلال الزجاج، وجوه العابرين تبدو شديدة القرب، تحدق امرأة عجوز فينا مباشرة بوجه مليْ بالتفجع والأسى، التفت إلى عائشة:

ـ لماذا تحدق فينا المرأة بهذا الشكل؟

تقول عائشة في هدوء :

ـ إنها بالتأكيد لا تراك، هذا الزجاج لا يكشف عما في الداخل، من المؤكد أنها تنظر إلى نفسها.

يقف نادل آخر بجواري، لا أسمع صوت أقدامه، لايبتسم ، ينحني بوجه جامد ويخرج قداحة من جيبه ويشعل الشمعة، كان هذا أفضل ما حدث حتى الآن ، فقد انعكس ضوء اللهب على وجه عائشة وانبعث من عينيها نظرة فرح متألقة، أقول لها:

ـ أو تعرفين يا عائشة ، إن ضوء الشمعة يزيد من جمالك.

تقلب شفتيها وهي تقول :

ـ أتعرف، هذه كلمات جميلة ، ولكنها عادية، انتظر قليلا ربما خطر ببالك شيئا مميزا.

يقف نادل آخر بجواري، لا أدري إن كان قد استمع لكلماتها الساخرة أم لا، وجهه جامد كدأبهم جميعا، ليس جمود التأدب والترفع عن محادثة الزبائن ولكنه جمود متيبس وساكن، يضع قائمتي للطعام أمامنا وينصرف ، أفتح القائمة أحاول عبثا أن أعرف شيئا عن أصناف الطعام أو أسعارها، تهمس عائشة:

ـ لا تحاول، لن تستطيع قراءتها، الأفضل أن نترك لهم أمرنا ، يقدمون لنا شرابهم وأطباقهم الرئيسية ، هذا أسهل لنا ولهم ، دع القائمة جانبا.

أضع القائمة وأنظر إلى عينيها مباشرة لعلي أقتنص منها نظرة حقيقية، لكنها لا تجلس ساكنة ، لاتني تدير وجهها المنبهر في كل اتجاه، يجئ نادل آخر ويمسك دفترا وقلما ليتلقى الطلبات، تناوله عائشة قائمتي الطعام وهي تقول:

ـ احضر شراب اليوم، وطبق اليوم، اثنين من كل صنف.

تستدير نحوي وتحدق في مباشرة وهي تقول:

ـ والآن ماذا؟ هل نويت التخلي عن غموضك وأن تخبرني من أنت؟

أقول مدهوشا: أنا الغامض أم أنت، في الواقع أنا لا أعرف عنك أي شيْ.

ترد في بساطة :

ـ جميع من في المؤسسة التي نعمل بها يعرفون عني كل شيْ، تزوجت وطلقت مرتين، قصة عادية ومألوفة وسخيفة أيضا، تجدها في زاوية القراء في أي صحيفة، الأسباب تختلف أحيانا، يمكن أن أكون أنا امرأة فاسقة، ويمكن أن يكون هو زوجا شرسا، ولكن لا جديد في أمثال هذه القصص، ماذا عنك أنت ؟

تنظر مباشرة إلى عيني، إلى داخلي، لا أتوقع نظرة منها بتلك الحدة، أدير وجهي فأرى رجلا يحدق في هو أيضا من خلف الزجاج، برغم حلول الظلام في الخارج فإن ملامحه تبدو جلية، حانقة وغاضبة، كأنه يدعوني للانصراف، تسري في داخلي رعدة خفيفة، أجد أمامي كوبا زجاجيا به مشروب متداخل الألوان، وعائشة مازالت بنفس اهبتها المتحفزة، تجلس مقوسة الكتفين قليلا للأمام، ومرفقيها مرتكزين على المنضدة ومن خلال فتحة ثوبها تظهر قمتي ثدييها بوضوح، تتولد داخلي رغبة عابرة سرعان ما تنطفئ أمام عينيها المتحفزتين، أتناول من الشراب رشفة سريعة وأقول:

ـ أنا أكثر منك وضوحا، لا يوجد في حياتي أي تفاصيل، لم أتزوج ولم أطلق، ليست لي تجربة مثيرة ولا حكاية.

أتوقف، أشعر بطعم الشراب وهو ينزلق إلى معدتي، مزيج من عصير الفاكهة والتوابل والكحول ، وطعم شيْ آخر أشبه بالزيت، أمسك نفسي حتى لا أتقيأ، أنظر إليها، وهي تقول بصوت خافت فيه بعض من الحدة:

ـ هذه المشكلة، لا تفاصيل، هل يمكن أن تكون هناك حياة بلا تفاصيل، هذا يعني أن لديك سرا تحاول إخفائه، أو ربما شيْ تخجل منه، ما الذي يجعلك مثلا تجلس في أصغر غرفة في المؤسسة التي نعمل بها.

أشعر إنني متهم، أبحث في ذاكرتي عبثا عن أي تفاصيل حتى ولو كانت تافهة:

ـ أنا مجرد محاسب، عملي لا يحتاج إلا إلى حيز ضيق، ليس عندي إلا بضع دفاتر مليئة بالأرقام والجداول، لا جديد، قبلها كان هناك محاسب آخر يجلس على نفس المكتب ويمسك نفس الدفاتر ، لقد مات في نفس الغرفة ، أحيانا عندما أتأخر قليلا في الصباح ، أراه جالسا في مكاني وهو يقلب الدفاتر، ربما ليتأكد من جودة عملي، ولكن ما أن يراني حتى يتبدد ، يذوب ، يترك المكان دون ضجة أو اعتراض، كل ما في الأمر أن المقعد حين أجلس عليه يكون باردا قليلا.

لا أستطيع التوقف عن مواصلة تناول المشروب برغم كل ما فيه، أحاول التغلب على طعم الزيت في معدتي، أراقب الندل الذين لا يكفون عن الحركة من حولنا، وكبيرهم يومئ إليهم برأسه الأصلع ليوجههم، لا ينهض أحد من الزبائن ولا يدخل أحد، لا أسمع جرس الباب طوال هذه المدة ، يبدو أن كلماتي لم تستأثر باهتمام عائشة لأنها تعاود الإلحاح في السؤال:

ـ قبل أن تتوظف، ألم تكن على قيد الحياة؟

ـ طبعا، ولكن ليس في مكان محدد، أديت الخدمة العسكرية مثلا، أثناء الحرب، عاصرت حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر.

بدا الحماس قليلا في صوتها :

ـ هل شاركت في القتال؟

ـ كنت محاسبا

تهتف في خيبة أمل : في الجيش أيضا؟

أقول مدافعا عن نفسي وقد بدأ صوتي في الاحتقان:

ـ لماذا يبدو هذا غريبا، حتى الجيش في حاجة إلى محاسبين، كنت محاسبا في مخازن العتاد، أحسب عدد القذائف والألغام وطلقات الرصاصة والصواريخ والطوربيدات التي تطلق في كل معركة أو مناورة أو تدريب، وكنت أعرف بأمر اشتداد القتال عندما تزداد الطلبات عندي، كنت أستطيع حساب كل معركة بدقة متناهية.

تقول : بما في ذلك عدد القتلى؟

أبدأ في التضايق من طريقتها في توجيه الأسئلة :

ـ كيف لي أن أعرف عدد القتلى، في كل مرة يأتيني جنود مختلفين، وفي كل مرة أتأمل وجوههم على أمل أن أتعرف على أحد منهم حتى يعود إلي من جديد ليخبرني عن سير المعارك، ولكن أحدا منهم لم يعد للمرة الثانية أبدا، وفي النهاية كنت أدرك أن الطلقات أهم من الجنود ، بالنسبة لي على الأقل؟

أشعر بالسخونة وهي تتصاعد من معدتي إلى رأسي، تحدق بي من خلف الزجاج طفلة صغيرة، فاغرة الفم، مندهشة من شيْ ما، ألتفت إلى عائشة، الشمعة التي بيننا متوهجة ولكنها لم تنقص، طرفها المدبب مازال كما هو، الخيط التي تنشب فيه النار لا يحترق، تتأملني عائشة مستمتعة بمظاهر الحيرة التي تبدو على وجهي، ترى لماذا دعتني إلى هذا المكان؟

أفاجئ بالندل وهو يقفون بجانب منضدتنا، بلا صوت لأقدامهم ولاحس لأنفاسهم، بعضهم يحمل أطباقا يقومون برصها على المنضدة، أطباق ذات أشكال هندسية، مثلثة ومربعة ودائرية ومكعبة، كلها من معدن مائل للزرقة، يضعها النادل بحيث لا تترك فراغا فيما بينها، يكون منها جميعا مربعا واحدا متساوي الأضلاع، يفعل ذلك بدربة ومهارة ثم ينصرف هو والباقين دون صوت ، أهتف:

ـ هذه الأطباق الغريبة، والشمعة التي لا تحترق ، والوردة المعدنية الباردة، والندل الذين لا صوت لأقدامهم أو أنفاسهم، أي مطعم هذا ؟

تقول عائشة : بدأت تنتبه أخيرا ، كنت أسأل نفسي ، متى ستفطن إلى ذلك؟

أحس بالبلاهة، تشير إلى الطعام الموجود في الأطباق وهي تقول:

ـ هل رأيت طعاما مثل هذا؟ مقطعا ومعدا بمثل هذه الدقة، طبق السلاطة، استدارة قطع الخيار، قطع الفلفل، كل واحدة تشبه الأخرى تمام الشبه، نفس الاستدارة والسمك وطول القطر، حتى عدد البذور في كل قطعة طماطم أو الخيار متساوية، كذلك الأمر بالنسبة لأوراق الخس والكرافس، لها نفس التجعيدات، وحتى عيدان البقدونس والشبت ، لا تختلف واحدة عن الأخرى، الخبز المحمص وقطع والزبدة المخفوقة، كلها لها نفس الشكل والحجم، تأمل مكعبات البطاطس وقطع الجزر التي تأخذ شكل الحلزون وحبات البازلاء، كلها متساوية، لا تزيد أنملة ولا تنقص ذرة، انظر أيضا إلى الخطوط التي تتركها أثار الشواء على اللحم، كلها متوازية، محددة، قطع "البفتيك" لها نفس الحجم والمقدار والسمك، وكذا خطوط الدهن الموجودة فيها، حتى ذرات الملح والفلفل، كلها تترك نفس العلامة، لا يوجد هنا شيْ تقريبي أو محتمل، كل شيْ محسوب بدقة متناهية، ليس في الشكل فقط ولكن في الطعم أيضا، الحلو مع المر والحمضي مع القلوي والساخن مع البارد، هل لاحظت طعم الشراب؟

تتحدث في حماس غامر، تنتشر السخونة من معدتي إلى بقية بدني، كأنها تبتعد وصوتها يتناهى مصحوبا بصدى فارغ، أقول:

ـ كأنه ملئ بالزيت.

تهتف : أرأيت، لا ينقصه عنصر واحد ، حتى الزيت.

يتكاثر الأطفال خلف الزجاج، يحدقون في بعيونهم المستديرة اللامعة، أرى في اتساع حدقاتهم لهب الشمعة التي لا تحترق، أقول في حدة :

ـ ما هذا المطعم الغريب ، لماذا أصررت على المجيء بي إلى هنا؟

تضحك عائشة بصوت رائق:

ـ ومن قال إنه غريب ، هذا مطعم المستقبل، هؤلاء الندل الذين لا يكفون عن الحركة من حولنا ، إنهم أناس آليون، انظر إلى مدى دقة اشكالهم، والحركة التي يسيرون بها، لا يصدرون صوتا ولا يتصادمون ولا يرتكبون أخطاء في حق الزبائن، لاشيْ عضوي وكل شيْ في غاية الدقة.

أضحك مدهوشا ومفزوعا:

ـ مطعم يديره آليون، هنا ، وسط هذا الحي التعس ، أنت تمزحين؟

تقول : ولماذا أمزح ، راقب كل شيْ بنفسك.

أتحرك على مقعدي في قلق، يختفي الأطفال والعابرون ويطبق الظلام على الخارج، ويواصل الندل حركتهم المثيرة للأعصاب، كأنهم موتى وقد نهضوا من قبورهم في نزهة مضيئة، لا يتحرك أحد من الزبائن، ولا يجرؤ أحد على رفع صوته فوق مستوى الهمس، أقول بصوت مختنق:

ـ هل نستطيع الانصراف؟

تقول ببعض من الحدة :

ـ ماذا بك ؟ إنهم غير مؤذيين، أليست هذه تجربة جديدة بالنسبة لك، مر بك العمر دون أن تحتك بشيْ حي، أرقام وجداول وقذائف، ما الفارق هنا؟

ـ لا أدري، ولكن داخلي كله يرتجف رعبا.

أحاول النهوض ولكن النظرة الصارمة في عينيها تبقيني في مكاني، تقول :

ــ هل دخلت السجن قبل الآن ، هل وقعت في الأسر؟

لا أدري كيف عرفت ذلك، لم أذكر ذلك لأحد أبدا، أقول بصوت مختنق:

ـ قبض علي مرة بطريق الخطأ، اعتقدوا إنني كنت أقود إحدى المظاهرات ، وضعوني في زنزانة ممتلئة بالماء لمدة ثلاثة أيام، كان خطأ غير مقصود ولم أحسن الدفاع عن نفسي، ولكنهم سرعان ما أفرجوا عني.

تشير إلى الطعام وهي تقول :

ـ ليس هذا إذن أسوأ ما مررت به، تناول طعامك إذن وحاول أن تبقى هادئا.

ـ لا أستطيع.. الأفضل أن نذهب.

تعود نبرة السخرية إلى صوتها:

ـ كونك لا تأكل لا يعني أنك لن تدفع الحساب.

ـ سأدفع بالطبع.

تشير بيدها نحو أحدهم، تخرب موعدنا الأول تماما ولم أعد أستطيع إنقاذ أي شيْ، ربما كان سبب ذلك الشراب الغريب، أو المباغتة الأشد غرابة، والأرجح أنها كلماتها القاسية التي لم تكف عن السخرية مني، يأتي كبير الندل جامد الوجه متعاليا. يضع أمامنا رقيقة معدنية، أتأمل ما فيها من ثقوب وأرقام بارزة دون أن أستطيع قراءتها، تتناولها عائشة وتذكر الرقم في سرعة، لم يكن السعر مبالغا فيه، كان في حدود الإمكانات التي خططت لها، أدخل يدي في جيب بنطالي الخلفي حيث توجد حافظة نقودي، أفعل ذلك ببطء أولا، ثم بسرعة وعصبية وأعيد التفتيش، يقبل بقية الندل ويقفون خلف النادل الأصلع، يتوقف كل من في المطعم عن المضغ والهمس، أقول لها:

ـ لقد فقدت نقودي.

تقول هي أيضا في صوت خافت:

ـ يبدو ذلك واضحا، من المؤسف أيضا إنني لا أحمل نقودا.

يقول كبير الندل في صوت معدني أجوف:

ـ هلا أتيت معنا يا سيدي؟

أقول في صوت مرتعد:

ـ لابد وأن هناك حل، يمكنكم أخذ أي شيْ على سبيل الضمان ، أو استدعاء الشرطة للتصرف.

تقول عائشة :

ـ أستطيع الذهاب وإحضار نقود ، أليس هذا حلا مناسبا؟

تتوجه بتساؤلها إلى كبير الندل الذي يحني رأسه وهو يقول :

ـ يبدو حلا مناسبا يا سيدتي.

أتأملها وهي تتناول حقيبتها من فوق المنضدة، لا تكلمني ولا حتى تنظر إلي، يوسع لها أحد الندل حتى تخرج من الدائرة التي تحيط بنا، أسمع صوت جرس الباب وهو يصلصل للمرة الأولى منذ أن دخلنا، لا أرى خلف الزجاج سوى الظلام، أجلس إلى المنضدة خائرا، يقول كبير الندل :

ـ لا تستطيع أن تظل جالسا إلى المنضدة يا سيدي.

أتمسك بحفتها متوقعا أن يحاولوا انتزاعي ،أقول:

ـ سأبقى حتى تعود.

لا يتخلى صوته المعدني عن حياده وهو يقول:

ـ لا يمكنك أن تشغل المنضدة يا سيدي لمجرد الانتظار، هناك زبائن آخرون سوف يجيئون.

وجهه ليس غاضبا ولا متعاطفا، يشير إلى مكان ما في نهاية المطعم، يحدق في الجميع ـ الندل والزبائن ـ في نظرات معدنية بليدة، أنهض ، يسيرون حولي، صوت خطواتي هو الصوت الوحيد الذي يسمع في المطعم،

يفتح أحد الندل بابا معدنيا صغيرا في نهاية القاعة، يخفض الزبائن رؤوسهم في تواطؤ وأمر عبر الباب، أجد نفسي في المطبخ، أمامي صفوف من المواقد والأواني والمناضد والأرفف المعدنية، حركة دائبة لعشرات الأشخاص الذين يقومون بالطهي والتقطيع والتنظيف، لا صوت ، لا روائح ، لا أدخنة، طباخون بملابس بيضاء وأغطية رأس طويلة يتحركون في دأب، لا أحد يهتم بوجودي، يشير كبير الندل إلى أحد الأركان: " سوف تنتظر هنا".

لم يكن هناك مقعد أو مكان أو استراحة، مجرد جدار أملس لا يوجد فيه إلا نافذة صغيرة يجيئ منها ضوء مظلم، أقف بجانبها، ينصرف الندل ويواصل الطهاة عملهم دون مبالاة بوجودي، يفتح الباب لينفذ منه أحد الندل، يحمل الأطباق المعدة ثم ينصرف، كل تلك الحركات كانت بلا صوت وباعثة على الوحشة، لا أتحرك من مكاني ولا أستطيع أن أظل قادرا على النظر إليهم، لا أتحرك، أدير رأسي فقط لأنظر من خلال النافذة، فراغ ممتد وعميق ومظلم وشاسع، لا ظل لبيوت، لا بريق لضوء، لا حد لأفق، لا مجرى لنجوم، لا صوت لهبوب الريح، لا حفيف لذرات الرمل، لا براح للسماء، أشعر بحزن دافق، هذا الفراغ الموحش يأخذ مكانا في الروح رغما عنها، أستدير نحوهم، ضوء صاف يغمر المكان، ليس له مصدر محدد، في المواقد لهب أزرق لا يتراقص، حركة دائبة لرص الأطباق والأواني دون تصادم أو تداخل، لا يسيرون بتلك الطريقة المتقطعة الحادة التي تصدر عادة عن الآلات، حركاتهم انسيابية، محسوبة، متوافقة مع الفراغ الذي يحيط بهم، يعملون بلا تداخل ولا تفاعل، لا أحد يتبادل الحديث أو يرفع رأسه ولو لبرهة عن العمل الذي يستغرقه، مثيرين للملل وللرعب أيضا، بلا نقاط ضعف ولا أخطاء، بلا حاجة للحب ، أو خضوع للرغبة أو حافظة نقود يمكن أن تختفي في أي وقت، هل ستعود عائشة حقا؟ أستدير للنافذة ، أترك المزيد من الفراغ المظلم يأخذ طريقه إلى روحي، ربما لن تعود، ربما أرادت أن تنجو بنفسها فقط، تتشكل ذرات الظلام أمامي، أرقام وجداول وقذائف وقضبان، يتصاعد ألم شديد من قدمي إلى بقية جسدي ولكني لا أرفعهما، لا أستند إلى الجدار، أغمض عيني، أغمض عيني فأراني طفلا صغيرا مختبئا تحت الفراش الواطئ وأرى أقدام زوجة أبي، أفتح عيني فأرى الظلام القادم من النافذة، أغمض عيني فأكبر قليلا أتلصص على كل البنات اللواتي حرمت من صحبتهن، أشم رائحة البارود الغابر والعفونة القائمة، كم مر من الوقت ؟ لا وقت، لاشيْ يتغير، اختفى الألم من ساقي، خدر ناعم يتسلل من خلية إلى أخرى، لا أحركهما، أتركهما تتحولان إلى قائمتين تحملان جسدي، يواصل ذهني الانتقال، يقظة، نوم، زمن لا يمر، زمن لا يأتي، يقف نادل أمامي ، دون أن يتحدث يمد يده بكوب من الشراب، لا أسأله عن عائشة، يتركني ويمضي، أشرب الكوب ، عصير فواكه وزيت، تتشرب معدتي الزيت في ارتياح، لعل هذا هو بالضبط ما كنت أريده، يأتي نادل آخر ويأخذ الكوب مني، الظلام القادم من الخارج يتماوج كالزيت، ذراته تتداخل في الصور التي أذكرها، تزيح ألوانها، تحولها إلى صور بيضاء وسوداء، ينزاح البياض، تصبح سوداء مريحة، ذكرياتي كانت باهتة الألوان لدرجة لم تستطع المقاومة، الظلمة الصافية تملؤني بلا ألم ولا ندم، أرخي عضلاتي وأفتح فمي، أترك ذراتها تسكن مسامي

وتنفذ من خلال بلعومي، كوب آخر من الزيت، ثم كوب آخر، يزداد جسي ثقلا، يصبح أكثر ثباتا فوق الأرض.

يسحبونني من يدي فأسير معهم طائعا، ينزعون ثيابي، يعطونني ثياب أخرى بيضاء، أقف أمام صفوف عالية من الأطباق، كل صف له شكل هندسي مختلف، كلها ملوثة ، بقايا أطعمة وسجائر وبصاق ، أغسل وأغسل، أعمل في بطء أولا ، وتقع مني الأطباق ، الوحيد الذي يصدر صوتا، لا أحد يلتفت إلي، تزداد سرعتي، أقطع الخضراوات، أمسك سكينا لامعا يحول كل الأشكال المهوشة إلى أشكال هندسية، مكعبات، مثلثات، مسدسات .

ينزعون ثيابي ويعطونني ثياب أخرى سوداء، حلة كاملة ورابطة عنق مثلثة، أترك المطبخ وأعبر الباب الصغير إلى قاعة الطعام، أدور بين المناضد، زبائن، كائنات ملوثة، تمضغ وتهمس وتتجشأ وتصدر أصواتا مزعجة، وأنا أدور بلا صوت، لا صوت للنجوم في المجرات، ولا للكواكب، لا صوت للضوء، كل الأشياء النقية لا صوت لها.

ذات لحظة، ذات زمن ما، أراها أمامي ، لا أذكر أسمها، ولكنها تجلس في نفس المنضدة، وترتدي نفس الثوب ، وأمامها رجل آخر ينصت إلى حديثها في اهتمام، أمد يدي بالقداحة وأوقد الشمعة التي لا تحترق، أراقبهما قليلا، أضع الأطباق المثلثة والمربعة والمستطيلة، أتحرك أمامهما وأسمعها وهي تتحدث عن أشكال الخضراوات المقطعة، لا تنظر إلي، أقف في الركن بحيث أستطيع أن أرى عينيها تتألقان في ضوء الشمعة.

حدث في مقهى

" المنظر الجميل"

" إلى فتحي غانم ، لأنه ذات لحظة سحرية رأيته للمرة الأولى في حياتي
وهو يلعب الشطرنج في هذا المقهى "

كل شئ يبدأ بتلك النظرة الميتة، يرفع "عيسى البارودي " رأسه وهو يستعد لقول كلمة " كش " فيراها، أما كان لها أن تضيع خلف كل هذه الأوجه التي يزدحم بها مقهى " المنظر الجميل "؟ و أن تحجبها هذه الأدخنة المتصاعدة من الشيشة ؟ ولكنها مازالت مصوبة نحوه ، لا تعني أحدا ولا ترى أحدا غيره، يسمع صوت خصمه متحسرا، يسمع همهمات بقية الرفاق الذين يحيطون به ، ولكنه يظل مأسورا بتلك النظرة، تسري في عروقه ذرات من البرد ، وتبدو الحدقتان المسلطتان عليه فارغتين ، يحيط بهما وجه مستطيل وبالغ الشحوب ، شفتاه قابضتان على " مبسم الشيشة" دون أن تنفسا ذرة من الدخان ، يخفض عيسى رأسه وهو ينتفض، يهنئوه الذين حوله في غيظ مكتوم، وبكلمات مليئة بتوريات الضغينة ، يقول على البحيري الخصم الذي كان يلاعبه وأقرب الأصدقاء إليه من بين أسنانه :

ـ خمس سنوات دون هزيمة واحدة "يا عيسى" لم تدفع شيئا ، ترى كم مشروبا دفعنا لك ثمنه ؟ .

يضحكون ، ضحكات مثقلة بالسعال وخالية من المرح ، يعدد واحد آخر من الجالسين :

ـ خمسة آلاف كوب من الشاي ، ومثلها من المرطبات ، وعشرون ألف فنجان من القهوة ، حمدا لله لأنه ليس من هواة التدخين وإلا أصبنا بكارثة مالية .

يحاول " عيسى البارودي" التشاغل بالنظر إليهم ، كأنه يراهم للمرة الأولى ، طوال هذه السنوات وهو يجيد نصب الفخاخ التي توقع بهم ، فهل تركت أدوار الهزيمة كل تلك الندوب في داخلهم ، وهل كان طوال هذه السنوات لا يراهم إلا من خلال مربعات هذه الرقعة ، يلاعبهم وفق الدور المرسوم في ذهنه بغض النظر عن شخصية من يجلس أمامه أو الطريقة التي يلعب بها ، لعله من أجل هذا السبب كان يهزمهم في كل مرة .

يدير عينيه في أرجاء المقهى ، يحس بالراحة لأن الرجل ذي النظرة الميتة لم يعد في مكانه ، لعله لم يكن موجودا أصلا ، مجرد رؤية مبتورة من حلم ضائع ، في بقية أركان القهوة تصدر صناديق الألعاب الإلكترونبة أضواء وأصوات أشبه بفرقعات الحروب الصغيرة ، يجلس عليها أولاد صغار ، كأنهم لا يفارقون هذه الآلات ليلا أو نهارا ، هيئتهم تذكره بحفيده " حمادة " وجلسته المستغرقة أمام جهاز الكومبيوتر ، حين احتج عيسى ورفاقه على كل تلك الضوضاء هددهم صاحب المقهى بأنه مضطر للتوسع في هذا النوع من الألعاب لأن ألعابهم القديمة لم تعد مجدية ، ربما كانوا يلعبون الآن أخر أدوار الشطرنج ، وعندما تطوى رقعة المربعات التي أمامهم فسوف تطوى للأبد ، يقول عيسى محاولا أن ينفس التوتر الذي في داخله :

ـ أتعرفون ، تحداني حفيدي " حمادة " هذا الصباح ، قال أن جهاز الكومبيوتر الصغير الذي يلعب عليه يمكن أن يهزمني في الشطرنج .

لا أحد يرد ، وجوههم المتعبة فقدت الرغبة في أي مشاركة حية بينهما ، الشطرنج هو فقط الخبرة الصامتة المسموح بها ، هل ينهض ويتركهم ؟ ولكن إلى أين يذهب وليس هناك إلا غرفته الخالية وطعامه البارد .

ـ فليسمح لي "عيسى بك " أن ألعب معه دورا .

صوت أجوف وحروف متآكلة ، يدير عيسى رأسه فيجد الرجل ذي النظرة الميتة واقفا أمامه ، يعجز عن الرد المباشر ، يظل مسمرا وعينيه مشدودتان إلى وجهه ، حدقتا الرجل ليستا فارغتين كما أعتقد لأول وهلة ، فيهما عينين ذات لون واحد باهت مائل للصفرة ، بلا دوائر من أي لون في وسطهما ، دون بؤبؤ ، يقف طويلا فارعا في ثياب سوداء خالية من التفاصيل أيضا ، أصابع يديه تبدو معقوفة و أطول من المعتاد والجلد الذي يكسوها أكثر شحوبا ، يصمت الجميع ، لا بد أن نفس الرجفة قد سرت في أجسادهم ، يبتلع عيسى ريقه وهو لا يدري ماذا يفعل و الرجل منتصب أمامه كأنه يطالبه بثأر قديم ، تخفت أصوات المقهى ، حتى تلك الصادرة عن الألعاب التي لا تهدأ ، ينهض " على البحيري " من المقعد الذي كان يجلس عليه في صمت ، كأنه يعطي الرجل الغريب الموافقة التي لم يجرؤ "عيسى البارودي" على النطق بها ، فيجلس بدلا منه في مواجهة عيسى ، يصبح أقرب ما يكون إليه ، يسلط عليه عينيه الشبهتين بالمرايا المسطحة دون أن تنعكس فيهما أي صورة ، يبتلع عيسى ريقه الجاف وهو يقول :

ـ هل تعرفني ؟

يرد عليه بنفس الصوت الأجوف :

ـ أعرف طريقتك في اللعب ، راقبتك ورأيتك دون أن تراني .

إجابة غامضة وغير كافية ، يهمهم عيسى لنفسه ، يمد الرجل أصابعه المعقوفة ويبدأ في رص القطع ، يفكر "عيسى " فهمان ، هل ينهض وينصرف ؟ لكنه يجد نفسه مربوطا في مقعده ، بينما يتظاهر الآخر بمعرفة أصول اللعب فيضع القطع البيضاء أمامه ، يعطيه امتياز اللعبة الأولى التي قد تتحكم في مسيرة الدور ، ينظر

عيسي لوجوه الرفاق التي مازالت مبهوتة ، لا أن يستطيع أن يعرف من خلال عيونهم المبحلقة إن كانوا يودون منه اللعب أو الانسحاب ، ولكن هل يستطيع الانسحاب بعد أن وصل الأمر إلى هذا الحد دون خزي ؟ يحس بشكل غامض أنهم معا جميعا يريدون منه هزيمة هذا الغريب المقتحم ، مد أصابعه واستعد لتحريك أولى القطع ولكن الصوت الأجوف باغته مرة أخرى :

ـ جرى العرف بينكم أن تلعبوا مقابل شيئا ما ، أليس كذلك ؟

أحس "عيسى" بالحنق وتكلم " علي البحيري " للمرة الأولى ، بصوت مكتوم :

ـ لقد شربنا ما يكفي .

قال ذو النظرة الميتة دون أن ينظر إليه :

ـ ومن الذي تحدث عن المشروبات ؟

يقول هذا وهو يواصل التحديق في عيسى كأنه هو الوحيد الذي يعنيه ، طوال هذا العمر لم يلوث عيسى الشطرنج بأي أنواع من المراهنة ، تكفيه ما فيه من إثارة ومتعة عقلية ، وليست المشروبات إلا إشارة رمزية لهذه الإثارة، يسترد عزيمته للمرة الأولى وهو يقول:

ـ نحن لا نلعب على النقود .

ـ فلنلعب على ما هو أهم ، على روح اللعبة نفسها .

ـ ماذا تعني ؟

حدق فيه الرجل بعينيه الميتتين فازدادتا موتا، كأن صوته يأتي عبر مسافات بعيدة وينتمي إلى عالم آخر وشخص آخر :

ـ الشطرنج ليس مجرد لعبة، إنه صراع الحياة والموت، الوجود وعدمه، فليكن رهاننا على هذا الوجود.

يصمت ولكن نظرته الميتة تظل مسلطة عليه ، كأنه قد قدم عرضا واضحا ومقنعا ولا يمكن رفضه ، يوشك عيسى أن يصرخ فيه : أنا لا ألعب مع مجانين ، ولكن الصمت يظل مخيما ، يدير عيسى رأسه ، عند المنضدة المجاورة يقف بائع الفول السوداني وهو يمارس رهانه المعتاد مع الزبائن ، يضع أمامهم قبضات عشوائية من حبات الفول، إذا كانت زوجية العدد أخذ ثمنها، وإذا كانت فردية تركها لهم مجانا ، يواصل وضع المزيد من القبضات وسط صياح الزبائن وضحكاتهم ، يواصل خسارة حبات الفول دون أن يستطيع التوقف ، وجهه حزين ومرهق وهو يلوح بالسلة وقد أصبحت فارغة، يضحك الزبائن في صخب ويشرعون في التهام الفول المجاني ، يود عيسى أن ينهض وأن يبعده عن هذا المكان، أن يمتلك هو الإرادة ليبتعد أيضا، يسمع صوت علي البحيري وهو يتساءل :

ـ أي وجود ؟

يرد الرجل بنفس الصوت البارد :

ـ وجودكم .. أو .. وجودي ؟

يلتفت إليه عيسى قائلا في حدة :

ـ من أنت ، ملاك الموت مثلا ؟

ـ لم أتحدث عن الموت ، تحدثت فقط عن عدم الوجود .

ينهض الرفاق الخمس في دفعة واحدة ، يحسب عيسى أنهم سوف ينصرفون ولكنهم يحولون مقاعدهم بحيث تصبح لصق مقعده ، يعلنون تضامنهم معه في وجه هذا التحدي الغامض ، يضع علي البحيري يده على كتفه معززا :

ـ لا عبه يا عيسى بك ، إنه شاب مغرور ويجب أن يتلقى درسا .

يمد عيسى أصابعه محاولا أن يقنع نفسه بان هذا الرجل لا يعدو أن يكون أحد مجانين الشطرنج الذين كثيرا ما يمرون عليهم في المقهى، يتوقع أن يرى رعشة أصابعه وانتفاضة جسده مع أولى حركات القطع الخشبية، يفرغون ما في داخلهم من إحباطات ومرارات على المربعات البيضاء والسوداء ، يبدأ عيسى اللعب دون أن ينظر إليه ، دون أن يقع أسيرا لموات عينيه ، يحرك بيدقه الأبيض فيجئ الرد سريعا من الخصم، كأنه ينتظر فقط لحظة البداية ، يقف جرسون المقهى أمامهم قليلا لعل أحد ينتبه إليه ، جميعهم يعانون من جفاف حلوقهم ولكن أحدهم لا يرفع رأسه، ينسحب وهو يتمتم في غيظ ، يستجمع عيسى في رأسه كل الأدوار التي لعبها ، وكل الفخاخ التي نصبها ، ولكن إيقاع الدور كان أسرع مما يجب ، كلما قام بحركة بادره الرجل بأخرى مباغتة ، يرد عليه بسرعة ، بدون تركيز وبلا تردد، ودون أي رابط بين التحركات المختلفة ، لا يعتني كثيرا بالرد على تحركات عيسى ، لا يهاجمه ولا يبدو أنه ينوي ذلك ، يقتنع عيسى أنه يواجه لاعبا مشتتا، توشك نوبة جنونه أن تصل إلى ذروتها ، ولكن كيف سوف يفرغ ما في داخله من انفعالات ؟ تأخذ بيادق الرجل ذي العينين الميتتين في التهاوي ومع ذلك يظل يواصل التقدم بها إلى أماكن خطرة ودون حماية كأنه قائد مهووس ، يقتل عيسى البيادق بلا ثمن، يزيحها من فوق المربعات، يعرى "شاه " الخصم من الحماية اللازمة ، ثم يحين وقت تدخل الأحصنة فيأخذ عيسى بالتقافز بها من فوق الحواجز ، ، مرة أخرى يضغط "علي البحيري" على كتفه مشجعا ، يسمع شهيق أنفاسهم مع كل حركة يقوم بها ، يحرك "شاهه" إلى أكثر مربعات الحماية ويضع القلعة لصيقة له ثم يزفر أنفاسه في ارتياح ويصبح في إمكانه أن يرفع رأسه أخيرا .

يكتشف أن الرجل لم يكن يحدق في الرقعة ، بل فيه هو ، يمد أصابعه فقط ليحرك القطع دون أن يراها ، إما لأنه لا يبالي أو أنه يحفظ مكانها جيدا ، أو لعله كان يرى انعكاسها في عيني "عيسى البارودي" ، يلعب عليه هو ، على ملامحه وانفعالاته ، تتبدد لحظة البهجة المؤقتة ، يدير بصره إلى الرفاق المحيطين به ، يحاول الانشغال يتأمل تضاريس وجوههم ، أعمارهم تقارب عمره ، جميعهم خرجوا من زحمة الوظيفة إلى برودة التقاعد بفارق شهور قليلة ، عاشوا حيوات على جانب من قليل من الأهمية وترقوا إلى أفضل المناصب

التي تتيحها الأقدمية المطلقة، ذات مرة أوشك أحدهم أن يصبح وزيرا لولا أن تقارير الأمن أدانت واحدا من أقاربه الأبعدين وأبعدته عن المنصب ، تزوجوا جميعا من فضليات النساء ، وجرب بعضهم مرارة الترمل دون أن تتم حالة واحدة من حالات الطلاق ، حتى الأولاد جاءوا جيدين بانحرافات غير مؤثرة ، لم يكن أحد منهم ثريا بالمعنى المعروف ، عاشوا مستورين ، بلا مآسي كبيرة ولا أفراح غامرة ، دون انتصارات أو هزيمة غامرة ، ولكن في ظل أفق شاحب متوازن يسوده بعضا من الإحباط والرضا المختلط بالمرارة، وفي الوقت الذي كان العالم يتآكل تحت وطأة التغيرات غير المفهومة ظل عالمهم متماسكا تماسك الخشب المعشق ، متداخل دون التصاق .

قال الرجل ذي النظرة الميتة في صوت بارد كالقشيعريرة :

ـ أربع لعبات .. كش مات

يحدق " عيسى البارودي" في الرقعة بفزع ، هي نفسها منذ أن رفع رأسه عنها ، هو الذي قام بفرض أسلوبه وطريقته عليها ، يتأمل ترتيب القطع ، أربع حركات باقية، محددة الاحتمالات، فكيف أصبحت الفرصة خانقة لهذا الحد، يمد الآخرون أعناقهم وتبدأ أنفاسهم في التلاحق، يشعرون فجأة أن شيئا جنونيا على وشك أن يحدث، تخف ضجة الزبائن وتتجمد أدخنة الشيشة ، يكتشف عيسى أن هذا الرجل ذي النظرة الميتة قد استدرجه، تلك البيادق التي أعطاه له مجانا قد جعلته قادرا على المزيد من الحركة دون عوائق أو مخاوف ، يدرك أنه يجيد لعبة الحرب التي تأكل الجنود بلا ندم ، ويعد له كمينا لا يمكن الخلاص منه ، يرى المسار المرعب للعبات المحتومة واضحة وجلية ، ولكن كيف لم يرها قبل أن ينطق بتلك " الكش " الملعونة ؟ يرفع رأسه فيجد النظرة الميتة تواجهه، دون شفقة أو شماتة ، لا ينتظر منه شيئا سوى الاستسلام، ينظر إلى رفاقه فيجدهم يبادلونه نظرات الفزع ، هم أيضا عرفوا إلى أين تفضي المسارات وأدركوا بطريقة غامضة أنها تتقاطع مع مصائرهم ، قال عيسى محدثا نفسه ومتحدثا إليهم للمرة الأولى منذ سنوات خمس :

ـ لقد خسرت .

لا يصدر منهم أي صوت ، لا يقومون بأي حركة ، ولكن اشكالهم تبدو أكثر شحوبا ، تبهت ألوان جلودهم وتبدأ ألوان ثيابهم في التبدد ، يشهق عيسى وهو يراهم يغيبون في بطء ناعم ، تذوب ملامحهم وتفقد معالمها ويتحول وجود أجسادهم إلي مجرد إطار خارجي ، خطوط متكسرة سرعان ما تصبح إلى نقاط آخذة في الاختفاء ، وبدون أي مقاومة تصبح المقاعد خالية تماما .

يظل عيسى جامدا ، يحس بقش المقعد المجدول وهو يرسل داخله نبضات مؤلمة ، الإحساس الوحيد الذي يذكره أنه مازال حيا ، يمد يده ويتحسس وجهه وصدره ، يتأكد من وجوده ، ثيابه لها ملمس خشن وجلده فيه بغض من الدفء وقطرات من العرق ، ألم يختف لأن الرهان لم يشمله ؟ أم لأنه هو وحده الذي يعيش هذا الكابوس دون أن طريقا للإفلات منه ، قال بصعوبة كأن الصوت يخرج من جسد آخر غير جسده :

ـ أين ذهبوا ؟

قال الرجل ذي النظرة الميتة :

ـ ربما لم يكونوا موجودين أصلا .

تطفر دمعة من عينه وهو يصيح :

ـ لا تكن بهذه القسوة ، لقد كانوا أصدقائي منذ أكثر من عشرين عاما ، شاهدت ليالي زفافهم وأعياد ميلادهم وولادة أطفالهم ، عالمهم هو عالمي ، الأماكن مشتركة والذكريات متشابكة ، لا يمكن أن يكونوا غير موجودين .

يقول الرجل بنفس البرود الأجوف :

ـ حتى هذا العالم ، بكل ما فيه من تفاصيل ، يمكن أيضا ألا يكون موجودا .

يهتف عيسى متوسلا :قل لي أن هذا كابوس ، محض حلم سخيف سوف أستيقظ منه.

يصمت الرجل طويلا، يبقى جالسا أمامه بلا حراك ، ولا حتى نفس ، يدخل من باب المقهى أحد الحواة صائحا ، يدعو الجميع للانتباه إليه، يرفع في يده شعلة من النار ، يديرها في الهواء قبل أن يضعها في فمه فتنطفئ، يصفق له الجميع ، يعاود إشعالها ويحاول أن يطفئها بفمه مرة أخرى ولكنها تظل مشتعلة، يصرخ "الحاوي" وقد امتلأ فمه بالنار، يستغيث بالزبائن الذين يحدقون فيه بذهول ، ينهض أحدهم ويقذف وجهه بكوب من الماء ، ينهار الحاوي جالسا فوق أحد المقاعد الستة الخالية، يشرب من كل الأكواب لعل ألمه يخف قليلا ، تنطفئ النار ولكن الدخان يظل يتصاعد من فمه المتفحم ، يحدق فيهما مذهولا عاجزا عن التأوه .

يقول الرجل ببساطة قاتلة :

ـ لعلك تريد أن تلعب دورا آخر ؟

يجهش عيسى باكيا : أي دور أيها المجنون ؟

يطرح عرضه البارد :

ـ ربما تستعيدهم ، أو ربما يتبدد أيضا هذا العالم الذي تحسبه حقيقيا .

رهان مميت آخر وفرصة ضئيلة للنجاة ، الحاوي ينظر إليهما وقد انفرجت شفتيه رغما عنه في ابتسامة مدخنة، يحس " عيسى البارودي" أنه يتحمل مسؤولية اختفائهم ، كيف يمكن أن يبرر ما حدث أمام أهلهم وذويهم ، هل يمكن أن يتصور أحد أنه قد خسرهم في دور تافه وسريع للشطرنج ، قال متوسلا للمرة الأخيرة :

ـ من أنت بحق الله ؟

قال الرجل وهو يستعد لرص القطع من جديد :

ـ ربما لم أكن أنا نفسي موجودا .وهذه فرصتك لأن تجرب ذلك .

إحساس غامر بالقهر يدفعه للمجازفة ، ربما يمكنه أن يركز قليلا وأن يحسن التخطيط ، تخف الأصوات إلى حدها الأدنى وهو يبدأ في نقل القطعة الأولى ، يرد الآخر بسرعة كالعادة ، يشعر عيسى أن الرجل مازال يسلط عينيه الميتتين عليه فلا يرفع رأسه ، يهتف لنفسه مؤكدا : "لن أرفعها أبدا حتى نهاية الدور "، سيعود إلى طريقته القديمة ، خطة واحدة محددة تتعدل قليلا مع كل محاولة للخصم ثم تعود إلى مسارها ، ينظر إلى "شاهه" الأبيض الذي يقف تعيسا خلف صف البيادق دون أن يدري من أين تأتيه الضربة المباغتة ، يتوحد للحظة مع الجسد الخشبية ، يرى نفسه صغيرا مثله ، يحس بملمس ذقن أبيه الخشنة وهي تترك علاماتها على خده عندما حمل إليه شهادته المدرسية ، أبوه كان حقيقيا وأثار شعيرات ذقنه الناتئة قد لازمته طويلا ، يشم رائحة الوهج المنبعث من "زينب " بنت الجيران، من فوران جسدها المبكر ، وهي تستدرجه إلى "بير السلم " ثم وسط العتمة ترسل في أعماقه رجفة من اللذة تجعل كل خلايا جسده تنضج فجأة ، زينب كانت حقيقية وكذا تلك اللحظة العبقة بالاشتهاء ، يسمع صراخ لحظات الولادة لابنه الأول ، قطعة من اللحم الوردي ترتجف بين يديه ، ذات عينين مغطيتين بالمخاط وشفتين مزموتين ، كان المولود دافئا وحقيقيا ، فمن أين إذن تسربت أدخنة الوهم و وكيف تبددت ذرات الحقيقة؟

يهز رأسه ، ينفض ما فيها من أفكار ، يحرك الرخ والطابية بسرعة ليأخذ لنفسه فرصة أكبر في المناورة ، يبقى على الأحصنة دوما بجانب الملك ، القاعدة الذهبية في الشطرنج تقول : لا يموت ملك وحوله حصانان ، ينفذ بالوزير وسط البيادق دون يمسها ، يقتنص منه قطعة " رخ " ثمينة دون خسائر تذكر ، ولكن الصوت المعدني الأجوف يأتيه :

ـ أربع لعبات .. كش مات .

يصيح في أعماقه متوجعا : يالله ، يالله ، كيف يحدث هذا للمرة الثانية ؟ كان واثقا أنه لم يرتكب خطأ واحدا ، لم يرفع رأسه ، لم يواجه عينيه الميتتين ؟ فكيف خذلته الرقعة ؟ يحدق فيها بحثا عن هذا الخطأ ، لم يعد هناك أي صوت في المقهى ، كل شئ يكتم أنفاسه وهو يرقب أصابعه حتى تنقل القطع في محاولة يائسة للخروج من المأزق ، يتحرك بالقطعة ثم يعود بها مرة أخرى ، يحاول مع قطعة أخري ، رغم أن هذا مخالف للقواعد إلا أن الرجل الآخر لا يحتج ، يترك له الفرصة للقيام بكل المحاولات ، يتركه يتعثر ويكبو وسط المربعات البيضاء والسوداء، ولكن الطرق كلها مغلقة ، يرفع رأسه وكما توقع يجده يحدق فيه، بلا شماتة ولا انتصار ، فقط تلك النظرة التي من الصعب أن تحتمل ، ينقل بصره إلى المقهى الذي يحيط به، ألوان الحاوي تأخذ في الذوبان حتى أن سواد شفتيه يكون أول ما يختفي ، تتداخل ألوان ثياب كل من في المقهى وتبهت، تأخذ لون الرماد والضباب ثم تبدأ ملامحهم في التبدد ، تختفي المقاعد المجدولة والمناضد الرخامية المتشققة والجدران بما عليها من صور مؤطرة قديمة ، تذهب أشجار الرصيف بما عليها من أعشاش العصافير وكشك السجائر وبائعه العجوز الذي كان سجينا سابقا ، تضمحل عربات الترام بما فيها من ركاب وما عليها من صنج حديدية ، وتذوب الأسلاك المتقاطعة والقضبان والإسفلت المتكسر والعمائر العالية .

لا يبق سوى ثلاثتهم – "عيسى البارودي" والرجل ذو النظرة الميتة والمنضدة التي بينهما وفوقها رقعة الشطرنج – لا يمتد حتى نهاية الأفق إلا ارض رملية تذروها الرياح ، بلا صخور ولا نتوءات ولا نباتات برية، ومن بعيد تبدو السماء باهتة الزرقة وتحتها يمتد شريان داكن وسط الرمال ، أهو نهر النيل أم وهم مرتجف آخر ؟ يصيح عيسى :

– عليك اللعنة ، من أين جئت حتى تدمر عالمي هكذا ؟

يردد الصدى الموحش صوته عشرات المرات ، فراغ أبدي ونهائي ، ليس بعده إلا فراغ موحش، لا وهم ولا حقيقة ، والعينان الميتتان تحدقان فيه، دون اهتمام أو مبالاة بصرخاته ، يقول عيسى في حدة ويأس من فقد كل شئ :

– الآن سوف تجيب على أسئلتي ، ولن ترد علي بأسئلة أخرى ملتوية ، لقد فقدت كل شئ ومن حقي أن أعرف سبب ذلك .

مرة أخرى عاد الرجل ذي النظرة الميتة يقول :

– ربما لم يكن هناك سبب ، كل ما في الأمر أنه قد حان الوقت لتكتشف أن العالم الذي كنت تعيش فيه لم يكن حقيقيا ، ربما كان مجرد واقع افتراضي .

– كف عن السخرية مني ، ربما تستطيع أن تجعلني أختفي أنا الآخر ولكنني أقسم أن لحظاتي الأخيرة سوف أقضيها في محاولة قتلك .

لا يبدو على الرجل أنه اهتم كثيرا بهذا التهديد :

– قلت لك أنه يمكن أن أكون أنا أيضا مثلك ، مجرد فتراض ، ربما كان هناك عالم آخر مواز لهذا العالم ، عالم مطابق ولكنه وهمي ، أو ربما كانت هناك آلة عمالقة ، كومبيوتر فائق الذكاء مثلا استطاع أن يخلق هذا الوهم الكامل المثال ، أشخاص لم تولد وحيوات لم يعشها أحد وذكريات مصاغة بدقة ، كل شئ كان مجرد برنامج في جهاز ما وكل هذه اللحظات الطويلة لم تكن إلا نقاطا وأرقاما على سطح قرص مدمج .

يظل عيسى يدق فيه محاولا أن يفهم ، لا يستوعب أن هناك عالم مواز ، ويعرف بالكاد ماذا يعني تلك الأجهزة ، ألعاب طنانه يتجمع حولها العاطلون في المقهى ، وجهاز للكومبيوتر يجلس عليه حفيده مذهولا عن كل من حوله ، جهاز تافه وسخيف لا يملك إلا أن يطيع الأوامر التي تعطى له، صاح عيسى :

– كف عن السخافات . لا يوجد جهاز يستطيع أن يخلق شيئا حتى ولو كان وهما .

قال الرجل في هدوء : ربما كان هذا الجهاز موجودا في مكان ما ، جهاز يحتوي على الملايين من أشباه الموصلات ، أعدادها تساوي عدد العقد العصبية الموجودة في الجهاز العصبي للإنسان ، وربما تزيد عليه ، ألا يستطيع هذا الجهاز في هذه الحالة أن يفكر كما يفعل الإنسان ، أن يخلق هذا الواقع الذي نعيش فيه ؟

يحس عيسى بغضب يائس يولده وقوفه في خط الدفاع الأخير عن النفس، يقول متأوها:

ـ أنت تخرف بالتأكيد ، أنا حقيقة لا افتراض، كذلك عالمي وأصدقائي ، لقد أخفيتهم بخدعة بصرية ما.

قال الرجل : ربما كنت على حق وأنا إذن ذلك الشخص الافتراضي، جئت إليك من عالم افتراضي

صوته يتلون ، يفقد ذلك الحياد الأجوف ، يمتلئ بنبرة غريبة من التحدي كأنه يحاول أن يؤكد وجوده في مواجهته ، يقول عيسى :

ـ يعني إما أنا أو أنت

يقول الرجل : هكذا الأمر دائما .

يصمت كليهما ويبدو الأفق بعيدا باهت اللون يغمره ضوء ساطع غير معروف المصدر ، و عيسى لم يعد متأكدا إن كان نهر النيل موجودا أم لا ، كل ما يدركه أن هناك دور أخير عليه أن يلعبه حتى يصل كل شئ إلى نهايته المحتومة، يمد أصابعه ويرص القطع ويدير الرقعة بحيث يترك اللون الأبيض في مواجهة خصمه ويظل جالسا محدقا في الرجل ذي النظرة الميتة منتظرا منه أن يقوم بالخطوة الأولى .

مكة المكرمة في ١٩٩٩/٣/٢٥

عند أطراف السماء

يلمح للوهلة الأولى انعكاس ثوبها الأحمر متقطعا ومتموجا في ثنايا ماء البحر، فيظن أنه سراب آخر، منذ الصباح المبكر وهو لا يطارد إلا السراب، يرى السمك وهو يتقافز من الماء عاليا مكونا دوائر مبللة من نثار الشمس، وما أن يتأهب بشبكته ويتجه إليه حتى يختفي، ولكنه لم ير الفتاة قبل هذه اللحظة، ظل يواصل الاقتراب حتى تأكد إنها ليست سرابا، وأنها تقف بشعرها المنسدل ووجهها الصغير المستكين الذي تحتل معظمه عينان واسعتان ، قالت : أريد أن أذهب إلى الجزيرة ، رجلي ينتظرني هناك ، لم تكن هناك أي جزيرة قريبة ولكن لهجتها الواثقة جعلته يظن انه ربما كانت هناك جزيرة يراها الجميع إلا هو، هتف بها : ابحثي عن غيري ، منذ الصباح لم أصطد شيئا وخلقي ضيق ، قالت مبتسمة : وسع خلقك فيتسع رزقك ، خذني للجزيرة وسوف تجد صيدك في الطريق ، رجلي ينتظرني، كانت ضئيلة الحجم، بالغة الوداعة، وصوتها متكسر كالموج، سألها : هل معك نقود ؟ قالت : القليل منها ولكن رجلي سوف يدفع لك ما تريده، اقترب بقاربه إلى الشاطئ ومد يده ليساعدها على الركوب ، لم تلمس يده ، قفزت برشاقة وأصبحت في منتصف القارب ، أحس أنه أخطأ فطوال هذا العمر لم يسمح لأي امرأة بالركوب معه ، ولكنها جلست تماما بجانب الشباك وضمت ركبتيها الصغيرتين إلى بعضها وأسدلت عليهما ثوبها الأحمر، وحدقت فيه بعينيها الواسعتين وقالت : امض شرقا، كان الموج ناعما فانزلق القارب بسهولة وألقى الشبكات بشكل عفوي فخرجت له بضع سمكات ضالة، ضحكت بانشراح وهي تقول: ألم أقل لك؟ ظهر نورس قلق ، أخذ يدور وهو يحدق فيها

بعينيه اللامعتين المستديرتين، وطفت زهور من الطحلب المنتفخ على سطح الماء، وقال لها : أي رجل هو ؟ فردت ببساطة : رجلي ، واحتار مسائلا نفسه : لماذا لم تقل زوجي مثلا، لمح أصابعها الملتفة حول ركبتيها ، لم تكن تلبس خاتما، وظل القارب يتقافز بنفس النعومة ولكن لم تكن هناك جزيرة، لم تكن تكف عن الضحك وخفف هذا من حدة الموج وهدأ من سرعة الريح ، دخل بالقارب إلى مساحات جديدة لم يصلها من قبل، وظهرت القوارب الكبيرة وعليها البحارة الأشداء بصيدهم الوفير ، جلست مغمضة العينين واثقة من أنه يسير في الاتجاه الصحيح وأنه سوف يصل إليها، قال لها : لا أثر لها ، فتحت عينيها الواسعتين وردت في يقين : إنها موجودة وهو ينتظرني ، وخاف أن تبكي فقرر أن يمنحها فرصة أخيرة وأوغل في البحر حتى ارتفع الموج وأصبح رمادي اللون ، دار عدة دورات دون جدوى ، وبدأ ضوء النهار يضمحل ، وبدت كل المعالم متشابهة لحد مثير للفزع، انفجرت فجأة في البكاء بحرقة لم يعهدها ، لم يتصور أن خيبة آمالها كانت كبيرة لهذه الدرجة ، قالت في آسى : أين أذهب يا ربي ؟، قال لها مشفقا : لقد غربت الشمس وسوف نحاول مرة أخرى عندما يبزغ الضوء ، كان الشاطئ قد ابتعد إلى حد لا يمكن تداركه، جلس بجانبها بحيث تلامس كتفيهما ، كانا معا في حاجة إلى هذه اللمسة من المؤانسة الصامتة ، قال بصوت حاول أن يجعله ساخرا : يبدو أنه لا توجد جزيرة فقط ولكن لا يوجد شاطئ أيضا ، لم يكن يملك سوى بعض الطعام الجاف، ولكنها فضلت أن تنام في مكانها بلا طعام ، ضمت ذراعيها ووضعت رأسها على كومة الشباك المبللة وأغمضت عينيها وظل يرقبها حتى سمع صوت أنفاسها وهي تتردد بشكل منظم، ظلت نائمة حتى بعد أن أنفلق النهار، وانحسر الثوب عن ركبتيها الصغيرتين، وبدا وجهها محمرا أيضا من أثر لفح الشمس وعليه ابتسامة حزينة ، لعلها تحلم بجزيرتها الضائعة ورجلها المنتظر ، كيف يمكن أن يقنعها بالعودة إلى الشاطئ؟ كم تبدو وحيدة وعنيدة ومثيرة للغيظ، ألقى بالشباك في الماء فأحس بها وهي تضطرم وكأنها توشك أن تجذبه إلى أسفل، كانت ثقيلة إلى درجة غير متوقعة ، وأحس بالفتاة بجانبه وهي تساعده في جذبها، كانت مليئة بأسماك من مختلف الأحجام والألوان، طوال عمره لم ينل "طرحة " مثل هذه، امتلأ القارب بحياة متدفقة تنبعث من عشرات الأجساد الفضية المرتعدة ، هتفت الفتاة في انبهار : يا لها من شئ ساحر ، واشرق وجهها كأنه شمس صغيرة ، قال لها : بعد هذا الصيد يجب أن نعود إلى الشاطئ ، لم تكن تعرف اليأس ، وضعت يدها على صدرها فوق مكان قلبها وهتفت : من أجلي ، من أجلي ، جولة أخرى، ابحث عن هذه الجزيرة كأنها بضع من رزقك، الذي كان يدهشه ويثير غيظه ، أنه كان في كل مرة يطيعها ويعود للدوران بالقارب، قالت له: سأعد لك إفطارا من هذا السمك الطازج، وأخرج لها من قاع القارب موقدا قديما وطبقا من الصاج وبدأ يعدان الطعام معا فوق القارب المهتز كأنها قد تعودت على إعداد الطعام فوق القوارب المهتزة منذ عشرات السنين، مر بهما أحد القوارب الضخمة ، وقف بحارته الخشنون كلهم على الحافة يتطلعون إليهما ، نظروا للسمك في طمع وللمرأة في رغبة ، قال لهم : هل تبادلونني؟ صاحوا جميعا في صوت واحد : أجل ، لعلهم كانوا يحسبونه يقصد المرأة ولكنه أشار إلى السمك ، رغم كبر قاربهم وكثرة عددهم فلم يصطادوا نصف صيده ، أعطوه أرزا وشايا وسكرا وبعضا من الفاكهة واخذوا

السمك ، سألهم : هل هناك جزيرة قريبة من هنا ، قالوا : هناك دائما جزيرة ولكن يعتمد هذا على الاتجاه الذي تسير إليه، كل شئ غامض وغير مؤكد، وغابت الشمس وراء السحب وعكست الريح اتجاهها فأخذ القارب يهتز، وابتعدت كل القوارب الكبرى وأصبح البحر قفر كالصحراء، شحب لونها وتشبثت بحافة القارب وظن أنها على وشك البكاء أو التقيؤ ولكنها لم تفعل ، قال لها : سوف تمطر من الأفضل أن تساعديني في تثبيت غطاء القارب ، ومرة أخرى بدأا يعملان معا ولكن المطر سبقهما ، قطر كالسهام الرفيعة، بللهما تماما قبل أن ينجحا أخيرا في تثبيت أطراف الغطاء حول القوائم المعدنية الصدئة ، استكانا تحته وهما يرتجفان ، اشتد المطر وسمعا صوت قطراته فوق غطاء البلاستيك،دقات صغيرة متتابعة ، ضمت ذراعيها حول صدرها وهي ترتعد بشدة ، قال لها في مكر : ألا تريدين أن تخلعي هذا الثوب المبتل، ردت عليه بجدية: لن يجف إلا فوق جسدي ، كان نهارا ممطرا وطويلا ، وليلا باردا عميق الظلمة ،لم تكن هناك جزيرة ، ولا مكان للاحتماء أو سبيل للعودة ، مد ذراعيه وأحاط بها كتفيها المبللتين ، كانا معا في أمس الحاجة إلى الدفْ، استكانت له وهي تقول : أتدري ، الجزر كالأحلام ، تغيب كأنها ليست موجودة ثم تطفو كأنها حقيقة ، قال في ضيق : من هو على أي حال حتى تتحملين من أجله كل هذا ، صياد أم مهرج أم نصف إله ؟ قالت وهي ترتجف : رجلي ، المقسوم لي ، ولكنها بقيت بين ذراعيه، قال لها بعد برهة من الصمت : ما هو اسمك ، قالت ياقوته ، بدا اسما جميلا وغريبا ينتمي إلى حكاية ما ، لم يبعث التصاقهما المتواصل لتلك الفترة الطويلة الدفْ في جسديهما فقط ولكنه حافظ على ثبات القارب فلم يقدر البحر الغاضب على قلبه إلى الأعماق ، وبدون أن يدري وجد نفسه يضع شفتيه على خدها ، شعر بطعم من الملح وإرتجافة لحمها، وسمعها وهي تهتف في حرقة: خذني إلى الجزيرة أرجوك ، فأبعد شفتيه ، ولكن البرد كان أشد من أن يبتعد بجسده كله ، صفا الجو مع الصباح وأصبح ثوبها الأحمر شديد الالتصاق بجسدها، تمتد عروق رفيعة من الملح بين أنسجته ، أصرت على أن تكون متفائلة، قالت :سوف تظهر الجزيرة لنا اليوم قلبي يحدثني بذلك ، ظهر نورس صباحي متقصف الأجنحة ، كلما حاول الطيران انكب على سطح الماء وأثار رذاذا يائسا، وعبرهم قارب متهالك غائص حتى حافته، ممتلئ بعدد ضخم من الوجوه العطشى المتعبة، أطفال ونساء تاركين أنفسهم لدفع الموج بلا هدى، ومر وقت طويل قبل أن يظهر قارب آخر ملئ بالحراس المتحفزين ، وجهوا أسلحتهم إليهم في ريبة ثم تركوهما ، ثم مر بهما قارب أكبر للبيع والشراء أخذ كل ما معهما من أسماك وأعطاهما طعاما وشالا وعقدا من الخرز الملون وضعته ياقوتة حول عنقها وهي تضحك ، صعدت الشمس إلى منتصف السماء ولم تفقد تفاؤلها ، ظهرت قوارب صغيرة فيها أناس وحيدين ، وأسراب من سمك السردين المتألق ، ودولفين متقافز يبحث عن وليفه ، وسلحفاة مائية بطيئة ومندهشة، وظلت هي جالسة على طرف القارب تتطلع بثبات إلى حافة الأفق ، خذلتها آخر لمحة من الضوء مدت يدها لتخلع العقد من حول عنقها فانفرطت حباته وضاعت في شقوق القارب ، أقبل الليل بقمر ساطع وبدون أي أمل تقريبا ، صمتت وتكومت على نفسها ولم تعد قادرة حتى على البكاء ، لم تكن هناك جدوى من الحديث إليها ، جلس بجانبها في صمت وأخذها في أحضانه ، ثم

بدا يتخلل شعرها بأطراف أصابعه، شهقت دون أن تبكي وبدت مستسلمة لدرجة أنه عندما بدأ يقبلها لم يدر إن كانت تدري بما يقوم به أم لا، كانت شفتاها مالحتين وجافتين ، وأخشاب القارب خشنة وللشباك رائحة السمك الزفر، وبدأ الدفْ يدب تدريجيا في جسدها ، أزاح الثوب المتيبس في صعوبة وضوي الجسد الشاحب تحت ضوء القمر في وهن ، أخذ القارب يرتج فوق الموج في إيقاع هادئ ولكنه متصل ، جسدها يختلج بين ذراعيه دون غمغمات أو شهقات، وتأخر نومهما كثيرا حتى أشرقت الشمس ووجدتهما ملفوفين في الشباك، تخلصا منها بسرعة ، وعندما حاولت الجلوس أخذت في التأوه ، واعتقد أن ضوء النهار قد بعث الندم عاريا في داخلها ولكنها بدلا من ذلك أشارت إلى العلامات الحمراء المحتقنة على ظهرها وقالت في عتاب : أنظر ماذا فعلت أخشاب القارب في ظهري؟ وواصلا أعمال يومهما في انهماك، لم تنظر إلى الأفق إلا قليلا ، ولكنها في المقابل حرصت ألا تتقابل مع عينيه في نظرة طويلة ، كان الصيد وفيرا وأكبر حجما فاستطاع أن يستبدلاه بغطاء ناعم سميك مليْ بالنقوش وله شراشيف بيضاء، أعطاه لها في صمت متواطئ، لم يأخذ سير القارب وجهة معينة ولم تسأله عن الجزيرة ولم يظهر لها أي أثر على أية حال ، ولكن الشيْ الذي لاحظه كلاهما أن اليوم رغم كل شئ يمر ببطء قاتل، ربما لأن فترات الصمت فيما بينهما قد استطالت، ولكن عندما أقبل الليل أخيرا وبدآ يفرشان الغطاء الجديد أدركا فجأة لماذا كان النهار طويلا ولماذا امتد الصمت في معظم فتراته، أخذ القارب يهتز بنفس الإيقاع المتواصل وكان جسدها أكثر حياة ، فغرست أظافرها في ظهره وهي تغمغم : يا رجلي ، يا رجلي، ولم يدر إن كانت تعنيه هو أم تعني رجلها الغائب فوق الجزيرة، وجاء الصباح باردا ورقيقا ، وامتدت غلالة من الضباب الهش فوق سطح الماء فأخذ القارب يغوص فيها مستوحدا ، وظلا مستلقيين تحط ذرات البرد على وجهيهما ملتفين في الغطاء ذي الشراشف، وتأخرت الشمس كثيرا قبل أن تبدأ في إذابة كل هذا الضباب ، نهضا متكاسلين والقيا الشباك بلا اهتمام وجاء السمك طائعا ، وعبأت أحد القوارب الكبيرة منهما مقطفين كاملين ، حين سألهما ربان القارب عما يريدان ، قالا معا : نريد مأذونا ، وضحك الربان العجوز ونفث غليونه في وجهيهما وهو يقول : البحر ملك البحارة والربابنة ، إن لي الحق أن أجعلكما زوجا وزوجة ، وهكذا شبك أيديهما وجعلهما يقسمان على الحب والوفاء حتى نهاية العمر، كان الزواج مجانيا وأهداهما ثوبا جديدا أحمر اللون أيضا بدلا من ثوبها الذي تهرأ وباقة من الورد الاصطناعي وضعاها في مقدمة القارب بحيث تدب فيها الحياة كلما بللها الماء، لم يعد أحد منها يدري إلى أين يتجه القارب ، تشابكت حافة الماء مع أطراف السماء مثلما تشابكت دورات النور والظلمة ، تداخلت دروب الموج المصنوعة من الطحلب، وانقلاب الريح عندما تغير اتجاهها وتطيح بالزنابق المالحة فتفتتها، والوجوه التي تعبرهم، قراصنة وغرقى ومقايضون ، وموجات السردين والثعابين التي لا تكف عن الهجرة ، ملح في النهار وشهوة في الليل ، وبدأت تحس بدوخة غريبة ورغبة في التقيؤ خاصة في الصباح ، شعور كان ينتزعها من دفْ الغطاء ذي الشراشف ، أهو دوار البحر أم الحنين إلى الأرض ؟ في كل يوم كانت تمسك حافة القارب وتحاول عبثا أن تكتم صرخات الألم التي تمضها ، سألها : هل تريدين العودة إلى الشاطئ ؟ ولكنها هزت رأسها بالنفي، كان الأمر صعبا

حتى لو أراد ذلك، فبعد هذا الإبحار اليومي المتواصل لم يعد ثمة طريق يقود إلى أي أرض، توقفا بجانب أحد قوارب المقايضة، وهزت السيدة السوداء التي استمعت إليها رأسها في تفهم ، كانت وجنتيها مشققتين بأربع من الندوب الطولية الغائرة كأنها وشم لطقس وحشي ، ورغم ذلك لم تكن تكف عن الابتسام ، أحضرت لها قدرا من الأعشاب والطحالب المغلية وأوصتها بتناوله كل يوم وهي تقول مبشرة :متعك الله بالصبيان والعمر الطويل ، لم تصدق أذنيها ولكن المرأة انتقلت إلى جانبها وأخذت تهمس لها حديثا طويلا بحيث لا يسمعه هو ، كانت تقطعه أحيانا بضحكة مليئة بالمجون ثم تعاوده بجدية ، وعندما انصرفت بدا وجه ياقوتة أكثر راحة واطمئنانا ، بدأت تراقب بطنها وهي تنمو في بط ء، والصياد يتحسسها كل يوم في الصباح متفائلا قبل أن يلقي بالشباك ، لم تكن تستطيع أن تمنع نفسها من الضحك بصوت عال خاصة وهو يضع يده على أذنها متلمسا سماع أي صوت ، وفي ذات ليلة كان القمر فيها ساطعا ومكتملا أحست به للمرة الأولى وهو يلكز جدار بطنها من الداخل ، كانت ليلة شبيهة بالليلة الأولى التي مارسا فيها الحب معا، مليئة بالنشوة والشهوة ، منذ ذلك الحين لم يكف عن الحركة واللكز ، وفي صفاء الليل عندما تلتف هي والصياد في الغطاء الأبيض ذي الشراشف كان يخيل إليها إنها تسمع صوت أنفاسه تتكرر بانتظام وهو متكور بداخلها ، ينصت إلى حديثهما اليومي المتكور من خلال الأغشية التي تحيط به ، ثم حانت اللحظة ذات فجر ما ، وهي عادة ما تحين في مثل هذا الوقت ، بدأت الصراخ وامتلأ القارب فجأة بمياه ساخنة متدفقة ، وأحتار هو ، هل يوقف الصراخ أم يوقف تدفق الماء ؟ بدا البحر خاليا ولا نهائيا وبقايا النجوم تحدق فيه ببلاهة ، حاول توجيه القارب في كل الاتجاهات دون جدوى، اكتشف أنه لم يعد بالفعل يعرف مكان أي شاطئ وان معالم الماء قد تداخلت بحيث لم يعد هناك شئ باق على حقيقته ، توجه ليجلس بجانب رأسها ، كان الألم يغمر جسدها كالمد في موجات متعاقبة ، يجعل كل ذرة منه تنتفض والقارب ينتفض معها وصراخها يرتفع عاليا في عمق البحر الصامت ، هتف باكيا : يا إلهي إنها تموت ، كره البحر والنجوم والجزر واللحظة التي رآها فيها و الليلة التي حملت فيها بذرته ، وهتفت من بين أسنانها: أرحني ، هتف في عجز : كيف ؟ تأوهت : خذه من داخلي ، جلس في مواجهتها كانت يداه ترتعدان ولم يكن تيار الدم والماء يريد أن يتوقف ، غاص فيه بأصابعه ، سوائل لزجة و لحم فيه سخونة الحياة، ثم أحس بشيْ ينبض ، ينزلق إليه ، كأنه كان يعرفه من فرط ما سمع صوته واشتم رائحته ، تلقفت يديه قطعة اللحم الطرية مثل هبة سخية جاد بها هذا المكان الضيق والبحر الصامت، بدت قطعة اللحم متصلة بحبل من الدم ، قالت وهي تلتقط أنفاسها في صعوبة :قالت لي المرأة السمراء أن نعدها أولا ثم نقطعها ، لم يفهم شيئا ازداد، الضوء قليلا فاستطاع أن يرى عقده المتتابعة ، هتف حائرا : كم ؟ هتفت : اثنا عشر قطعة ، أسرع أرجوك ، بحث في قاع القارب حتى وجد سكينا صدئا ملتصق عليه قشور السمك ، وأخيرا استطاع أن يحررهما معا من ذلك الرباط الدموي ، أحس أنها على وشك أن تفقد الوعي ولكنها قالت : ولد ؟ نظر إلى خاصرته ثم قال : اعتقد ذلك، قالت : هل هو حي ؟ قال : كيف لي أن اعرف ذلك ؟ قالت : ارفعه واضربه على ظهره ، هكذا قالت لي، رفعه عاريا في مواجهة البحر المضيْ ، و ضربه على ظهره فانتفض

صارخا ، معجزة صغيرة وسط كون واسع ، لف جسده بكل ما وجد من خرق قديمة ثم وضعه في أحضانها ، لم يعرف إن كانت قد استغرقت في النوم أم أنها فقدت وعيها ، نام هو أيضا بجانبهما والتف ثلاثتهم في الغطاء ذي الشراشف ، وأشرقت الشمس عليهما ثم غابت وواصل القارب سيره وحيدا ، كان الأمر يستلزم جهدا إضافيا من اجل تنظيف القارب من بقايا الدم والغوط ، وكان السمك وفيرا فاستبدلاه بأقمطة وملابس ولعب ملونة من البلاستيك ، وفتح الطفل فمه الخالي من الأسنان ليلقم ثدييها ويرسل في جسدها قشعريرة أشبه بلمسة الحب الأولى ، والصياد يغرق في الضحك كلما رأى يديه الصغيرتين متشبثتين بثديها كأنه طوق نجاته ، وتنظر للأمام فترى حافة السماء وقد ازدادت قربا كأنهم جميعا على وشك الولوج إليها ، لم يعد هناك أهمية لأي اتجاه يسير إليه القارب ، وألقى الصياد شبكته ثم استغرق في النوم ، كان يفعل هذا الأمر مؤخرا كثيرا ، فقد تعود على السهر لملاعبة الطفل تحت النجوم ، وظل الطفل يواصل رضاعته مرسلا داخلها قشعريرة متواصلة ، وفجأة عند الخط الواصل بين حافة الماء وأطراف السماء بدأ الخط الأسود في الظهور ، بدأ الماء ينحسر تدريجيا أمام اللسان الصخري المغطى بالطحالب وظهر ساحل الجزيرة مكتملا أمامها، شهقت وهي تساءل نفسها : آ هذا هو ؟ شاهدت بوضوح الرجل وهو يجلس عليه سمات الانتظار الطويل الذي لا ينتهي ، جالس على صخرة ناتئة ، طويل اللحية ، أشعث الشعر، يتطلع نحو القارب ، ينهض كأنه يتأهب للقائها، يضع يده على عينيه ليمنع انعكاس الشمس ، نظرت للصياد النائم والطفل متشبث بصدرها يستقطر آخر ما فيه من نقاط ، مدت يدها وغيرت اتجاه القارب وواصلت الابتعاد.

حارس الموتى

يتوقف " نفر " متظاهرا أنه يعدل رمحه فيتوقف الكاهن الحليق الرأس أيضا ، يستدير ويرمقه بنظرة باردة، يضطر "نفر" لمواصلة السير وسط جدران من الكلس الأصم ، ينتهي الضوء ويمتد الظل ، تختفي النقوش من فوق الجدران وتتكاثف رائحة البخور واللبان، تضيق الأروقة وتتحول إلى ممر طويل معتم ، يحاول أن يلاحق خطوات الكاهن، كأنه لا يلامس الأرض ، لابد وأنهما الآن يدخلان المنطقة المحرمة من المعبد، يجتاز " "نفر" حدود الحرس ليدخل في ممرات الكهنة الغائصة في جوف الحجر ، يستطيل الممر كأنه يقوده إلى العالم الآخر بلا منفذ للريح أو مصدر للضوء ، يتوقف الكاهن ويضغط على حجر ما ، ينفتح

باب صغير ويشير له أن يدخل ، يتردد " "نفر" قليلا ولكن الكاهن يسلط عليه نفس النظرة الباردة فيضطر للخطو داخلا ، قبل أن يفطن لما يحدث يبدأ الباب الحجري في التحرك حتى يلتحم مرة أخرى ويتحول إلى جدار مصمت ، يحس "نفر " أنه قد انفصل نهائيا عن عالم الأحياء ودخل إلى عالم الموتى ، ينظر إلى الباحة الواسعة التي يقف في أحد أطرافها ، في منتصفها مذبح حجري تنبعث منه نار مشتعلة ، مصدر الضوء الوحيد في هذا المكان الشاسع ، يتلفت "نفر" حوله فيجد عيون الآلهة الحجرية تحدق فيه ، " آمون " يحمل رأس الكبش ويمسك في يده صولجان المصائر ، و"باست " رأس القطة الشرسة التي تقاوم ضباع الليل ، و "سخمت " اللبؤة المتحفزة ، و "تحوت " سيد الكلمات وهو يمسك بيده ميزان العدل ، وفي مقدمتها جميعا يقف سيد الآلهة "أزوريس " منتصبا متقاطع اليدين فوق الصدر في أبدية الحياة والموت ، المرة الأولى التي يرى فيها "نفر" كل هؤلاء الآلهة مجتمعين في مكان واحد ، تحيط بهم ظلال الرهبة والصمت مخيما ، يظل متوجسا وهو يتوقع أن يتحرك واحدا من هذه التماثيل ، ولكن شخص آخر ملتف برداء ابيض يخرج من خلف المذبح ، يحرك يده أمام وجهه ليزيح الدخان المتصاعد من النار المشتعلة فتظهر ملامحه ، يشهق " "نفر" وهو يحاول أن يرتد إلى الوراء ولكن الحائط في ظهره ، يتقدم الكاهن الأكبر و يحدق فيه متفحصا ، ينعكس وهج اللهب على صلعته فتتوهج وتصبح مستطيلة بدرجة غير عادية ، لم يره "نفر" قبل ذلك بهذه الدرجة من القرب ، رآه من بعيد وسط الكهنة ، أو محمولا فوق المحفة ، لم يتخيله بشرا عاديا، كأنه ينتمي إلى عالم هذه الآلهة الحجرية ، ويمتاز عنها بالحياة وبتلك النظرة الصارمة التي يسلطها عليه الآن ، يشعر " "نفر" انه عاجز عن التنفس ، يرتفع صوت الكاهن الأكبر باردا كنصل المعدن:

ـ أنت شخص بلا فضائل ، و بلا أخطاء ظاهرة أيضا وهذا يبدو نادرا ومحيرا بعض الشيْ .

ولم يعرف " نفر" أي فضائل يمكن أن يتحلى بها ، أو أي أخطاء عليه أن يتجنبها ، حلقه بالغ الجفاف ولسانه ثقيل وليس هناك ما يقال ، لا يبدو أن الكاهن الأكبر كان يتوقع أي أجابه لأنه أمسك أحد لفات البردي وفردها وقرأ فيها قليلا ثم ألقاها بلا مبالاة وعاد يقول :

ـ لم تتغيب ، لم تشكو من مرض ، لم تتشاجر مع أحد ، ولم يصادقك أحد ، لم تشارك زملائك من الحرس الضحك لم تسع وراء امرأة ، ولم تشرب الجعة ، لم تضحك بصوت عال ولم يرك أحد تبكي كذلك ، أنت متفرد ، دائم الصمت ، مثل خفاش ليلي تبقى ساهرا بلا نوم، ربما كانت هذه ميزتك الوحيدة ، لا أحد قد توجه بالشكوى منك ، ولا أحد تحمس لك أيضا ، أنت باعث على النفور والخوف ، كأنك نوع من الموتى.

يبقى " نفر" مشدودا ، هل كان مرصودا لهذه الدرجة ؟ هل رأى كل تلك الخفافيش المظلمة التي تسكن في صدره ؟ يمسك الكاهن ببقية لفافات البردي التي كانت على الذبح ويلقيها على الأرض كأنه قد مل

من وجودها ، يقترب أكثر من "نفر" ، يكشف الرداء الأبيض المتهدل من على جسده عن ساقين نحيلتين ، وصدر أمرد ، ووجه عجوز ولكنه مشدود وخال من التجاعيد ، يعاود القول :

ـ عل أي حال لكل هذه الأسباب قد اخترتك ، لا أريد للثرثرة أن تفسد الطقوس المقدسة ، ولا أريد لأحد أن يتشارك في الأسرار التي ستراها هذه الليلة سوى آلهة الموت ، لعلك تفهم ماذا اعني ؟

زفر "نفر" نفسا حارا وازداد الكاهن اقترابا منه ونظر مباشرة في عينيه :

ـ من أين أنت على أي حال ؟ يمكنك أن تتكلم .

يبحث عن صوته : إهناسيا يا مولاي .

يهز الكاهن الأكبر رأسه مفكرا :

ـ أذكر هذا الاسم ، لابد وأنني قمت بزيارتها ذات يوم ، لست متأكدا ، فتلك البلاد الطينية المتناثرة على ضفتي النهر متشابهة لحد مرعب .

يعاود التحديق فيه ، لعله يسائل نفسه عن كان يستطيع الثقة فيه أم لا ، يهتف بملل حقيقي :

ـ اركع على ركبتيك وإحن رأسك .

يسارع "نفر" بالركوع ، أي حركة يمكن أن يقوم بها كانت أفضل من هذه الوقفة المتصلبة ، يحس بيد الكاهن الباردة وهي تحط على رأسه ويسمع صوته قائلا :

ـ أقسم بحق رب الأرباب آمون أن ما ستراه الليلة هو سر لن تخبر به أي شخص حتى أباك وأمك ، ولن تردده حتى لنفسك ولن يخطر في أحلامك وسوف تمحوه من رأسك ما أن يتبدد ظلام هذا الليل ويأتي ضوء النهار .

يبتلع ريقه ويردد كلمات القسم مرعوبا ومبهورا ، ينزل الكاهن يده من على رأسه ولكنه لا يسمح له بالنهوض ، يواصل القول :

ـ الليلة سوف تكون حارسا للموتى ، إنها ليلة تبحث فيها ال "كا " عن منفذ لها لتخرج من الجسد المسجى وتجد طريقها إلى مملكة أزوريس ، وغدا سوف يأتي المحنطون ليعدوا الجسد للحياة الأخرى ، لا نريد أن يعلم أحد بما تقوم بحراسته قبل أن ينتهي الأمر ، لا تقترب منها وتلمسها لا تدع بشرا و لا طيرا ولا ضبعا يقترب وإلا حلت عليك لعنة الموتى ..

يتنفس "نفر" الصعداء ، مهمة عادية من مهمات الحراسة ، لا يهم إن كانوا موتى أم أحياء ، لم يكن يرى أي نوع من النبل أو الأهمية في هذا الأمر ، ففي بلدتهم يطمر الفلاحون في التراب بلا أي مبالاة سواء وجدت الروح طريقها لخارج الجسد أم لا ، يقول الكاهن آمرا :

ـ انهض

ينهض "نفر" وقد تخدرت ساقيه ، يضغط الكاهن الأكبر على أحد أحجار الجدار فينفتح الباب ، يشير له أن يمضي ، يحس بفرحة شديدة لأنه أخيرا سوف يغادر هذه الباحة المقبضة ، يعود إلى الممر

الضيق حيث يقف الكاهن الشاب في انتظاره ، يواصلان السير في اتجاه الجزء الخلفي من المعبد ، جانب آخر لم يكن يعرف عنه شيئا ، يخرجان إلى فناء مكشوف ، يهب عليهما هواء حقيقي مفعم برائحة النهر والزرع ، يحس بلمسة من دفْ الشمس ويرى طيور النهر وأسراب الحمام وهي تنطلق قادمة من " طيبة " على البر الشرقي ، أسفل المعبد تنحدر الأرض المزروعة إلى ضفة النهر ،يقول الكاهن :

ـ يوجد حطب يمكنك استخدامه لإشعال النار ولكن لا تفعل ذلك إلا للضرورة القصوى ، إذا ما هاجمتك الذئاب أو الضباع ، غير ذلك فلا ضرورة فالقمر مكتمل هذه الليلة ، وابق ساهرا ففي النوم هلاكك .

يشير إلى منتصف المكان حيث يوجد تابوتان من الحجر الأسود ، قبل أن يسأله " نفـر" أي سؤال يستدير وينصرف مبتعدا ، يحس " نفـر" بالسعادة لأنه قد اصبح وحيدا أخيرا ، فالموتى مهما كانوا مجرد موتى ، حدودهم هذا التابوت ، وسواء خرجت الروح الليلة أو لم تخرج فقد أصبحت تنتمي إلى عالم آخر .

يقف منتصبا والرمح في يده ، ترف فوقه أسراب من طيور النهر ، تراقبه بعيونها الصغيرة المستديرة ، يحط واحد من طيور "البشاروش" على حافة أحد التابوتين ، يتأمل ما فيه قليلا ثم ما يلبث أن يتوفز ريشه وتتصلب أجنحته ويعاود الطيران من جديد ، لا بد وأن رائحة الموت كانت نفاذة لدرجة لم يطقها هذا الطائر العابر ، تبدأ الأسئلة في التجمع داخل " نفـر" ، ترى ما هو السر الذي جعل الكاهن يستدعيه ويجعله يقسم السر من اجل صونه ؟ ماذا في هذين التابوتين ؟ ولماذا معا ؟ولماذا اختاروا شخصا بلا فضائل مثله ؟ أسئلة كثيرة ولكن الوقت أكثر ، و الصمت يجعل مروره أكثر بطئا ، تبدأ الشمس في الانحدار نحو النهر ، تلون كل السحب بمسحة قرمزية ناعمة ، ويصعد الخدر من قدمي " نفر " إلى بقية جسده ، يبدأ في تحريك رأسه ببط ء ، ترى هل هناك من يراقبه من خلف هذه الأعمدة ، يتأمل التابوتين المصنوعين من الحجر الأسود المقدس الذي يستخدمه إلا الأرباب الذين يحكمون الوادي ، يحاول من بعيد أن يتأمل النقوش لعلها تشي بسر من يرقد فيهما ولكنها غير مكتملة ، سبق الموت صانعيها ، كل شئ يشوبه نوع غامض من النقصان ، يهب الهواء من ناحيتهما فيشم رائحة الشيح والزعفران ، لم تبدأ روائح العفونة بعد ، ولابد أنهما وضعا في التابوتين في هذا المكان المكشوف حتى يتأجل زمن التعفن قليلا ، تمل الطيور من الحومان ، وتتمدد الظلال قبل أن تذوب في عتمة المساء ، يحس بحاجة ملحة في أن يتحرك ولو لعدة خطوات ، ربما دورة واحدة حول المكان تجعل الدم يعود السريان في ساقيه ، يتلفت في أكثر من اتجاه ، ثم يبدأ السير في حذر ، لا يحدث شئ ، لا يأتي الكهنة ولا ينهض الموتى من التوابيت ولا تكف الشمس عن الانزلاق في النهر ، يدور للمرة الثانية وقد أحس أن الحياة تعود إلى جسده، يتوقف وقد أصبح اكثر قربا من التابوت ، كأن هناك قوة تدفعه و تشده إلى مجال اللعنة ، تابوتان مختلفان في الحجم ، ربما كان الأصغر منهما هو الأقل خطرا، لا يقدر " نفـر" على مقاومة فضوله فيتطلع إلى داخله ، نسيج رقيق من الكتان يغطي الجسد المسجى ، يحميه من الذباب والأوساخ ولا يمنع عنه الهواء ، يظل " نفـر" واقفا

كأن لم يعد هناك مجال للتراجع ، يبدو الغطاء متجعدا ، يشي بتضاريس الجسد الساكن تحته ، حركه طفيفة له كفيلة بتحريك كل اللعنات الخفية ، هل يمكنه أن يتراجع ويعاود الالتصاق بالجدران متظاهرا بأن شيئا لم يحدث ؟ أم أن عليه أن يسعى خلف فضول معرفته وليكن ما يكون ؟.

"نظرة واحدة لن تقتل أحدا " يحدث " نفـر" نفسه وهو يمد أصابعه المرتعدة ، يضعها بخفة على الغطاء، يحاول أن يفعل ذلك دون أن يلمس ما تحته ودون أن تتسلل برودة الموت إليه ، يشده برفق إلى أعلى ، ولو أن الغطاء قد قاومه قليلا لتراجع ، لكنه ينصاع لأصابعه ويبدأ في الارتفاع كشفا عما تحته ، رأس صغير لوجه شاحب وعيون مغمضة مستكينة في نبل ، تاج ذهبي يغطي الشعر والجبهة ، التاج يأخذ شكل قرص الشمس الذي تكمن داخلها ثعابين ملتوية ، وجه فاتن لامرأة مكتملة الزينة ، أصباغ على الشفتين وخيوط من الكحل تبدو خلف الجفون المسدلة ، يا رع يا آمون ، أين رأى هذا الوجه الدقيق البالغ الجمال قبل الآن ، داخل المعبد أم في أحد الاحتفالات ؟ هل هي أميرة ؟ وهذا التاج هل هو حقيقي أم أنه حلية زائفة لعالم الموتى ؟ يترك الغطاء ليسقط من جديد ، ولكنه لا ينجح في تغطية الوجه الذي يظل يحدق فيه بزرقة هادئة ، يحرك قدميه بتثاقل إلى التابوت الثاني الأكبر حجما ، حتى ولو كانت اللعنة بداخله فلم تعد هناك فرصة للتراجع ، يغطيه هو أيضا نسيج الكتان الأبيض ، يستند " نفر " على حافة التابوت ويمد أصابعه المرتجفة المبللة بالعرق ، يرفع الغطاء متوقعا أن تحل اللعنة ولكنها لا تحل ، يتطير الكتان الرقيق مع هواء النهر فينكشف الجسد كله .

حتى الشهيق لا يقدر عليه ، يقف مشلولا أمام الجسد المسجي ، ذراعان متقاطعان فوق الصدر ويد قابضة على الصولجان ذي رأس الثعبان والقلادة المطعمة بكل ما في مصر من أصناف الجواهر ، وتاج ضخم متداخل من اللونين الأحمر والأبيض ، يخر " نفـر" على الأرض مذهولا، يسير على أربع مبتعدا عن التابوت ، يستند بيديه على الجدار حتى يستطيع الوقوف ، ولكن لا شئ يسعفه ، يشهق أخيرا وهو يهتف :" هل يطول الموت الأرباب ، هل تكسوهم زرقة الموت الدامغة "، هذا الوجه الذي لا يجهله أحد ، حتى ولو كان حارس مسكين مثله ، فرعون الوادي المقدس، ولابد أن هذه هي زوجته بجانبه في التابوت الآخر ، أهذا هو السر المرعب الذي جعله الكاهن يخضعه للقسم ، كيف ماتا سويا في نفس اليوم واللحظة ، مصادفة أم مؤامرة أم اغتيال ؟ ألم يستعد المحنطون بعد أم أن روحيهما التي زهقت عنوة لم تجد لها بعد مستقرا في العالم الآخر ؟ يرتفع من بعيد صوت عواء متصل ، الضباع هي أيضا قد اشتمت رائحة الموتى ، ارتجف "نفر " وقد فطن فجأة إلى أن نور النهار قد تبدد وأنه أصبح وحده في مواجهة كل ألغاز الموت ، هل يمكن أن يتقدم ويعيد أغطية الكتان كما كانت ؟ هل يكفي هذا ليحجب كل شئ ، ليزيله من أمام عينية ويخرجه من ذاكرته أم أن اللعنة مازالت في بدايتها وسوف يتواصل عواء الضباع حتى لا تجد الأرواح مهجعا لها ؟.

يقف " نفر" ملتصقا بالجدار لعل أنفاسه تعاود الانتظام ، تعلو أصوات قادمة من ناحية النهر ، صوت تدافع الريح خلال الموج والشجر وأفراس النهر وهي تتثاءب استعدادا لليل طويل ، وفي الأعلى النجوم باردة شحيحة الضوء تزيد من إحساسه بالوحدة ، لا أحد يحمل ثقل ما يحمله ، هل حان وقت مجيْ الضباع ؟ وهل يقدر وهو في هذه الحالة أن يرفع رمحه في مواجهتها ؟ لا أحد من الكهنة يظهر ، القمر فقط هو الذي يصعد من خلف أشجار النهر كاشفا ظلا ضئيلا من الحقيقة ، تبدأ ظلال الأعمدة في الاستطالة ، تستدير حول " " نفر" وتحاصره ، يحس أنه لا يستطيع ان يبقى في هذا الوضع طويلا فيبدأ في الحركة وهو مازال يرتجف ، مرة أخرى وكأنما لا مفر من ذلك يذهب إليهما ، يتأمل وجهها الصغير الذي لم يجرؤ الموت بعد على تبديل ملامحه وتطويعه لمشيئته ، كيف تأتى لها أن تموت بهذه الرقة والوداعة ، كأنها تستسلم لسيد قاس كانت تنتظره منذ ولادتها ، أما وجهه هو فقد كان حافلا بكل ملامح المباغتة ، كأنه قد واجه شيئا لم يتوقعه ، خيل له أن الفرعون يراقبه من خلف جفنيه المغلقتين ، استند إلى رمحه حتى لا يضطر للمس التابوت ، تبدأ لحظات الزمن الميت في التيقظ من جديد ، تمور داخل " نفر" وتزيد من رعدته ، هل حانت اللحظة التي لم يتوقعها أبدا طوال حياته ، اللحظة التي حولته ـ كما قال الكاهن ـ إلى خفاش ليلي ، يقول في صوت مرتجف :

ـ هل تعرفت علي يا ... مولاي

لا يتلقى إجابة ولا يسمع صوت حركة ، الجسدان المسجيان غارقان في صمت أبدي ، يواصل القول:

ـ لم يتعرف علي الكاهن الأكبر فهل تعرفت أنت علي أيها المولى العظيم أم أننا جميعا متشابهون كأعواد القمح والبقر وأكوام السباخ .

ينحسر رماد الزمن ، تبدو لحظاته البعيدة مؤلمة من فرط ما فيها من ذكرى قاسية ، كأن لم تغب أبدا ، هل كان عمره وزمنه يتحملان مثل هذه المصادفة ؟ وهل كان بمقدور أمواج النيل الخانعة دوما أن تقود سفينة الفرعون إلى مخاضة الطين على شاطئ " اهناسيا " في هذا الصبح البعيد ؟ في تلك اللحظة يستيقظ أهل القرية ـ الذين لم يتعودوا إلا على جباة الضرائب والجنود ذي السياط ـ ليجدوا أنفسهم فجأة في مواجهة سفينة ملونة بكل ألوان الطيف يهبط منها جيش من الحرس والأعيان والكهنة ، يخطون بأقدامهم على الأرض الترابية ، يتأملون القرية الطينية الراقدة تحت سعف النخل كأنها عالم غريب ، ينشغل العبيد بمحاولة دفع السفينة إلى النهر مرة أخرى ، ويسرع الجنود يفتشون الشاطئ بحثا عن عدو محتمل ، ثم يظهر الفرعون مثل شمس تبزغ من جوف السفينة ، يشير للعبيد أن ينزلوا فرس النهر الذي اصطاده ، المرة الأولى التي يحمل فيها أحد الآلهة شيئا للقرية التي تعودت أن تعطي ولم تتصور أن تأخذ ، ولكن الفرعون كان يدرك أن هذا الفرس المذبوح لو بقي على سفينته سوف يصيبها بالعفن ، لذلك ألقاه وجبة شهية أمام أعين الفلاحين الجوعى ، كان في حالة من البهجة لم يفسدها تعطل السفينة ، يسأله الحرس الأذن بإقامة خيامه على الشاطئ فيصر على أن يتجول في القرية أولا ، يشهق الجميع وأقدام الإله تجتاز

الطرق الترابية وتقفز فوق الترع دون مبالاة بالروث والسبخ الذي يدخل إلى صندله الذهبي ، يتوقف حين يرى البيوت الطينية في وسط البلد وقد تزينت بأعواد القمح المجدول والرايات المصنوعة من مزق الكتان الملون ، يهتف مدهوشا فيمن حوله : هل كانوا يتوقعون قدومي ؟ يومئ الجميع رؤوسهم وهم يقولون : بالطبع يا مولاي .

ولكن "نفر" يخبط حافة التابوت وهو يصيح :

ـ كانت هذه الزينة من اجلي أنا وليس من أجلك أنت ، المناسبة الوحيدة التي كنت انتظرها في حياتي جئت أنت أيها المولى العظيم واقتنصتها مني ، كان هذا يوم زفافي .

تخفض الضباع من عوائها الجائع حتى يتناهى إليه صوتها قادما عبر النهر وعبر الزمن ، تناديه كما تعودت أن تفعل في لحظات عشقهما النادرة ، ترتجف شجرة الصفصافة العجوز وترخي شعورها في آسى عاجز، ينفلت القمر من هالاته الملونة ويضيع في فضاء مظلم ، يتشكل وجهها أمامه، شعرها مغبر بالتراب والقش بعد يوم مرهق من أيام الحصاد ، يهبط "نفر" النهر ليغتسل فيجدها بالقرب من الماء ، غضه رقيقة الجلد حتى أن عيدان القمح قد أصابتها بالجروح الصغيرة ، كان هو ناضجا بدرجة كافية ليدرك أن براعمها على وشك التفتح ، ألصق الماء ثوبها الكتانى بجسدها وأوضح البروز النامي في صدرها ، كما تناثرت قطراته من جدائل شعرها كلما حركتها ، وثوب العمل الممزق قد كشف عن فخذيها ، راقبها وهي تضع حفنات الماء على نفسها وتضحك في بهجة حقيقية ، أخذ يعدو مبتعدا ، لم يكن يريد أن يرى منها أكثر من ذلك ، ولكن آن له أن يكف عن رؤيتها ، ، تظل أمامه حتى تحت جفونه المغمضتين ، في انفراط حبات القمح وفي عيون البهائم الساهمة وفي إرتعاشات النجوم ، لا يخبر أحدا بالرؤى التي تطارده ولكن أمه تفطن إلى حالته ، تدرك ماذا تعني قلة نومه وزهده في الطعام ، تظل تراقبه حتى عرفت من هي تلك التي لا يرفع عينيه من عليها ، تذهب إلى بيتها وتثر جدائل شعرها وتعري بطنها وتفحص حوضها حتى تتأكد أنها قد أصبحت ناضجة للزواج والإنجاب ، ثم تمضي بعد ذلك إلى صانع الفخار كي توصيه بصنع إناء منقوش حتى يكسره الاثنان معا ليصيرا زوجا وزوجة .

يستدير "نفر" ليقف في مواجهة التابوت الآخر ، يتأمل وجهها ، هل كانت تشبهها؟ أم أنه الموت يوحد بين كل الوجوه ، هل خلقهما رع بتلك الدرجة من الرهافة حتى □تأتي لحظة النهاية مفعمة بكل هذا الأسى ، يقول في صوت مرتجف :

ـ كوني شاهدة بيننا يا سيدتي ، فوجه مثل وجهك لا يمكن إلا أن يكون عادلا .

هل يمكنها من خلف أكفان الموت أن ترى تدافع أهالي القرية في فرح وفزع ، فرحين لأنهم سوف يرون فرعونهم للمرة الأولي ، ومفزوعين لأنهم بشكل غامض يدركون أنهم سيدفعون ثمن هذه الزيارة ، وعمدة القرية ينحني على الأرض ويعفر وجهه في التراب وهو يقول : "الليلة سيكون زفاف أحد الفلاحين وسوف يكون مباركا لو أنكم شرفتموه بالحضور "، ويصيح الفرعون بأريحية : " اجعلوا فرس النهر وليمة العرس

"ويعلن الكاهن الأكبر بأنه سوف يقوم بنفسه بعقد أواصر الزواج ، ويسرع العبيد بإحضار الابسطة والطنافس من السفينة فتشهد القرية لأول مرة أرضا بغير لون التراب والزرع ، منقوشة بكل الألوان ، طيور وزهور ومراكب وأنهر صغيرة وأسماك تسبح في داخلها ، يرون الكون فجأة وقد تمدد على ارض قريتهم ، أحضر الفرعون كونه الخاص معه وجلس عليه فتجسد أمامهم كل ما في الإله من مقدرة وسطوة ، يجلسون أمامه كما تعودوا دائما على التراب ، منه و إليه ، ، ثم حمل بعضهم البشارة إلى "نفر" : "الفرعون المقدس سوف يحضر زفافك ".

ـ ماذا كان أمامي أن أفعل غير أن أحس بالرهبة والارتباك ، كانوا يحممونني ، وحلاق القرية يزيح كل ما في جسدي من شعر كما جرت العادة ، كنت عاريا تماما ، شاعرا بخوف لا حد له ، وعاجزا تماما مثلما أنتما في هذه اللحظة .

يمد " نفر" يده دون خوف أو تردد وينزع الغطاء الكتاني من على الجسدين ، يطوح بهما بعيدا ، يتركهما عاريان تحت ضوء القمر ، لعل رعشة الخوف والبرد اللتان أحس بهما في هذا اليوم تسري في بدنيهما ، هذه هي المرة الثانية التي يتواجهان فيها ، الفلاح والفرعون ، ازداد الجسد المسجى سمنة عن ذي قبل ، لم يكن يعلق على صدره كل هذه القلائد المطعمة بالجوهر والذهب ، يجلس أمامهم وأمام كل الفلاحين مرتديا ثياب الصيد الخفيفة غير مهتم ببرودة المساء في القرية ، والعبيد يحولون عبثا إخراج السفينة من مخاضة الطين حتى بعد أن حل المساء ، و الكاهن الأكبر واقف متصلب غير ناس قدسيته وغير متخل عن تلك التقطيبة التي تبعث الرعدة في النفس ، يلتف شبان القرية حول " نفر" ويخرجوه من داره وهم يصفقون ، يسير بينهم مزهوا في عباءة زرقاء بلون النيل، وتلتفت الفتيات حولها وأخرجنها وسط عاصفة من الأغاريد وهي تلبس ثوبا من الكتان الأبيض فتبدو أشد نقاء من سحب السماء، يجلسونهما سويا بجانب بعضنا البعض تحت عقود من سنابل القمح وعيدان الذرة وتحت أنظار الفرعون وكاهنه الأكبر ، لعلها المرة الأولى التي يكتشف فيها الفرعون أن عبيد الوادي عندهم القدرة على الفرح بالحياة ، يمارسون حقا لم يمنحه لهم ولم يتصور أن يتوصلوا إليه ، يحس " نفر" بغصة في حلقه وهو يجلس أمام عين الفرعون اللتان تحولتا إلى جمرتين ، هو الوحيد تقريبا الذي واصل التطلع إليهما ، لم يرهما غيره ، فالبنات ترقص للفرعون ، والمغنين والعازفين يتجهون نحوه ، وكبراء القرية يحدقون فيه ببلاهة الغربان ، ولكن عينيه المسلطتين ظلتا على " نفر" وعروسه ، عزلتهما عن أي إحساس بالفرحة ، يستدير " نفر" يترك تابوته ويتجه إلى تابوتها شاكيا:

ـ كلا ، لم تكن عينيه مسلطتين علينا ، بل عليها وحدها ، لدرجة أن الفتاة المسكينة بدت كأنها جالسة على الجمر فأخذت تتشبث بذراعي لعلي أستطيع حمايتها أو إنقاذها ، ولكننا كنا سويا عزلا بلا حماية ، مثلك الآن يا سيدتي .

هاهي أصوات الضباع تعلو من خلف الجبل الغربي وقد بلغ جوعها أقصى درجاته ، والفرعون لا ينهض من نومته ، ولكنه في تلك الليلة هب واقفا وأشار بيده فتوقف الرقص والغناء ، يتنهد " "نفر" في راحة للمرة الأولى منذ بداية الليلة ، هو أيضا يود لو ينتهي كل شئ حتى ينصرف إلى كوخه الصغير ، يلقي الفرعون عليهم نظرته الأخيرة ثم يستدير منصرفا إلى الخيمة التي أقامها له العبيد بالقرب من الشاطئ ، يسير الجميع خلفه ولا يبقى مع نفر إلا أمه وعروسه ، يسيرون بسرعة إلى الكوخ ، تبقى الأم في الخارج بينما يغلق " "نفر" الباب ويضع خلفه كل ما يجده من أحجار ، ماتت الرغبة والفرحة ، يجلسا سويا في أحد الأركان وهما يرتجفان وقد علقا أنظارهما بالباب ، ولا يمضى وقت طويل حتى سمعا صوت الدقات المحتومة ، ازدادت رجفتهما والباب يوشك أن ينخلع من مكانه، تشهق العروس باكية وينفتح الباب مزيحا الأحجار التي خلفه ، ويبدوا الكاهن والقائد والعمدة وخلفهما الجنود ، يحدق الكاهن فيهما بنظرة باردة وهو يقول في صوت يشبه الترتيل :

ـ مولانا الفرعون قد تفضل ومنح زوجتك شرف الليلة الأولى .

يحدق "نفر" فيهم دون أن يفهم شيئا ، لم يكن إلا فلاح صغير في قرية معزولة لايعرف أن الآلهة قد تواطأت مع الفراعنة ومنحتهم الحق في كل شئ بما فيها حق الليلة الأولي الذي كان الكاهن مازال يرتل متحدثا عنها ، هتف العمدة به :

ـ يجب أن تكون سعيدا بهذا الشرف .

يهجم الحرس ، تصرخ فينتزعونها ، يعترض فيضربونه بأطراف الرماح ، يشجون رأسه حتى يغشى الدم عينيه ، يستمع لصرخاتها وهي تبتعد وكلما حاول التحرك غزت صدره سنون الرماح حتى تغيب الصرخات في صمت الليل .

يتقدم نفر وينزع التاج المعقود على رأسها ، يرتجف قليلا عندما تعلو نوبة جديده من عواء الضباع ، تنسال جدائل شعرها المقدس فوق كتفيها ، كان من المحرم على الرعية أن تلمح طرفا منه، ولكن" "نفر" يمد يده ويأخذ جديلة منه بين أصابعه، تسر نعومتها الباردة داخله فيوشك على الإجهاش بالبكاء :

ـ حين عادت في أخر الليل كانت محلوله الجدائل ، لم يكن مسترسلة أو وادعة كجدائلك ، كان شعرها ممزق ، ، وجهها وجسدها كانا مملوئين بالجروح والرضوض ، كأن ثور قد هاجمها وليس فرعون سلب منها ليلتها الأولى.

يزيح الثوب الكتاني من على صدر الملكة ، لا اثر للجروح أو الرضوض ، ربما لم يكن الفرعون يجرؤ أن يكون معها بمثل هذا العنف ، وربما هي خديعة من القمر حتى يظهر كل شئ تحت ضوئه ساجيا وبريئا ، يحس " "نفر" بذل مرير وهو يزيح الكتان الممزق من على الجسد الآخر ، يغسل ما علق به من دم وطين، يتحسس ضلوعه المرتجفة الهشة ، جسد صغير ، مهان ، بالغ التألم ، تنسرب منه مياه الحياة رغما عنه ، يبكيان طويلا وهو يهتف بها :" يا أختي الصغيرة سوف ننسى ، لا بد أننا سوف

ننسى " ، يغفوان سويا من شدة التعب والإجهاد ، وعندما يستيقظ لا يجدها ، يعدو على طول النهر ، سفينة الفرعون قد رحلت ولكن هل تبددت الكوابيس ؟ يواصل يعدو حتى يجد جمعهم ، خليط من الفلاحين والصيادين ، و جسدها مسجى أمامهم ، عارية ولكنه مستورة بطبقة من الطين ، اختفى كل ما فيها من جروح وكدمات ولم يبق ظاهرا تحت ضوء النهار إلا ملامح الموت ، موت قذر ممض ، وليس موتا نظيفا كموت الملكات ، يتجه نحو تابوت الملكة ، تكتمل دورة من برد الليل وعواء الذئاب ورماد الذكرى وموات القلب ومهانة الروح ولم تبق إلا لحظة الحساب .

الكويت ٤ / ٢ / ١٩٩٩

لحظة الانتقام من مس آسيا

ترفع طرف أنفها الصغير وتوجه نحوي طرف سبابتها وتحدجني بنظرة نافذة من خلف نظارتها وتقول :

ـ انهض ..اذهب إلى حضرة الناظر.

دائما كنت أكره اللغة الإنجليزية و في هذه اللحظة أكره مس آسيا أكثر واشعر برغبة عارمة في الانتقام منها، تتصاعد ضحكات زملائي الأوغاد داخل الفصل كأن هناك تواطؤا خفيا ضدي ، أدمدم معترضا ببعض الكلمات ، أصفق

باب الفصل خلفي بأقوى ما أستطيع، أسير في الممر الطويل المشبع برائحة الورنيش العطن، أفكر في القفز من أحد النوافذ المطلة على الفناء ولكن مدرس الألعاب يقف هناك، لا مفر من السير حتى نهاية الممر حيث توجد الغرفة المروعة وحيث يوجد الناظر متأهبا لوقع خطواتي (في هذه اللحظة كان حضرة الناظر في منتصف العمر وفي منتصف مسيرته الوظيفية، وكان يصرخ فينا دائما أن طه حسين هو سبب انهيار التعليم في مصر لأنه سمح بدخول أبناء الأوغاد إلى المدارس لم يكن قد ترقى بعد إلى منصب مفتش أول أثم إلى منصب مدير الإدارة التعليمية، بعد ذلك تم اختياره معلما مثاليا وقلده الزعيم جمال عبد الناصر وسام الاستحقاق في عيد العلم وارتدى الوشاح والحلة السوداء وعاد إلى المنزل ليموت وهو واقف أمام المرآة كأنه كان يلتقط لنفسه الصورة الأخيرة)، يشاهدني واقفا أمامه فيزوم من بين شفتيه:

ـ اهو أنت مرة أخرى ، لابد وأن مس آسيا هي التي أرسلتك .

أقول على الفور : إنها تضطهدني .

ينهض من خلف مكتبه ويستدير ليقف في مواجهتي، أتراجع بحيث لا أكون في متناول يده ، يصيح :

ـ ألا تخجل من نفسك، مخلوقة بهذه الرقة والوداعة تتهمها باضطهاد حشرة مثلك ، بدلا من أن تثير لها المشاكل في الفصل كان يجب أن تحضر لها زهورا .

أواصل التراجع وأقول: ومن أين لي مصروفا لمثل هذه الأشياء .

ينظر ناحية العصا المركونة إلى الحائط ولكنه يتمالك نفسه ، أتمنى أن يرفعها ويهوي بها علي مرة أو مرتين وينتهي الموضوع ولكن بدلا من ذلك اسمعه وهو يقول :

ـ اذهب ولا تعد إلا مع ولي أمرك .

ـ هدا ظلم ، في المرة الماضية رفضت الاعتراف به .

ـ لأنه كان مزيفا .أريد ولي أمر حقيقي هذه المرة.

قبل أن أغادر المدرسة أدير في ذهني تفاصيل الانتقام من مس آسيا وكيف يجب أن يكون سريعا ومؤثرا حتى ولو كلفني مستقبلي التعليمي، أخبئ الحقيبة في مكان من المستحيل الوصول إليه خلف دورة المياه، أسير في الشوارع حرا طليقا، لا فائدة من العودة إلى البيت الخالي ، لن يعود أبي قبل أن يحل الظلام ليعد الطعام لنا ثم نأكل وننام ، لم يبق لي إلا نصف ضوء نهار أتم فيه انتقامي، أيام كثيرة قضيتها متسكعا مثل هذا اليوم، أعرف كل تفاصيل بلدتي الصغيرة ، عدد المقاعد داخل السينما الوحيدة ، و أشجار الصبار في مقابر النصارى ، والكباري الخشبية على النهر الصغير، أتسكع بوجه خاص أمام المقهى الزجاجي الذي يجلس عليه الأعيان ، يزغر في الجرسون اليوناني حتى ابتعد (في هذه اللحظة لم يكن قد اكتشف بعد أن زوجته ذات العينين الملونتين تخونه مع الحلاق الأرمني الذي يسكن في الدكان الذي يجاوره، وعندما اكتشف بالمصادفة ذلك الأمر الذي كان يعرفه معظم زبائن المقهى ثارت بينهما مشاجرة ضخمة سال فيها دم الجرسون اليوناني علي وجهه وأخذ يبكي داخل المقهى الخالي في قهر، وفي المساء شوهد وهو جالس في دكان الحلاق الذي كان يفحص رأسه وهما يتبادلان الحديث ، لعلهما كانا يتفقان على اقتسام الزوجة، بعد ذلك حلت المشكلة بالفعل وبات في وسع الزوجة في التردد بحرية بين المحلين ولكن ـ حسب ما أشيع ـ أرسل الجرسون

اليوناني بلاغا إلى الأمن يتهم فيه الحلاق بأنه جاسوس لإسرائيل ومن يومها اختفى هذا الأخير)، أتراجع حتى أجلس على حافة النهر واثقا أنه بقليل من الحظ سوف تظهر مس آسيا في موعدها المألوف، يمر الكثير من الوقت وينتهي موعد المدرسة، ثم تبدو قادمة عبر الكوبري الخشبي المليْ بالثقوب، أرى قامتها الطويلة النحيفة وهي ترتدي فستانا لونه " بمبه سكلاماه" وقبعة كبيرة من القش لها نفس اللون ، تسحب خلفها كلبها الصغير (كنت أعرف أن أسمه الحقيقي هو شكسبير ولأنه أسم طويل وصعب ولا يليق بكلب أبيض صغير الحجم فهي تدعوه "شاكي" ولا تكف عن الحديث عنه) ، تشده بحبل رفيع لا يكاد يرى ، يحني الجرسون اليوناني رأسه محييا إياها وينظر رواد المقهى إليها بأفواه مفغورة وتهدأ الضجة المنبعثة من المذياع الخشبي فلا يسمع إلا صوت كعب حذائها، أنزلق أنا ببطء وأختبئ خلف صف من أشجار التين البري الموجود على الشاطئ وأراقبها وهي تمر بي من خلف الأوراق الغليظة المليئة بالأشواك ، تبدو بهذا الثوب الهفهاف الرائق كأنها قادمة من عالم آخر، أسير على مبعدة منها حتى لا يلمحني الكلب، رغم الكعب العالي فإن جسمها لا يتثنى، تترك شارع البحر وتسير تحت جسر السكة الحديد الى الجانب الآخر من البلدة، لم يكن هناك إلا الكنيسة وأسوار المصنع والمحطة الواسعة التي تضم قطارات "الدلتا " الصغيرة.

أعشاب صغيرة تنبت من بين الأحجار، أشجار الجهنمية تلقي بزهورها الحمراء، يتوقف "شاكي " أحيانا ويدور حول نفسه ولكن مس آسيا لا تلتفت ، تظهر أمامنا الكنيسة الحجرية المتربة، لا يوجد أحد، لم يكن هناك من يذكر الرب في هذه اللحظة إلا مس آسيا، تعبر السور الخارجي إلى ممر مرصوف برخام متكسر حتى الباب الداخلي للكنيسة، تتوقف قليلا أمام النوافذ ذات الزجاج الملون والنباتات المتسلقة التي تعلو الجدران، تظل واقفة مترددة في الدخول ، لعلها لم تكن واثقة من درجة استعداد الرب لاستقبالها في تلك اللحظة، تربط الكلب إلى أحد الأشجار الرفيعة بجوار المدخل ثم تخلع قبعتها القشية ثم تغيب في الداخل، أنتظر قليلا ثم أعبر السور أنا أيضا، ينظر إلي الكلب المقيد ويضم قوائمه ويصدر صوتا خافتا أقرب إلى التساؤل منه إلى النباح، نحدق في بعضنا البعض عن قرب ، يحاول كل منا اكتشاف الآخر، هل كان يعرف نيتي السوداء؟ أخشى أن تخرج مس آسيا لأي سبب ولا تكتمل أركان جريمتي ، أتسلل خلفها إلى داخل الكنيسة ، رائحة الرطوبة والبخور ، ضوء النهار وقد تباعد و تحول الى مربعات ملونة متناثرة على أرضية من الخشب المتآكل، ستنا مريم تحمل طفلا على ذراعها وترفع الذراع الأخرى عاليا ، ربما لتمنعني من التقدم الى الداخل ، أسمعها وهي تقول : كل رسائلي إليه ذهبت هباء يا أبي، أترجع مرعوبا ، يظل وجه ستنا مريم جامدا ونظراتها معلقة إلى أعلى ، الصوت يأتي من مكان آخر، مس آسيا تجلس على أحد المقاعد وهي تتحدث إلى حاجز من الخشب المعشق، ألمح خلفه ظل رجل ما يهز رأسه وهو يستمع إليها، أعرف أنه القسيس " مقاريوس" الذي كنا نطلق عليه "أبونا" إذ لا يوجد غيره استطاع المكوث في بلدتنا لهذه المدة الطويلة ، ولا أعرف لماذا يجلس خلف هذا الحاجز مادام يعرف كل منهما الآخر (في هذه اللحظة كان مازال يقوم بكل واجباته الدينية ، لم تكن بنت الشيشيني باشا قد وقعت في غرامه بعد كما قيل وقتها ، ورغم أنه حاول جاهدا أن يردها ويجعلها تعرف الفوارق الدينية التي تحول دونهما ، إلا أنها لم ترتدع ، كانت فتاة جميلة وبريئة كما اللبن الحليب، وأشيع في البلدة أن القس يحاول تنصيرها، وثارت ضجة كبرى واضطر القس العاشق لاعتزال الحياة بعيدا وهاجرت الفتاة إلى فرنسا بعد أن صادرت

لجنة تصفية الإقطاع كل ممتلكات أبيها، ولم يظهر القس " مقاريوس " إلا بعد ذلك بسنوات طويلة عندما ذهب لمقابلة الرئيس السادات ـ كما ذكرت صحيفة وطني ـ وكان شيخا عجوزا جليلا وعرض عليه أن يفرج عن البابا شنودة وان يسجنه هو بدلا منه مدي الحياة ، وقد رده الرئيس السادات قائلا : أن مصر لديها ما يكفيها من الشهداء وأنها ليست في حاجة إلى شهداء جدد) يستمع إلى مس آسيا وهي تبكي، لم أرى دموعها ، ولكن رأيتها أكثر من مرة وهي تدخل منديلا صغيرا خلف عدسة النظارة لتمسح عينيها، ولابد أن أبونا قال لها شئ بصوت خافت لأنني رأيتها تفتح حقيبة اليد التي تضعها على حجرها وتخرج منها حزمة من الرسائل، ترفعها إلى أعلى حتى يرها القسيس وتشهق قائلة :

ـ كلها قد ردت إلي ، لا أعرف أن كان قد غير عنوانه أم أنه قد رفض استلامها

يبدأ القسيس في الكلام بصوت رتيب متتابع ، أرى الرسائل وهي تنزلق من يدها ساقطة على الأرض ، واحدة أثر أخر، يصبح وجهها جامدا كما وجه ستنا مريم، أبدأ أنا في التراجع مغادرا الكنيسة، الكلب الصغير ما زال في انتظاري، أفك الرباط من حول الشجرة، أتحسس جسده الدافئ، يرتجف ولكنه لا يعترض، لا يصدر أي صوت حتى وأنا أعدو به مبتعدا، أعبر الطريق المرصوف كله وأنحرف لأدخل بين المزارع حتى لا يراني أحد، لا توجد في ذهني فكرة محددة ، أتقافز فوق الترع العكرة، أشاهد القضبان النحيفة الممتدة التي تقود إلي محطة قطار "الدلتا" فأسير في اتجاهها، أعدو خلف السور الممتد متجنبا الأحجار الصغيرة والأشواك الضارية النابتة بين القضبان، تقف العربات الصفراء الصغيرة مستعدة للانطلاق، طالما أحببتها لأنها أصغر حجما وأكثر بطئا واقل صخبا من القطارات العادية، كأنها قد صممت للصغار من أمثالي، أصعد إلى اقرب عربة وأجلس بجوار النافذة، يواصل الكلب التطلع إلي في دهشة وفضول، ربما لأن المغامرة قد أعجبته حتى الآن، أو ربما لأن العلاقة بينه وبين مس آسيا ـ مثلي ـ لم تكن دائما على ما يرام .

يبدأ الفلاحون في التوافد ، يلقي بعضهم نظرة ازدراء على الكلب الأبيض الناعم الذي أحمله ، الرجال منهم يسحبون خلفهم حيواناتهم الخشنة، ماعز وخراف وبط وأوز وحمار بالغ الهزال، والنساء يحملن فوق رؤوسهن مقاطف مربوطة بإحكام ، طوال عمري وأنا أشاهد الفلاحات يذهبن ويأتين إلى بلدتنا وعلى رؤوسهن الصغيرة هذه الأحمال الثقيلة دون أن اعرف ماذا تحوي، لا يجلس إلا القليل من الركاب على المقاعد ، يجلس معظمهم في طرقة العربة وبالقرب من الباب بجانب حيواناتهم وأثقالهم، يصفر القطار ويبدأ في الاهتزاز فيتدافع المزيد من الفلاحين والحيوانات ، تزوم العجلات وهي تتحرك فوق القضبان الصدئة، ينبح " شاكي " بصوت جذل ، تدور المزارع وتتحرك بيوت المدينة، نخرج من خلف السور الممتد، تبدو الكنيسة والفناء الذي يحيط بها من على مبعدة، ألمح مس آسيا وأبونا واقف إلى جانبها ، ينبح الكلب عاليا ولكن لا يرتفع فوق صوت القطار، أتراجع عن النافذة ونواصل الابتعاد عن الكنيسة والبيوت وزرابي القطن ومداخن المصنع ، تتأرجح العربات فوق "الفلنكات" الخشبية التي تعبر الترع والمصارف، نغوص في ظلال أشجار الصفصاف والجزورينا والجميز، تبتعد الشمس ولا يبقى منها إلا حزما متفرقة من الأشعة، يأتي المحصل بدينا متأرجحا ، بصورة واضحة ، لعل هذا ما يساعده على حفظ توازنه، يسب الفلاحين لقرفهم والحيوانات

لروثها ، لا يردون عليه السباب، يحاولون فقط إزاحة الحيوانات من طريقة ، يتوقف أمامي ويتطلع إلي الكلب في استغراب:

ـ وأنت ، ماذا تفعل هنا مع هذا الكلب ، هل تذهب معه في نزهة ، هيه ، لا تبتعد كثيرا ، فاهم .

يتركني دون أن يطالبني بالتذكرة ، لم تكن معي على أي حال (في تلك اللحظة لم أكن أعرف أنه صديق أبي ، انه قد قص عليه تفاصيل هذا اليوم فيما بعد، كما أن حياته قد تغيرت بعد هذا اليوم أيضا ، فقد ساهم في إفشال إضراب قام به عمال وموظفو سكك حديد وجه بحري التي كنا نطلق عليها "الدلتا" للمطالبة برفع أجورهم ووشى بقادتهم، ومكافأة له على ذلك تمت ترقيته بسرعة ، وقاطعة معظم الموظفين، لم يبق له من أصدقاء سوى أبي الذي كان يقابله دائما على المقهى وهو يبكي ويتوعد الجميع بالانتقام عندما يتم اختياره رئيسا للمصلحة، وقد حدث هذا بالفعل ولكن في اليوم الذي عين فيه مديرا صدر قرار بإلغاء سكة حديد وجه بحري كلها وتوقفت قطارات "الدلتا" إلى الأبد ، أرسل هو خطاب احتجاج شديد اللهجة إلى رئاسة الجمهورية قال فيه أن هذا القرار سوف يقطع أواصر الريف المصري ويتسبب في انهيار أسواق الثلاثاء وغلاء الحيوانات وعنوسة البنات وعدم مد المدن بالخضراوات الطازجة ، ولم يأبه به أحد منذ ذلك الوقت)، يسترخي الفلاحون وتنفلت الحيوانات من عقالها فور أن يختفي، تصعد الماعز فوق المقاعد وتمد رؤوسها خارج النوافذ تحاول اصطياد أوراق الشجر، تتناطح الشياه ويصفق الأوز بأجنحته ، ينفلت "شاكي"من يدي ويقف على ظهر الحمار البالغ النحافة ، يبدو سعيدا لدرجة تخفف من إحساسي بتأنيب الضمير تجاه مس آسيا، يتوقف القطار كل عدة دقائق، يهبط أناس وحيوانات ويصعد أناس وحيوانات، وأنا أريد الابتعاد عن البلدة لأقصى ما أستطيع ، أعتزم أن أحصي محطات عشر قبل أن اهبط ، مضيت بعيدا ولم يعد هناك مجالا للتراجع ، وأخيرا أهبط.

لم تكن أكثر من رصيف من الأحجار لا توجد عليه أي علامة، أسير وأنا أحمل الكلب ، يهبط معي آخرون ويأخذون في الابتعاد سريعا، لا يوجد أثر لبيوت البلدة، أحتار إلى أين اتجه، أصبح وحدي فأشعر بالخوف، أضع "شاكي " على الأرض وأفك الطوق المعقود حول عنقه وأصيح فيه أن يذهب، لكنه لا يفعل، يظل محدقا في مرعوبا وخائفا من أن أتركه، ربما كان يعتقد أن الصداقة المؤقتة التي تمت بيننا أثناء الرحلة سوف تدوم إلى الأبد، أعاود الصياح فيه بكل ما أوتيت من قوة فيظل واقفا أمامي، أعود للمحطة فيعود خلفي، اجلس على أحد الحجار منتظرا القطار العائد، لا أعرف متى سيأتي نتطلع إلى بعضنا في خوف وتبدأ الشمس في المغيب، آخذ في الارتجاف ويحاول الكلب التمسح بي فأدفعه بعيدا، تستطيل ظلال الأشجار وتبرد الريح، أبدأ في البكاء قبل أن يلوح ضوء القطار قادما من خلف الأفق، لا أصدق عيني ، أتقافز ويتقافز " شاكي"معي ، تتوقف العربات نصف المعتمة فأهرع إليها، يحاول هو القفز خلفي ولكن جسده الضئيل لا يساعده على الوصول إلى حافة العربة العالية، ينبح في ألم، فرحتي بالنجاة لا تجعلني مستعدا للمجازفة والهبوط لإنقاذه، يقف على قائمتيه الخلفيتين ويرفع الأماميتين إلى أعلى محاولا استعطافي، يتحرك القطار الخالي إلا مني، كأنها لم يجئ إلا لكي أتم انتقامي، لا يظهر المحصل ، لا يصعد أحد ولا يهبط ولا أكف عن الارتجاف حتى تظهر بيوت المدينة.

أسير دائخا وسط الظلام، أوشك على الانزلاق ووسط الحواري المبللة، أرى الضوء خلف نافذة البدروم ، أهبط الدرج فأشم رائحة الطعام فأدرك أن أبي قد جاء، أجده جالسا في مواجهتي وهو ينظف أدواته كما هي العادة، مفاتيح وعدد ومفكات وكلابات وبنس وقواطع ، أشم رائحة الكيروسين، يرفع رأسه ويرمقني بنظرة متفحصة ، يقول وهو يواصل تنظيف أدواته :

ـ لماذا تأخرت هكذا وأين حقيبة المدرسة؟

لا ادري إن كان يعرف ما حدث أو انه كان يختبر قدرتي على الكذب، أقول على الفور:

ـ طردت من المدرسة، ، اخبرني الناظر ألا أعود إلا ومعي ولي أمري.

يظل صامتا، يمسك "المزيته" في يد "والعدة" في اليد الأخرى، لماذا لا ينهض هو أيضا ويضربني وينتهي الأمر؟ أسمعه وهو يقول :

ـ اغرف بعض الأرز والبطاطس وكل ، الصباح رباح.

هل تأجل عقابي؟ أم أن علي أن أدلي بالمزيد من الاعترافات؟ الطعام ساخن وبدون لحم ، أرى على الحلل والملاعق والطباق آثار أصابع أبي السوداء، أجلس في الركن الآخر من الغرفة الضيقة أراقبه وهو يعيد ترتيب أدواته، آكل قليلا وأنام في نفس المكان الذي كنت جالسا فيه وأظل طوال الليل أحلم "بشاكي"وهو يقف أمي على قائمتيه الخلفيتين، لا أستيقظ إلا عندما أسمع وقع أقدام المارة والعربات "الكارو" وهي تعبر بجوار النافذة، اسمه صوت غطيط أبي، أرتدي ثيابي في هدوء وأظل جالسا حتى يستيقظ، لا يقول لي كلمة واحدة وهو يراني جالسا أرتدي زي المدرسة، يلبس العفريتة المتسخة ويحمل على ظهره صندوق العدة، يسير وأسير خلفه في عكس الاتجاه الذي يؤدي إلى المدرسة ، يتبادل تحايا الصباح مع الجيران المبكرين، ما أن نخرج من الحي الذي نسكن فيه حتى يتوقف ويرفع صوته إلى أعلى وهو يصيح بصوت عال ممطوط "نعمـــــر" ، الصباح بارد والأرض مبللة وشارع البحر لا يوجد فيه إلا بعض طيور حائمة ، نعبر إلى الحي الراقي ويواصل أبي النداء، أحس كم أن صوته متعب وشقيان، لا يأبه بنا أحد، لا يفتح لنا أحد، نسير طويلا دون أن نأكل ولو لقمة واحدة، أخيرا تطل علينا امرأة من نافذتها وتطلب من أبي أن ينتظر حتى يصلح ماكينة الخياطة الخاصة بها ، نتوقف ، يمسك أبي "الماكينة "السوداء ، يقلبها على ظهرها ويفتحها ، يفتح صندوق "العدة " ويخرج منه العديد من الأشياء، لا يوجد به أدوات التصليح فقط ولكن المئات من قطع الغيار ، مسامير مختلفة الشكل وبراغي وأسلاك وتروس صغيرة وقطع حديدية غريبة الشكل ، هذه هي المرة الأولى التي أرى أحشاء عالمه الخفي، لابد وانه جمعه خلال أيام التجوال الطويلة، يدخل أصابعه الضخمة في جوف الماكينة، تؤكد له المرأة أنها احتارت فيها ، يخرج كورا من الخيوط الملفوفة والإبر المتكسرة ، يضع داخلها بعض نقاط من الزيت ثم يقلبها ، تدور العجلة وتتحرك الإبرة صعودا وهبوطا فتضحك المرأة في حبور " أي خدمة ياست" تعطيه المرأة أجره فلا يناقشها ولا حتى ينظر فيه، تصبح الشمس أكثر ارتفاعا ويفقد النهار نعومته، يصيح أبي " نعمـــــر" ، تقودنا امرأة أخرى إلى المطبخ حيث توجد ثلاجة ضخمة، يميلها أبي على جنبها ويأخذ في العمل ، لا يطلب مني مساعدة ولا يوجه لي كلمة مباشرة، تحضر المرأة طبقا من الحلوى فلا يأمرني بالأكل أو الاعتذار، ندخل

حديقة أخرى لنصلح طلمبة للمياه، ثم مولد كهرباء محترق، وراديو خشبي له بطارية جافة لم أتصور أن أسمع له صوتا أبدا، وآلة تليفون في إحدى الوكالات التجارية ، ننقذ ركاب أتوبيس ضخم تعطل بهم على جانب الطريق وندير مخرطة ضخمة في إحدى الورش، كل ذلك دون أن نتوقف عن السير في أرجاء المدينة ، ننتقل من الإسفلت إلى الطرقات المرصوفة بالأحجار ثم إلى الحواري الرطبة المتربة دون أن يكف عن الصياح " نعمـــر" وأتبعه جائعا ومتعبا، لا أكف عن تأمل أصابعه وهي تندس في الآلات الصامتة الميتة فلا تلبث أن تنتفض بالحياة، يخرج أشياء صدئة ويعيد جليها، وأسلاك ممزقة يرمم أوصالها ، ودائما ما يجد في صندوق العدة الشيْ الذي يبحث عنه، ينساب العرق من جبينه أسود له نفس لون الزيت الذي بزيت به الآلات، لا نتناول أول وجبة لنا إلا في منتصف اليوم والشمس حامية ، نجلس على جانب من الطريق ونأكل بضع أقراص من "الفلافل"والخبز والفول "الحراتي" الأخضر، ندخل أحد المسجد للشرب والاغتسال فيقوم أبي بإصلاح كل صنابير المياه الخربة فيه وينصرف دون أن يطلب أجرا أو يخبر أحدا.

لا نعود إلي البدروم إلا في نهاية هذا اليوم الطويل، يصعد الصهد من رأسي ويكاد الألم يشل أصابع قدمي ، يضع أبي صندوق العدة ويقوم بتسخين بقايا البطاطس والأرز الموجودين منذ الأمس، أكتم دموعي وارفض الطعام وأنام على الفور، يخيل إلي أنه يقوم بخلع ملابسي ويلبسني جلباب النوم ويخيل إلي أنه يجلس بجانبي ويتحسس جبهتي ويهمس لي في صوت خافت :

ـ على عيني يا إبراهيم ، ولكني أردت أن أجنبك هذا المصير، لا أريد أن تهجرك امرأة من أجل الشحم الموجود تحت جلدك أو الوسخ الذي على ثيابك أو البدروم الرطب الذي تعيش فيه، لا أريد أن أسمع صوتك وأنت تصيح "نعمر" وأن تأكل الطرقات روحك قبل أن تأكل قدميك، نم يا إبراهيم والصباح رباح.

أستيقظ في الصباح فأجد أن ثياب المدرسة قد غسلت ونشرت فوق حبل بجانب المصباح الذي بقي مشتعلا طوال الليل أجدها جافة وصالحة للبس رغم أن عليها آثار أصابعه، ارتديها ، أظل جالسا أنصت إلى غطيطه الهاديْ ووقع الأقدام في الخارج ، ما أن يستيقظ حتى يبدأ على الفور في إعداد "سندوتش" ويأمرني بتناوله، يأخذني من يدي ويحمل صندوق العدة باليد الأخرى، ونسير في الاتجاه المؤدي للمدرسة، عندما نقترب من الباب يتحدث معي للمرة الأولى:

ـ أين خبأت حقيبتك؟

ندخل إلى فناء المدرسة ، يترك صندوق العدة عند الحارس وأذهب لإحضار الحقيبة، نصعد سويا إلى غرفة الناظر، أود أن تتاح لي الفرصة للاعتراف بكل جرائمي ولكن الناظر يقول وقد نفد صبره:

ـ يجب أن تغفر له مس آسيا أولا.

كيف يمكن أن تغفر لي ؟ نسير سويا إلى غرفة المدرسين، لماذا يصر كل واحد منهم يعاقبني بطريقته الخاصة دون يتركوا لي فرصة للاعتراف؟ على الأقل كنت واثقا من أنني سوف أعترف أمام مس آسيا، نفتح الباب فنجدها جالسة إلي منضدة عليها غطاء من المخمل الأخضر المتآكل، تحدق فينا ونحن واقفين عند الباب كأنها لا تستطيع التعرف

علينا ، وجهها محمر وعيناها مجهدتان، أختبئ خلف أبي متمنيا ألا تراني ، يحاول أن يتكلم ولكنها ترفع يدها وهي تقول :

ـ لا اعتذارات أتركه وانصرف.

يدفعني أبي برفق إلى منتصف الغرفة ثم يغلق الباب خلفه وأبقى وحدي واقفا في مواجهتها، تشير لي فأجلس على المقعد المقابل لها اخفض رأسي ، يبدو المخمل الأخضر شديد الشبه بالحقول التي ضاع وسطها "شاكي" ، ارفع بصري فأعرف أنها قد بكت لحد الإنهاك ، تتساءل في صوت خافت :

ـ هل كنت قاسية معك إلى هذه الدرجة ؟

لا أدري ماذا يمكن أن أجيب ، ولا أدري لماذا لا تسألني بشكل مباشر عن جريمتي، يبدو أنها لا تنتظر ردا مني لأنها تواصل القول :

ـ ربما لأنني لم أكف عن الحلم بك، وكان ما يغيظني دائما أنه حلم مستحيل.

لا أفهم شيئا، أواصل التحديق في بلاهة، تسكت لتبلع ريقها أو ربما لتجد كلمات أخرى ثم تقول :

ـ لو سارت الأمور معي بطريقة طبيعية لتزوجت وأنجبت ولدا مثلك ، وربما كان يشبهك تمام الشبه، في مثل هذه اللحظة كان فقط أن أكون أمك.

تمنيت ألا تقول هذه الكلمات ، تسري البرودة في عظامي، أسحب يدي من فوق المنضدة حتى لا تلحظ ارتجافي، أرى أبي وهو يبكي في ذلك الصباح البارد البعيد، أبحث عن ثوب النوم الأحمر الذي كان معلقا فوق الحبل الموجود في ركن الغرفة فلا أجده، نبقى ـ أنا وأبي ـ جالسين لمدة أربعة دون طعام ودون أن نجرؤ حتى على إضاءة المصباح، وعندما تهاجمني الكوابيس أنتقل إلي حضنه فأجده يعاني من نفس الكوابيس، تنظر إلي وتقول:

ـ لا تبك ، في الليلة الماضية بكيت بما يكفي لأهل المدينة كلهم، أتدري حتى شكسبير فقدته أيضا؟

أفتح فمي لأقول لها أنني قد فعلت ذلك ولكني أري عينيها وهما تحدقان في ، تبحثان عن حلم ضائع، يختلط وجهها بذلك الوجه القديم ، لا أجرؤ على قول أي شيْ ، خوفا عليها، أخفض رأسي وتنساب دموعي في صمت ، أسمعها وهي تقول: هل تشاركني في البحث عنه.

أقول من خلال حلقي الجاف: أجل ، سوف أفعل

ا لة الك ى ١٩٩٨/٢/٢٠

حالة طوارئ

سمعت صوت طرقات خافتة فوق الباب الخارجي ، شعرت بالخوف ، كنت أعرف أنه هو . ولكن لماذا لم يستخدم جرس الباب وفضل هذه الطريقة الهامسة، كان الصمت سائدا حتى أن ذرات الهدوء تراكمت فوق بعضها، الشارع الذي لم يكن يخلو من السيارات والشاحنات أصبح قفرا، الريح خائرة، وقطرات الماء التي كانت تتساقط دوما من الصنابير قد توقفت، حتى الثلاجة القديمة كفت عن الطنين.

وقفت مترددا والطرق يعود خافتا مترددا، حركت الباب لفتحة ضيقة فبدا وجهه، دخل مسرعا وتلفت حوله بحذر وهو يقول هامسا:

ـ هل مازلت وحدك؟

كنت أكره صياغته للسؤال بهذه الطريقة التي تذكرني دائما أنني وحيد، بلعت ريقي مداريا ضيقي وأنا أقول له :

ـ كيف خرجت رغم حالة الطوارئ؟

قال في سرعة : تعرف إنني لا أهتم بذلك، ارتد ثيابك ، سنهبط معا.

شيْ آخر كنت أكرهه فيه ، هو ذلك الغموض الذي يحيط به نفسه دوما، غموضا يجعله كئيبا مثل يوم ضبابي، أهتف به متراجعا:

ـ سوف تعرضنا للقتل، لقد أعلنوا أهم سوف يطلقون الرصاص الحي على كل من يتجول في الشوارع في وقت الحظر.

قال في حدة ونفاذ صبر: هيا لا تضيع الوقت.

سرت إلى غرفة النوم وأخذت أغير ملابسي في تردد وحيرة، نظرت من النافذة إلى الشارع، لا أثر لمخلوق ، لاشيْ يتحرك سوى الكلاب الضالة، حتى أعمدة الإضاءة لم تكن تشتغل بكامل طاقتها، والسماء أيضا كانت جرداء بلا نجوم.عدت غليه، كان مازال واقفا في نفس المكان بالقرب من الباب، عودت سؤالي دون جدوى:

ـ إلى أين سنذهب؟ لم يأبه بالرد علي،

أندفع خارجا فاندفعت خلفه، تقافز على الدرج المظلم وأنا أتعثر خلفه، سيارته أمام المنزل، كانت ترتعش في وهن بسبب محركها الدائر، كيف آمن أن يتركها هكذا؟ ركبت بجواره وقبل أن أغلق الباب جيدا كان قد انطلق، لم أكن قد شاهدت المدينة أبدا بهذه الصورة، مدينة مغلقة، منازلها ونوافذها ومحلاتها وأكشاكها

الخشبية مليئة بأكوام القمامة، بدت أشبه بحيوان عاجز، عربات المترو معطلة، والأتوبيسات متكومة في الميادين، وعربات الباعة الخشبية مقلوبة ومحطمة، هتفت مدهوشا:

ـ لا يوجد أحد، حتى رجال الجيش المكلفين بحفظ حالة الأمن غير موجودين، المدينة كلها تبدو ميتة وبلا بشر.

قال وهو يزيد من سرعة السيارة:

ـ لقد انسحبوا، عدوا جميعا إلى الثكنات، من الأفضل ألا يبقى الجيش داخل أروقة المدينة لمدة طويلة.

هتفت حائرا : هل انتهى التمرد

قال متصنعا الدهشة: أي تمرد؟

هل كان يسخر مني؟ قلت في إلحاح :

ـ تمرد جنود الأمن المركزي.

أصدر صوتا مستهجنا، بدا مستهينا بما حدث، زم شفتيه وواصل الضغط على مقود السيارة فازدادت السيارة جنونا، عبرنا كل الإشارات الحمراء، سرنا في عكس اتجاهات السير واجتزنا كل التقاطعات التي كان يجب عدم الدخول فيها، لم يقابلنا أو يعترض طريقنا شيْ، هتفت حائرا:

ـ لا أصدق أننا جلسنا ثلاثة أيام في منازلنا ونحن نرتجف من الخوف دون أن يكون هناك أي تهديد في الشوارع.

قال بنبرة ملل من كثرة ملاحظاتي:

ـ الشوارع كانت خطرة بالفعل، وكما قلت كانوا متأهبين دوما لإطلاق الرصاص الحي، وقد قتل بالفعل بعض الأشخاص وهناك عدة إصابات في المستشفى.

كنت قد سمعت صوت إطلاق الرصاص بالفعل، وسط هدأة الليل ورعبه وظلمته، لحظتها خشيت الاقتراب حتى من النافذة أو إضاءة النور، لحظتها تقرفصت في إحدى أركان الغرفة وخبأت رأسي بين ركبتي، شعرت بعد ذلك بالخجل ولم أذكر ذلك لأحد، حاولت أن أجره إلى المزيد من التفاصيل، تساءلت:

ـ أين ذهب الجنود؟

ـ قلت لك من قبل ، انسحبوا

ـ هل انتهت حالة الطوارئ

ـ لنقل أنها على وشك الانتهاء

قلت في إلحاح طفولي : التمرد انتهى إذن؟

قال في إيجاز: سترى بنفسك.

واصلت السيارة انطلاقها، خفتت الأضواء ، وتراجعت البيوت، تكسر الإسفلت، تحول إلى بقع متفرقة ثم اختفى، لم يبق تحت إطار سيارتنا إلا صخور صغيرة متفرقة تجعلنا لا نكف عن التقافز، غاب كل ضوء

وأصبحنا وسط خلاء شاسع، مظلم وممتد، انبسط ضوء السيارة فرأيت الرمال ولمحت حواف الهضاب المظلمة ترتفع على جانبي الطريق، أصبح الهواء ساخنا، صحت في فزع:

ـ إلى أين تمضي بي ، إنها الصحراء، لا طرق هنا ولا دليل، كف عن اللعب بي وعد فورا.

أوقف السيارة وأطفأ أنوارها فجأة، ساد الصمت والظلام، سمعت صوته وهو يهتف بي:

ـ انزل لو أردت

كان صوته غاضبا وحانقا وشريرا، رأيت بريق عينيه رغم الظلمة، هبط وأغلق باب السيارة ، أسرعت بالهبوط خلفه خوفا من أن يتركني وحدي، تعودت عيناي على الظلمة فاستطعت أن أراه وهو يقف متحفزا، صاح في:

ـ إلى متى سوف تظل مفزوعا من كل شيء هكذا، لماذا لا تخرج من داخلك تلك النفس المرتعدة.

لم أدر بما أجيبه، لم يكن الموقف مناسبا لأي نوع من الإجابة، ظلت نبرات صوته تواصل ارتفاعها حتى رددت صداها الهضاب:

ـ لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ لماذا لا تكف عن إعطاء النصائح للآخرين، لماذا لا تغامر وترتكب أخطاء مثل بقية البشر ، ماذا تنتظر على وجه التحديد؟

ظللت صامتا ، أحسست بطعم الرمل في فمي، كنت لا أزال مباغتا بهذه الثورة المفاجئة، لا أدري عن أي شيْ يتساءل، هل يتحدث إلي ، أم إلى ذلك الخلاء الذي يتملكنا في قبضته؟ واصل الصياح وهو يلوح بإصبعه:

ـ سوف تكف عن الأسئلة من الآن فصاعدا، وسوف تكمل معي المشوار حتى النهاية وإلا تركتك هنا وسط الصحراء.

ركب السيارة، وقبل أن يغلق بابها كنت قد ركبت بجانبه، لم أجرؤ على التنفس بصوت مسموع حتى لا يزيد هذا من هياجه، عادت السيارة للتقافز فوق الرمل والحصى، وبعد رحيل طويل حسبت أنه لن ينتهي، رأيت أضواء واهنة تلوح من على مبعدة، سراب ليلي واهن، ازدادت الأضواء وانكشف وجه الصحراء، بدأت الضجة في الارتفاع التدريجي، كانت هذه أضواء سيارات، ليست عادية، ولكنها شاحنات ضخمة، عربات مصفحة ودبابات ومدافع مقطورة، كتل معدنية ينبعث منها طنين متواصل وجنازيرها الضخمة تطحن الصخر وهي تدور حولنا، بدأت أشباح الجنود في الظهور، صفوف متتابعة منهم يسيرون في مربعات، على رءوسهم الخوذات بينما ترتفع أطراف الأسنة المدببة من فوق أكتافهم، امتلأت الصحراء بنداءات التمام والتجمع، تهادت سيارتنا البالغة الضآلة بينها دون أن يأبه أحد بالنظر إلينا، لم أستطع أن أخفي انفعالي أو أطيع تحذيره لي بعدم إلقاء أي أسئلة، قلت:

ـ ما هذا ، هل يستعدون للحرب؟

أدهشني أنه رد علي في هدوء : حالة الطوارئ انتهت داخل المدينة ولم تنته هنا.

مر بجانبنا رتل من الدبابات، بدا في قمتها رءوس الجنود وهم يتطلعون إلى أفق بعيد مظلم، شجعني أنه تجاوب معي أخيرا:

ـ التمرد مازال قائما إذن ؟

قال في حدة: هل كنت تعتقد أن هذا التمرد الذي قام به بضع من الجنود التافهين من الأمن المركزي هو السبب، هل تتصور أن إعلان حالة الطوارئ والسماح بنزول الجيش إلى المدينة كان من أجل هؤلاء، يكفي أن تقدم لهم وجبة ساخنة كل يوم أو بضعة جنيهات كل شهر، ولو استلزم الأمر يمكن وضعهم جميعا داخل السجن، إعلان الطوارئ\يستحق أمرا أهم من ذلك.

أقول في ضيق: ما هو هذا الأمر المهم؟

اكتشف أنه قد تحدث معي أكثر من ذلك فعاد لغموضه قائلا:

ـ سوف ترى بنفسك؟

دخلنا بالسيارة خلف حاجز من الأسلاك الشائكة، رفع حارس يده ليوقف تقدمنا، تقدم آخر وسلط على وجهينا مصباحا صغيرا، تقدم جنود آخرين ودقوا على مؤخرة السيارة، فتح صاحبي الحقيبة دون أن يتحرك من مكانه، راقبتهم في المرآة الجانبية وهم يرفعون المصابيح لأعلى ويفتشون الحقيبة بكل دقة، أخيرا أشروا لنا بمواصلة المسير، سرنا وسط صف من الخيام وبدا في مؤخرتها برج عال على قمته مصباح متحرك يقوم بمسح المكان في دورات متصلة.

لم أجرؤ على التفوه بحرف، كل ما يحيط بنا كان باعثا على الرهبة، بدأ أرتعد دون أن أستطيع التحكم في جسدي، لم يكن الجنود يكفون عن الحركة حولنا وهم شاهرين الأسلحة، كان من الواضح أن هناك شعورا بالخوف يجتاح الجميع.

كان أمامنا مبنى حجري، جدرانه لامعة من كثرة الرطوبة والطحالب التي تنام عليه، قبو مملوكي قديم، كيف جاء إلى هذا المكان ، وكيف احتفظ برطوبته وسط جفاف الصحراء، تقدم صاحبي فسرت خلفه، انحدرنا إلى جوف المكان، أحاطت بنا أنفاس الرطوبة العطنة، لم يكن ينير القبر الواسع الممتد إلا شعلات متوهجة معلقة على الجدران، بجوار كل واحدة منها يقف الجنود يحملون البنادق لا السيوف، واصلنا الانحدار على درج مستعرضو لابد أنه أعد بحث تهبط عليه الخيول في الزمن الغابر، اختفت الفتحة التي دخلنا منه وأصبحنا أسرى العطن وأدخنة القطران المحترق، لم أعد أستطيع السيطرة على خطواتي، اندفع جسدي من تلقاء نفسه حتى أوشكت على الانكفاء، استندت إلى حاجز كان في مواجهتنا، ردد الصدى صوت أنفاسي مضخما، أدركت أن هذا الحاجز يفصلنا عن هوة مظلمة، قال صاحبي آمرا:

ـ احضروا شعلة.

حمل أحد الجنود واحدة كانت معلقة على الجدار وتقدم من الحافة الحجرية، أشار صديقي إلى أسفل قائلا:

ـ القها .

طوح بها الحارس، هبطت وهي تضئ إلى أسفل كاشفة عن جدران بئر قديم مكسو بالأحجار والطحالب، لا تزال تنز منه قطرات الماء، استقرت في القاع وهي مشتعلة، كشفت عن كل ما فيه، بقايا عظام بيضاء عارية، أوان فخارية محطمة، وشخص مذعور، رأيته بوضوح وهو يحاول الابتعاد عن مسار الشعلة والالتصاق بالجدار كأنه يريد أن يختفي فيه، كان ملوثا بالطين، ممزق الثياب، رفع رأسه ونظر إلينا، تأملنا كما كنا نتأمله.

توهجت الشعلة أكثر فرأيت وجهه النحيف الرقيق، تحيط به لحية خفيفة مهوشة، رأسه عار وشعره الذي يخالطه الشيب منسدل إلى الخلف، رأيت البريق الذي يشع من عينيه، بريق أخاذ ينير كل قسمات وجهه، متى رأيت ملامح هذا الوجه من قبل، أم أنه كان مطبوعا في أعماقي دون أن أدري، ذلك الوجه المسكين المشع المليْ بالدهشة والخوف والوجع والشوق الممض والوله والانتظار والتوق، لماذا يسلط عينيه علي، لماذا يجعل كل لحظاتي الشاردة تتجمع رغما عني، وداعات وآمال ضائعة وأحلام كلها مطفأة، كأن في بريق هاتين العينين شيْ من بقايا الكون، آخر النجوم قبل أن تخبو وآخر الشهب قبل أن تهوي، أضواء تضيع ولكنها لا تتبدد، تبحث عن حدقتين مثل هذه فتسكن فيها، وتتحول إلى بريق دافئ، جارح وأسيان، كأنه قد وضع خلاصة روحه فيها، ظللت أرتعد وأنا عاجز عن التقاط أنفاسي، تثاقلت علي روائح القطران والدخان، تراجعت عن الحافة الصخرية واستندت إلى الجدار المقابل وظل الجنود بنفس وقفتهم الجامدة.

اقترب صاحبي، كان وجهه هو أيضا شاحب يقطر بالعرق، بللت فمي الجاف بلساني وتساءلت:

ـ هل هذا هو السبب في إعلان حالة الطوارئ؟

أومأ برأسه موافقا، قلت في خشية من أن أسمع الجواب:

ـ من هو؟

قال في استغرابك ألم تتعرف عليه بعد ، إنه المنتظر.

ـ أي منتظر؟

ـ اطلق عليه ما شئت من الأسماء، المهدي، الأمام الغائب،المهدي، أي أسم أسطوري أو واقعي ، ولكن من المؤكد أنه هو ، انتهي الأمر الآن ، لن يغادر هذا المكان وهو حي.

المنزل على منحدر النهر

- ١ -

ليل يناير ، عصف الريح مختلط بعواء الذئاب ، ظلمة تجوس فيها أرواح قلقة، في مثل هذه القرية في تلك الليلة الباردة لا شئ يموت ، كل ما طمره التراب يعاود الاستيقاظ من جديد ، طرقات مدوية على الباب تجعلني أستيقظ مغمورا بالعرق والخوف ، منذ ثلاثة أيام قطعت الكهرباء عن البلدة كلها ، غمرها ذلك الظلام القديم الذي تتكاثف ذراته من وقود الروث ودكنة السناج ويقظة المخاوف القديمة داخل النفس، شممت رائحة المطر الذي يعبق الجو ، ورائحة الأمصال التالفة داخل الثلاجة، أدرك أن هذا الطرق الملح يأتي من الأسفل من الباب الخارجي للوحدة الصحية ، كنت وحيدا ، الممرض المناوب الذي تعود أن ينام في الأسفل تركتي ، ادعى أن زوجته مريضة وخاض في الظلام ذاهبا إليها ، تتواصل الطرقات فأنتفض من تحت الغطاء الخشن وأتعثر في الظلام باحثا عن المصباح الغازي، أتمنى ألا تكون حالة هذا القادم المجهول خطرة بحيث تبقيني ساهرا طوال الليل مترقبا الموت، يناير لا يحمل إلا أمثال هذه النذر ، أنجح في إشعال المصباح فيمتلئ المكان فجأة بالأضواء والظلال ، ظلي وأنا ارتدى ملابسي وظل الفئران وهي تسرع بالاختباء ، تعودت على رؤية عيونها البراقة وذيولها الطويلة ، وتعودت أيضا أن أغفو على صوت قرضها ، أحمل المصباح و أهبط على الدرج إلى أسفل ، تتغير الرائحة فأشم رائحة الأمزجة والمطهرات النفاذة ، تيار من الهواء يوشك أن يطفئ المصباح ، لا أدري من اين يهب ؟ تبدأ الطرقات من جديد ، أهتف : من ؟ يأتي من خلف الباب صوت رقيق لامرأة ، تحاول قدر طاقتها أن ترفعه حتى يصل الي : مرضى يا طبيب .

يدوي صوت المزلاج الصدئ وأنا أحاول فتح الباب ، ربما في ظرف آخر لم أكن أجرؤ على ذلك ، ولكن هذا الصوت الأنثوي الطفولي جعلني أشعر بالأمان والفضول ، يدخل رجلان بالغا الضخامة ، يخفيان وجهيهما خلف الملافح الثقيلة ويحمل كل واحد منهما بندقية بدائية ضخمة من ذلك النوع الذي يصنع في البيوت السرية لهذه القرى ، للحظات قصيرة أحسست أنني قد خدعت ولكن شبح الفتاة الذي كان أكثر ضآلة منهما تدخل هي أيضا وتقف في مواجهتي تماما ، أرفع يدي بالمصباح فتمد يدها وترفع الشال القطيفة الأحمر الذي كان يغطي وجهها ، يشدني بريق العينين الواسعتين اللتين ينعكس فيهما ضوء المصباح فينيران الوجه كله ، نضارة منتصف العشرينات ، ملامح دقيقة وبشرة صافية تميل للشحوب ، لا أثر للزينة أو مساحيق التجميل ، أيقونة اكتملت خطوطها في التو، يدي ما تزال مرفوعة بالمصباح ، لا أصدق أن هذه البلدة المعتمة يمكن أن تحتوى على مثل هذا الوجه المضيْ، لا أستطيع الكلام ، هي التي تتكلم :

ـ أبي يريدك .. إنه لا يستطيع الحضور لذلك جازف وأرسلني إليك في هذا الليل .

أحدق فيها حائرا ، في الرجلين المسلحين بجانبها ، لابد وأنه أرسلهما معها لحمايتها وأرسلها هـي لإقنـاعي ، تتكلم بثقة كأنني أعرف أباها وكأنني لا أستطيع الرفض ، أتساءل:

ـ من هو أبوك ؟

بدا كأنها قد فوجئت بالسؤال ، تتلفت حولها إلى الرجلين الواقفين في جمود ، تصارع ترددها للحظات طويلة قبـل أن تقول في سرعة تغالب بها نفسها :طه المتيم

لا يعني لي الاسم شيئا ، لم أسمعه من قبل ، رغم قصر المدة التي عملتها في هذه المنطقة فقد كنت أعـرف كـل من فيها من أسماء مهمة ، وحتى تكوين الاسم نفسه بدا خياليا ومستعارا ، قلت متلكئا : مم يشكو ؟

ردت علي في حزم :هو في انتظارك .

أريد أن أرفض ، أفكر في الظلمة وعثرات أكوام السباخ والبرد والكلاب المسعورة وعواء الذئاب ومخاضـات الطـين والماء الآسن ، ولكنها تتأملني بعينيها المضيئتين في إصرار ، بينما وجهها يحمل تضرعا خفيا تحت الشحوب كأن ماء الحياة سوف يجف منه إذا رفضت ، أنظر الى البندقيتين الضخمتين المحمولتين على كتفـي الـرجلين ، إلى أي مـدى يمكن أن يتطور الأمر ؟ وهل يحملانهما من أجل حماية الفتاه أم من أجل إرهابي ؟ أزفر أنفاسي ، أتساءل :

ـ هل معكم ركوبة ؟

تتنهد في ارتياح : طبعا يا طبيب .

أصعد السلم لأغير ملابسي وأحضر حقيبتي ، أتذكر وأنا أسحب معي ظل وضوء المصباح تلـك الابتسـامة الصـغيرة التي بدت أخيرا على شفتيها ، أتركهم في الظلام كأنني أنتقم منهم جزاء إخراجـي في هـذا الوقـت البـارد ، لم يكـن هناك جدوى من سؤالهم عن موقع البيت أو عن كنه طه المتيم نفسه ، أرتـدي أثقـل معطـف لـدي وأدس في الحقيبـة أدوات وأدوية الحالات الطارئة ، أهبط إليهم من جديد ، قبل ان تستدير خارجة تمنحني ابتسامة صـغيرة أخـرى ، أترك المصباح مضيئا لحين عودتي ، إن كانت لي عودة ، اغلق بـاب الوحـدة في إحكـام وأحـس بـذرات الـبرد وهـي تنغرز في خلايا وجهي ويدي ، أحد الرجلين يساعدها علـى ركـوب أصـغر الحمـارين ، تركـب بحيـث تظـل سـاقاها متدليتين من الجانب الآخر ، لم تكن فلاحة أصيلة ، لا لهجتها ولا بشرتها غير المحروقة ولا طريقة ركوبها للحمار تدل على ذلك، أركب على الحمار الآخر الأكثر ارتفاعا .

القمر المكتمل يفرد ضوءه على الزرع وهامات النخل وأسطح البيـوت ، كـل شـئ ينـبض بحيـاة مضـيئة بـاردة ، الحماران ـ كدأب كل الحمير ـ يعرفان طريقهما جيدا ، يتصلبان في أماكنهما عندما يسمعان عواء الذئاب متناهيا مـن بعيد ، ثم يغذان السير عندما تعود أصوات الجنادب والضفادع ، نعبر جسور الترع وأكوام السبخ ، ندخل أزقة القرية الضيقة تحت سقوف من سعف النخل والقش المبلل ، تلاحقنا كلاب هزيلة بالنباح فيلوح لها الرجلان بالبنادق حتـى تبتعد ، تمتلئ الدروب بروائح البهائم واللبن الرايب والعرق وصابون الغسيل الرخيص، تسـير هـي أمـامي ، تلتفـت نحوي كل حين من الزمن فأرى لمحة من ضوء وجهها ، وأسمـع في الخلـف لهـاث الـرجلين وهمـا يخبـان محـاولين

اللحاق بنا ، تدور بنا الدروب وتتقاطع ، وهي تمضي أمامي لا تترك الفرصة لي لأسالها أى شئ عـن هـذا المـدعو طـه المتيم .

نخرج من الدروب فجأة إلى ساحة "الجرن" الواسعة دون أن نصادف مخلوقا ، أصبحت البلدة خلفنـا ، السـاحة مليئة بأكوام القش والنوارج والبقر الغافي والبشر الملتفين في الأجولة ، أعطس بشدة ، دائما ما يثير القش حساسـيتي ، تتوقف قليلا وتلتفت إلي ، لم يستيقظ أحد ، هل كنت في حاجة إلى شهود ؟ كانت هي تبتسم في رثاء ، تسير فأسير ، تمتد الحقول عارية ، لا أثر للبيوت ، فقط بضعه أعشاش من البوص ، سمعت أصوات الأمواج المتلاطمة في بحـر " يوسف " ، ثم تبدأ صفحته الساطعة في الظهور ، ننحدر إلى أسفل ، مياه النهر دائما ما تكون غاضبة ، تحمل عروق الشجر والحيوانات النفقة والكثير من الغرقى .

البيت الذي كنا نسعى إليه يبدأ في الظهور ، ارتفع ببطء فوق هامات الزرع كلما واصلنا الاقتراب منه ، السور العـالي الذي يحيط به ، أبراج الحمام البيضاء ، الباب العالي الذي يمكن رؤية عوارض الحديد التي تدعمه من بعيد ، كيف لم أر هذا البيت من قبل ؟ كيف لم يحدثني أحد عنه ؟ أتوقف ، كل شئ يبدو علـى الحـد الفاصـل بـين الحلـم واليقظـة ، مـن خلف السور يرتفع نباح الكلاب في غضب مجنون كأنها أحست باقترابنا ، نباح مفزع شرس كأنها قد وضعت كل عضـلات جسدها في حنجرتها ، لا يتشابه مع نباح الكلاب الهزيلة في أزقة القرية ، اجذب مقـود الحمـار وأنـا أرتجـف مـن الـبرد والخوف ، تضاءلت أصوات النهر والرياح والذئاب ، ولا يبقى إلا ذلك النباح المسعور ، كأن البيت كله كان ينـتفض معـه ، يتوقف الرجلان خلفي ، ربما ليمنعاني من الاستدارة والرجوع ، تلتفت الفتاة نحوي متسائلة ، أصيح محتجـا وأنـا أشـير إلى المنزل :ما هذه الكلاب المجنونة؟

تقول :لا تخش شيئا .. كلها مقيدة بإحكام .

ـ لماذا هذا الجنون إذن ؟

تصمت قليلا ثم تعود إلى حزمها القديم : أبي في انتظارك .

أهتف في أعماقي في حانقا : اللعنة عليك وعلى أبيك

تعاود السير متجهة الي السور العالي والباب المدعم بالعوارض الحديدية ، ينخس الـرجلان الحمـار الـذي أركبـه من الخلف ، فينتفض ويندفع منحدرا بي ، الباب الضخم يملأ كل الرؤية أمـامي، يبـدأ في الانفتـاح بـبطء، لابـد وأنهم كانوا يترقبون وصولنا من فتحات خلال السور ، أصبح صوت الكلاب أكثـر ارتفاعـا ، تعـبر هـي البوابـة أنظـر خلفي فأراهما متحفزين بالبنادق ، أعبر أنا أيضا البوابة ، رجل ضخم آخـر يقـف منتظـرا في الفنـاء ، يمسـك ركوبـة الفتاة حتى تستطيع الهبوط من عليها ، تصمت الكلاب فجأة ، كانـت بالغـة الضـخامة متحفـزة في أحـد الأركـان ، كلما تحركت ارتفع صوت صليل السلاسل المعدنية التي تقيدها مختلطا بـالأنين الغريـب المنبعـث منهـا ، بـدا كأنهـا تخلصت من فزعها حين رأت الفتاة فاستبدلت النباح المجنون بهذه الأنات الشـاكية، يتقـدم الرجـل الضـخم ويقـول للفتاة في إيجاز :

ـ مات يا ست سلمى.

تصدر عنها صرخة فزعة، تتلفت حولها كالواقع في الشراك، فكرت .. هل مات طه المتيم ؟ هل لم يعد هناك جدوى من زيارتي غير توقيع شهادة الوفاة ؟ بدت كأنها لا تراني ، لا ترى أحدا ، تصيح: أحضروا المشاعل .

يهرع الرجال الثلاثة إلى داخل المنزل و يتركوننا ـ أنا وهي والكلاب ـ في الفناء، تقف وظهرها في مواجهتي ، لا أرى وجهها ولكن أشهد جسدها الصغير وهو يرتجف تحت ضوء القمر ، توشك على الانهيار ، لا أدري ماذا أفعل ، كانت طفلة صغيرة في حاجة لمن يأخذها في أحضانه ليهدئ من روعها ، لم أكن قادرا على ذلك ، أتقدم فقط خطوة صغيرة وأنا أقول :

ـ أليس الأفضل أن أراه ؟

لا تلتفت ولا ترد ، الرجال الثلاثة يهرعون خارجين من المنزل وهم يحملون المشاعل المتوهجة ، كفت الكلاب الآن حتى عن الحركة وعن الأنين ، على ضوء المشاعل أراهما بوضوح ، لم يكونا من النوع الريفي المتشرد ، كانا مدربين بالتأكيد ، على ضوء المشاعل أيضا رأيت الكلب الثالث وسلمى تنحني عليه ببطء متوجسا ، مستلقيا على الأرض ، قوائمه الأربعة ممددة ، فمه مفتوح ولسانه متدل الي الخارج وعيناه شديدتا اللمعان وجامدتان ، أنفه لامع أيضا وشديد السواد وحول رأسه على الأرض كانت هناك دائرة من السوائل التي انسابت من فمه ، تتحسسه بأطراف أصابعها كأنها تحاول أن تتلمس أي أثر للحياة في جسده ثم تلتفت الي بعيون ممتلئة بالدمع وهي تقول :

ـ لماذا مات .. هل يمكن أن تخبرني.

أقول لها في جفاء : لست طبيبا بيطريا .

كانت ترتعد ، أوشك أن أصرخ فيها محتجا أنها لم تفعل كل هذا بي من أجل كلب لقي مصرعه ، لكنها تشهق ببكاء حقيقي ، اتأملها وأنا أقف ممسكا حقيبتي الطبية في بلاهة ، والفلاحون يرفعون المشاعل عاليا والكلاب كفت حتى عن اللهاث ، تتراجع سلمى وتقف منتصبة وهي تبتلع عبراتها ، تسير أمامي نحو باب المنزل ، أصعد خلفها فوق درج خشبي ، أشم رائحة المنزل قبل أن أدخل ، مخمل عطن وهواء راكد مشبع بالغبار وإفرازات سوس الخشب وتحلل الأطعمة وأنسجة الملابس ، أدخل الى الصالة الداخلية فتحيط بي الجدران بما عليها من صور قديمة مؤطرة وأثاث عتيق كاب ، المصابيح الغازية تضئ القليل وتترك بقية الأركان غارقة في الظلمة ، تبدو كل الصور فوق الجدران باهتة الملامح وكل النوافذ مغلقة في إحكام، بدا واضحا أن الشمس لا تستطيع النفاذ إلى هذا المكان إلا بصعوبة ، تحت قدمي سجادة سميكة كثيفة الوبر متآكلة في أكثر من موضع، سلمى تقف في انتظاري ، على بداية درج خشبي يؤدي الى الطابق العلوي من المنزل ، أصعد خلفها ، مزيد من المصابيح الغازية والصور الباهتة الملامح ، لا نصدر صوتا حتى لا نخدش الصمت الثقيل الرابض في المكان ، تمسح عينيها جيدا وتعدل شعرها وثوبها محاولة التظاهر بعدم حدوث أي شئ ، تقف أمام باب الغرفة الأولى في الممر العلوي ، باب ابيض يقارب طوله السقف ، ينتهي بقوس مغطى بالزجاج يظهر من خلفه الضوء الذي ينير الغرفة، تدق على الباب في رفق وهي تهتف :

ـ أبي أنا سلمى .. عدت ومعي الطبيب .

الح في الأعلى ـ خلف الزجاج ـ ظلا يتحرك ولكن لا أحد يفتح ولا أحد يرد ، تنظر سلمى الي في حرج ، تدير مقبض الباب ولكنه مغلق ، تعود وتهتف في صوت أعلى:

ــ أبي افتح .. يجب أن أتكلم معك..الكلب لم يمت مسموما ، كان حادثا ، الطبيب معي وسوف يؤكد لك ذلك بنفسه ..افتح يا أبي أرجوك ..

تردد كلمة أبي وهي تحاول عبثا أن تحرك المقبض ، ألمح ظله وهو يتحرك جيئة وذهابا كحيوان بري، تستند بظهرها الى الباب فأرى وجهها وقد احتقن مرة أخرى ، لا تستطيع الوقوف على ساقيها فتتهاوى جالسة على الأرض وظهرها مازال مستندا إلى الباب ، أجلس بجانبها وأقول مترفقا :هل تريدين أن نقتحم الغرفة ؟

تهز رأسها رافضة ، يتدافع داخلي شعور بالرثاء لها وبالغيظ من هذا الكائن البرى الغريب داخل الغرفة ، أمد يدي وأجذبها من يدها برفق فتستجيب لي ، مثل طفلة ضائعة أساعدها على النهوض وألف الشال القطيفة على كتفيها وأقودها هابطين الدرج معا ، أهمس إليها : من الأفضل أن نتركه وحده ، أظل ممسكا بيديها ويتلامس جسمانا في بطء ، أجلسها برفق على أحد مقاعد الصالة ، أسمع صرير اللوالب الصدئة داخل المقعد ، أحاول التعود على رائحة الغبار التي تنبعث من كل شئ ، تضم يديها وتضعهما في حجرها وتحني رأسها إلى أسفل ، الريح تصطدم بالنوافذ من الخارج والصور تطل علينا صامتة وباهتة ، تتعود عيناي على الظلمة فأتبين أن للصور ملامح ، عمائم وطرابيش وشوارب ولحى ، عيونا غائرة وأنوفا مفلطحة وشفاها شهوانية مكتنزة ، أقول لها في رفق :

ـ هل أنت بخير .. هل أستطيع الانصراف .

ترفع رأسها وتتأملني كأنها تكتشف وجودي جالسا أمامها ، تهتف متوسلة في حرارة:

ـ أبق أرجوك .. تناول معي قليلا من الشاي.

تفطن أخيرا إلى أنها يجب أن تتصرف بطبيعية في تلك الليلة الغريبة ، أتخيل مشوار عودتي مرة أخري عبر دروب القرية وسط البرد والوحل والذئاب فأومئ برأسي موافقا على اقتراحها، تنهض مسرعة وتخرج من باب في مؤخرة الصالة .

يحيرني هذا الغموض الذي يحيط بكل شئ، أتناول أحد المصابيح الغازية وأتأمل الصور عن قرب، تحت كل صورة قطعة من النحاس المعتم محفور عليها حروف متكسرة، أسماء تواريخ، ولادة وموت ، تنتهي كلها بلقب المتيم ، شيوخ أزهر ، أفندية في الحركة الوطنية ، أرباب علم وقلم كما تقول الحروف الضائعة ، في أخر الصف توجد صورة تحمل تاريخا وحيدا ، ولادة بلا موت، طه المتيم ، رأس ضخم وصدر عريض، نفس العين الجاحظة والشفة الشهوانية واعتداد واضح بالنفس، أين رأيت هذا الوجه من قبل ؟ هل كان أحد الذين مروا علي في العيادة ؟ أم أنني قابلته في مكان ما في زمان ما ؟

ـ هذا أبي .. أنا آسفة لأنك لم تستطع مقابلته .

سلمى تحمل صينية الشاي ، أستدير إليها وأنا ما أزال أحمل المصباح الغازي ، كأنني أرى وجها آخر ، ذهبت الطفلة وجاءت المرأة ، نزعت الشال القطيفة ، ، أسدلت الشعر الكثيف الفاحم ، وأضافت لمسة من الاحمرار

للشفتين والوجنتين ، وكانت هناك أيضا تلك الابتسامة الصغيرة وقد أخذت مسحة من الخجل ، نجلس متقابلين بيننا الصينية الفضية " المطووسة " مزدحمة بالأباريق والفناجين ، تنظر في عيني مباشرة وهي تتساءل:

ـ أظن أنه لا حاجة لي أن أسألك ألا تخبر أحدا عن زيارتك لنا أو عما حدث هنا الليلة .

تقول ذلك في لهجة بين التوسل والتحذير ، أرد عليها :أنا طبيب وأحترم أصول مهنتي جيدا .

تخفض رأسها وتبدأ في صب الشاي ، رغم هذا تجد نفسها ملزمة بنوع من التفسير ، تقول في همس :

ـ أبي يحب هذه الكلاب كثيرا ، منذ أن ماتت أمي وقد وضع كل اهتمامه فيها ، ربما أكثر مني أحيانا

تواصل صب الشاي، تفعل ذلك وهي خفيضة الرأس ، ربما حتى لا أرى وجهها ، تقلب قطع السكر في استغراق وهي تواصل الحديث :

ـ لا تتصور كم كانت هذه الكلاب صغيرة عندما جاء بها أبي من أحد معارفه بالشرطة ، قال لي إنها نفس كلاب الرعي الألماني التي كان يستخدمها هتلر ، لم أتصور أن هذه الجراء الضئيلة يمكن أن تتحول الى حيوانات ضخمة، كان يعصب عينيها، يتركها طوال النهار مقيدة عمياء جائعة تنبح في جنون داخل غرفة ضيقة حتى إذا جاء الليل هبط إليها حاملا الطعام ، يرفع العصائب من فوق عيونها ويقدم لها الطعام بيديه ، كنت أموت رعبا في هذه اللحظات خوفا من أن تنقض عليه الكلاب قبل أن تعرف ماذا يحمل إليها ، ولكنها لم تفعل كانت تشم رائحته وفي كل مرة كانت تعلق قدميه في امتنان .

أقول دون أن أستطيع أن أخفي دهشتي :لماذا كان يفعل كل هذا ؟

ترد علي هي أيضا مندهشة من سؤالي :الولاء .. حتى تكون مخلصة له وتمزق أي غرباء يحاولون الاقتراب منه .

طعم الشاي زنخ ، بالغ القدم هو أيضا ، ترفع عينيها وتبلل شفتيها ببعض قطرات منه ثم تحدق في عيني ، يدور حوارنا كله في همس ، ربما حتى لا يسمعنا الرجل في الغرفة العلوية رغم أن الضوء الذي كان يبدو من خلال الزجاج قد انطفأ فحديث الهمس مازال مستمرا بيننا ، أقول لها :

ـ ألم يكن خائفا عليك ، أعني أنه كان من الممكن ان تهاجمك الكلاب أو تؤذيك .

ـ بعد فترة بدأ يصطحبني معه ، ترك لي الفرصة حتى أقدم لها الطعام بنفسي ، حتى تدين لي أنا أيضا بالولاء ، كان الاقتراب منها مسألة مخيفة وما زالت ، ولكني كنت مستعدة لأن أفعل أي شئ حتى يكون راضيا .

قلت : وهؤلاء الرجال؟

قالت وقد ازدادت ملامح وجهها صلادة :

ـ لا أحد منهم يجرؤ على دخول المنزل أثناء الليل والكلاب طليقة، يمكنها أن تمزقهم جميعا ، لقد قيدت الكلبين الآخرين بنفسي قبل أن آتي إليك .

ـ كيف مات الكلب الثالث إذن ؟

ـ من أجل هذا يحبس أبي نفسه داخل الغرفة، أنا لا أعرف وهو أيضا لا يعرف، لقد حاولت الكذب عليه ولكنه كان يدرك ذلك .

بدأ الضوء في الخفوت دفعة واحدة ، كأن كل المصابيح الغازية على وشك الانطفاء ، هل مازال الصبح بعيدا ، لا أستطيع أن آخذ من الشاي سوى رشفات قليلة ، طعمه الزنخ يقلب معدتي ، قلت :

ـ لم كل هذا ، سور وكلاب وحراس ، من أي شئ تخافون ؟

تنظر الي كأنها لا تفهم مغزى سؤالي ، كأن كل ما قالته كان شيئا بديهيا ، تسألني بدورها :

ـ وماذا عن الوحوش الذين يحيطون بنا ؟

ـ أي وحوش ..الذئاب أم أهل القرية أم أناس آخرون .

ـ الجميع

يتسلل بعض من نور النهار من خلل النافذة فأرى الألق في عينيها ، جميلة وقاسية ، بدأ النهار وبدأت ساعات الجوع ولم تبق إلا العصابة ، أتطلع إلى بقية أجزاء الغرفة ، ستائر من المخمل العتيق المترب ، ثريا نحاسية ضاربة للخضرة ، الصور كلها وقد أخذت الوجوه ملمح وجه واحد ، أنهض قائلا:

ـ جاء الصباح وأظن أنك لم تعودي في حاجة إلى.

تتلفت حولها في حيرة ، تمسك حقيبة يد كانت ملقاة على أحد المقاعد ، تخرج عدة أوراق مالية وتمد يدها بها نحوي وهي خجلى، تحاول أن تقيم بها سورا تحمي نفسها خلفه ، أقول :

ـ لم أفعل شيئا .

ـ جئت معي وسهرت طوال الليل

ـ في المرة القادمة .. إذا كانت هناك مرة قادمة .

أتناول حقيبتي وأتجه الى حيث يوجد النهار في الخارج ، أسمع صوتها متوسلا :

ـ طلب أخير يا طبيب .

ألتفت أليها ، تتقدم خطوة حتى تقف أمامي مباشرة ، أشم رائحة شعرها ، تقول :

ـ ألق نظرة على الكلب ، أعرف أنك لست بيطريا ، ولكن الموت متشابه ، أريد أن أعرف كيف مات .

تسير أمامي فأسير خلفها ، أنفاس الصباح توقظ خلايا جسدي التي استنامت للعطن ، السماء رمادية وصوت النهر خافت ، لا أحد من الرجال ، لابد انهم قد عادوا الى أماكنهم خارج السور ، الكلبان مستكينان دون ان يكفا عن اللهاث ، الكلب الثالث في نفس المكان ، قوائمه متخشبة وبطنه آخذة في الانتفاخ ، فمه مفتوح وأنيابه ناصعة ولسانه متدل الى الخارج ، أزرق اللون ، على الأرض حول رأسه سوائل مخاطية وأطعمة ممضوغة كلها مائلة للخضرة ، لابد وان الكلب قد تقيأها في لحظات الموت الأخيرة ، فوق ذلك كله تحوم دوائر لا تنقطع من الذباب الذي يطن ، أتأمل الجثة محاولا التغلب على اشمئزازي ، التفت إليها ، خلفي تماما ، تكاد تلتصق بي من فرط رعبها ، لا املك إلا أن أقول لها :إنه مسموم .. زرنيخ على ما أعتقد .

لم أستطع أن أخبر أحدا من العاملين معي في الوحدة الصحية رغم أنني كنت أحترق فضولا ، تمنيت أن يحدث شيْ يوضح ما حدث دون حاجة للسؤال، مرت ليال خمس ووجه سلمى يلاحقني ، باكيا ومتوسلا وحازما ، أستيقظ في الليل متخيلا أن هناك من يطرق بابي ، وأن هناك كلابا تنبح في جنون ، هل كان من الممكن سؤال المرضى من أهل البلدة بطريقة عابرة لا تثير الشبهات ؟ في كل صباح يقفون أمامي في صفوف طويلة يحملون في عظامهم الواهنة تاريخا من الوهن المتواصل ، يمددون أصابعهم المعروقة ليتلقفوا حبات الدواء المعدودة دون أمل في الإبراء ، كان السؤال وحده سوف يكشف لكل أهل البلدة سر المكان الذي كنت فيه في ذلك الصباح المبكر ، هل كان من الأجدى أن أنسى الموضوع ؟ لم أستطع النسيان ولم أجرؤ على السؤال إلى أن جاء "حسين ذهني " وربط جواده عند باب الوحدة وترك عساكره متناثرين في الخارج.

لم يكن صديقي بالمعنى المفهوم للكلمة ، ولكن في إطار تلك المساحة الضيقة التي كنا نتحرك فيها كان يجب أن نلتقي ، أنا في الوحدة الصحية المتساقطة الطلاء وهو في مركز الشرطة ذي الطراز الإنجليزي المغطى بالقرميد الأحمر الذي يقع في ملتقى تقاطع قرى المنطقة ، غريبا ومتنافرا ، لا أحد يدري أي ضابط إنجليزي أقام هذا البناء ولا أي خمر جعلته يتغلب على ليل القرى الطويل ؟

يجلس حسين أمامي متعبا ، يلقي بغطاء الرأس ويفك الأزرار النحاسية لمعطفه ، يلتقط أنفاسه في صعوبة فأسارع بإحضار جهاز الضغط ، نقيب في منتصف العمر ، تجاوزته حركة الترقيات وبقى مدفونا وسط هذه البقعة النائية لسبب غير معلوم ، يمضغ بعض أقراص الدواء ، أي نوع من دواء ، يتكلم وهو يزفر أنفاسه في إجهاد :

ـ مازلت أطارد الأشباح .

أتطلع من النافذة الي جنوده المتناثرين حول الوحدة ، يحاولون غسل أطرافهم بمياه "الطلمبة "أو يجوسون في الحقول بحثا عن شئ يؤكل أو يجلسون في إنهاك مستندين الي الجدران ، أستمع إليه وهو يقول في يأس :

ـــ طوال الليل ونحن نسعى خلف لا شئ.لا نتلقى غير البلاغات المضللة والاتجاهات الخاطئة .. ليتني أعرف لماذا يفعلون ذلك ؟

أقول له مندهشا : من تقصد ؟

يقول متنهدا : ومن غيرهم ، الفلاحون ، هؤلاء الذين يحيطون بنا كالطوق الخانق .

بدأت مشكلته عندما قام بعض المتطرفين في ليلة مظلمة ـ قبل أن يفضح القمر كل شئ ـ بنصب فخا لإحدى دوريات الشرطة وقتلوهم جميعا ، ضابط وخمسة جنود ، تركت جثثهم علي الطريق الزراعي عارية من الملابس والأسلحة ، وهكذا بدأت المطاردة العبثية وسط الظلمة وكثافة الزرع وتواطؤ الآخرين ، يتحدث "حسين " الي محاولا أن يخفي الرعب الذي يشعر به في أعماقه، كان متأكدا من أنهم مختبئون في مكان ما داخل منطقته وسط تضاريس الترع والمصارف أو تحت شقوق الطين في أقبية سرية ، لا طريق للوصول إليهم ، لكن المشكلة ليست فيهم رغم إنهم قد سرقوا الأسلحة الحكومية وأصبحوا أكثر قوة ولكن المشكلة الحقيقية في الفلاحين العاديين الذين يخفون آثارهم

ويساعدونهم على الهرب ، يقف بجواري أمام النافذة ، في يده كوب الشاي الذي أعددته له حتى يهدأ ، يتأمل عساكره المجهدين في ريبة :

ـ هؤلاء الناس قد تغيروا كثيرا دون أن ندري، زمان كان يكفي أن يظهر أمامهم ضابط من الحكومة حتى يصيبهم الرعب ويعترفون بكل شئ ، لم يعودوا كذلك ، إنهم يتحصنون بالصمت الآن في مواجهتنا.لذلك فنحن حتى لا نعرف الى أي مدى قد تغيروا .

أقول ساخرا وطعم الشاي يتحول إلي المرارة: تتحدث عنهم كأنهم شعب آخر .

ـ إنهم يعتبروننا كذلك ، مادمنا نحكمهم فنحن غرباء ، لا نستطيع أن نعرف لغتهم السرية ولا أسرارهم الدفينة، حاول أن تسألهم عن أي شئ يعرفون أنه خارج نطاق سلطتك ولن تظفر منهم بأي إجابة، الفراعنة كما هم من آلاف السنين ولكن عبيد الوادي لم يعودوا نفس العبيد .

ـ وهؤلاء الذين يتبعونك .

ـ أنهم يكرهونني ، يرون أنهم مستهدفون من المتطرفين فقط لأنهم يتبعونني .

نظل واقفين متجاورين أمام النافذة نرتشف الشاي البارد ، نتطلع إلى الحقول الممتدة الداكنة الخضرة، فخاخ شاسعة، لا أعرف كيف قفز السؤال على لساني فأقول له : هل تعرف طه المتيم ؟

التف إلي شاردا، من الوهلة الأولى يبدو أن الاسم لا يعني له الكثير ، يتفكر قليلا وهو يحك ذقنه ، يقول :

ـ يخيل إلي أنني أعرفه، ربما قرأت عنه في إحدى الصحف ، هل هو من أهالي هذه البلدة ؟

تضايقني الإجابة لأنني أريدها محددة لا تضطرني إلي ذكر المزيد من التفاصيل ، أحس كأنني أنزلق وأنا أطرح عليه السؤال التالي :هل تعرف شيئا عن ذلك المنزل فوق منحدر بحر يوسف .

غرائزه البوليسية تستنفر :

ـ هل يسكنه نفس الشخص الذي تسألني عنه (لا يتلقى إجابة مني) يبدو أنه يسكنه شخص ما على جانب من الأهمية ، لقد تلقيت توصية بخصوصه من مديرية الأمن ، توصية ليست هامة لا تتعدى أكثر من مرور الدورية أمام المنزل بانتظام أو تقديم الخدمات كلما تطلب الأمر ، توصية عادية، ربما كانت تسكن المنزل شخصية ليست بالأهمية الكافية ، أو لا تريد لفت الأنظار إليها ، أعرف المنزل بطريقة مهنية كما ترى (ينظر إلى بصورة مباشرة) هذا كل ما لدي هل عندك شئ آخر؟

أدير له ظهري وأنا أقول : أعرفه أيضا بطريقة مهنية .

نعاود الحديث عن مطاردة الأشباح ، لا أدري كم ساعة قضينا ولا كم كوب شاي شربنا ، والعساكر مقعيون على الأرض أمامنا حتى بعد أن غربت الشمس وبدأ عصف الريح ، لم يفعلوا أكثر من الانتظار ، يحدقون ناحية نافذتنا بنظرات فارغة وأفواه فاغرة ، يخرج إليهم أخيرا ، أسمع صوته وهو يلعنهم ويتهمهم أنهم سبب بلائه ، يركب جواده ويركض أمامهم بينما يعدون هم خلفه على أقدامهم .

لا أظفر بإجابة ، ولا أستطع التخلص من السؤال ، يبقى دائما على طرف لساني ، من هو ذلك المدعو طه المتيم ؟الفضول في داخلي يتغلب على اللامبالاة التي حاولت التظاهر بها ، أتعمد ألا أذكر الاسم أو صفة البيت ، سألت التمرجى وناظر المدرسة وخفير الدرك وأمين الوحدة الصحية ومأذون الناحية والمرضى العابرين والمزارعين على حد النهر والمولدات العجائز ، أختار اللحظة المناسبة ـ التي تبدو عابرة ـ لأطرح السؤال وأضع على وجهي التعبير ـ اللامبالي ـ المناسب ، ورغم كل ذلك لا أتلقي إجابة شافية ، لا أدري إن كانوا حقا لا يعرفون أم أنهم كانوا حريصين على إبقائي بعيدا خارج نسيج حياتهم السرية ، مرة واحدة ذكرت لى واحدة من النسوة العجائز بطريقة غير مؤكدة انه كانت في البلدة أسرة قديمة تحمل هذا اللقب ولكنهم غادروا ولم يعد أحد من نسلهم الي القرية منذ ذلك الحين .

رغم كل شئ ما أزال أتوقع الطرق على بابي في منتصف الليل ، يحمل لي عصف الريح ترقبا مؤرقا ، أسير في العصر وحيدا دون أن يقوم التمرجى بمرافقتي ، أجلس قليلا لأتناول شايا ثقيلا مغليا في المقهى المجاورة للجسر وأكوام السبخ ، أهش الذباب ، أتبادل بعض العبارات العابرة مع الجالسين، كأني أريد أن أضلل الجميع عن وجهتي الحقيقية ، أحس بهم وهم يراقبون وقع قدمي وهي تتجه رغما عني الي الطريق المؤدي لبحر يوسف ، أعبر الدروب الضيقة الى الجرن المثير للحساسية الى حقول البرسيم الوفيرة الخضرة والأزهار الصغيرة البيضاء ثم أنحدر نحو النهر ، تفور المياه محملة بالطمي وبقايا الأغصان والحيوانات النافقة ، تيار واحد يجمع الموت والحياة ، والمنزل قائم في مكانه ، السور المرتفع بما فيه من فتحات ، الباب الخشبي مدعم العوارض والدوائر الحديدية ، قلعة صغيرة بائسة ، لا أحد يقف أمامها ، لابد وأنهم جميعا في الداخل والكلاب مقيدة معصوبة العينين ، منزل موحش ، يبدو خاليا ، مهجورا منذ زمن بعيد ، كأن أرواح الأسلاف الذين سكنوه ذات يوم هي التي تجسدت لى في تلك الليلة المقمرة ، تهبط الشمس في بحر يوسف ببطء وتنسحب الألوان من حولي ، يحل بدلا منها لون رمادي داكن ، ويغوص الهواء البارد في عظامي، أنهض وأدير ظهري للبيت والنهر .

في السكن تعاف نفسي الطعام البارد ، لا أستطيع التغلب على رجفتي خاصة عندما تبدأ جنادب الليل في الطنين ، أنهض ، ابدأ في إعداد حقيبتي ، من المؤكد أنني في حاجة إلي إجازة طويلة بعض الشئ ، لن أفكر في هذا المنزل ولا في وجه سلمي الناصع الباكي ، أنا في حاجة ماسة لشئ من الدفء والنسيان .

أغرق في أحلام غامضة فيرتفع صوت الطرقات ، طرقات واهنة كأنها تنبعث من داخل حلم ولكنها مسموعة ، نفسي المضطربة لا زالت ترتجف ولكن الطرق يعاودها في إلحاح ، لو أنها سلمى المتيم فهل أريد حقا أن أراها ، وهل كل ما فعلته كان انتظارا لها ، أنهض وأضيء المصباح فتهرب كل الفئران ، أتعثر فوق الدرج ، أقترب من الباب الخارجي وأنا أهتف متوجسا : من ؟ ويأتيني من الخارج صوتها مشبعا بالريح والبرد والشجن والغموض : أنا سلمى المتيم .أفتح الباب فيدخل جسدها الناحل مع دفقة من هواء الليل ، يهتز ضوء المصباح ولكنني أرفعه عاليا حتى تمتلئ عيناها بالضوء مرة أخرى .

تقول لي : ليس معي أحد ، لا توجد سوى " الركوبة " في الخارج .

ترتعد بشدة ، أغلق الباب وأقودها الى غرفة الكشف ، رعدتها تتحول الى صوت ارتجاف مسموع ، حتى أسنانها تصطك ، أقول لها برفق :المكان بارد هنا وأخشى أن تصابى بصدمة يجب أن نصعد إلى أعلى .

تؤمئ برأسها في طاعة أساعدها على النهوض وأنا أسير بها ، أتمنى لو أحملها وأصعد بها سريعا قبل أن تفقد وعيها ، أسندها بيد واحمل المصباح باليد الأخرى ، ندخل من باب الغرفة ، أسمع صوت الفئران وهي تختفي سريعا ، نصل الى الباب وهي تحاول التقاط ما تقدر عليه من أنفاس كأن جسدها على وشك التفكك، أجلسها على أحد المقاعد وألفها بالأغطية ، وأترك المصباح قريبا من وجهها حتى يساهم في تدفئتها ، في الثلاجة بعض من اللبن ، أقوم بتسخينه وأضع عليه المزيد من السكر ، لا تستطيع أن تمسك الكوب بيدها المرتعدة فاجلس قريبا منها وأساعدها على ارتشافه ، مع كل رشفة تخف رعدتها قليلا وتعود حمرة الحياة إلي وجهها ، تمسك الكوب في يدها وأجلس مقابلها وأنا أرقب صوت أنفاسها وقد بدأت تعود الى الانتظام ، تضع الكوب الفارغ وترفع إلي وجهها وهى تقول :

ـ مات الكلب الثاني .

لا أستطيع التغلب على ذهولي : كيف ؟

تقول في بط ء: مات مسموما ، هيئته مثل الكلب الأول تماما .

أقول محاولا أن أهون من الأمر : في مثل هذا الظلام لا يمكن التأكد .

تصمت قليلا وكأنها تحاول التغلب على ألم داخلي ممض ، قلت :

ـ لو كان الحديث يؤلمك فلا حاجة إليه الآن .

ـ ولكني يجب أن أتحدث إليك ، أبي دخل غرفته ولا أعتقد أنه سوف يخرج منها مرة أخرى .

لماذا كل هذا الخوف ؟ لماذا كل هذا الغموض المميت ؟ أخاف أن تتكلم فيزيد انفعالها كانت تجلس أمامي كأنها عائدة من رحلة موت ، تجاهد بأقصى طاقتها بين تعارض رغبتي الكتمان والبوح ، تقول :

ـ إنهم يسعون خلفنا ، ثأر قديم ، يريدون قتل أبي وربما قتلي أيضا ، لا أحد يعلم ، ولكنهم لا يكفون عن السعي أبدا .

أجد نفسي متورطا في السؤال :

ـ من هم ؟ ولماذا لا تبلغون الشرطة حتى تقوم بحمايتكم ، أنا أعرف ضابط المنطقة ويمكنني التحدث إليه .

تهز رأسها بالنفي : لن يوافق أبي على ذلك ، أنه متأكد من أن الشرطة لن تقدر على حمايته بل أن الذين يطاردوننا يمكنهم التسلل إليه بواسطة الشرطة .

أقول لها : ولكنهم قد تسللوا إليكم بالفعل وقتلوا كلبين من الحراسة حتى الآن .

تبدأ في الارتعاد مرة أخري :

ـ وهل تعتقد أننا في مرحلة سابقة لم نجرب الشرطة ، لقد فعلنا ذلك بالتأكيد ، كان الأمر أكثر رعبا ، بعدها لم يعد أبي يثق إلا في الكلاب وفي الابتعاد عن الجميع .

ـ هل أنتم من أهل البلدة ؟

ـ إنها بلدة جدي ، هجر هذا المنزل منذ زمن وجئنا نحن للاستقرار هنا منذ عامين . لقد تركت الدراسة في كلية الحقوق وأنا في السنة النهائية لأن أبي كان خائفا علي .

ـ وماذا كان يعمل أباك قبل أن تأتيا إلى هنا ؟

ـ أرجوك لا تسألني المزيد ، لا أدري كيف قلت لك كل هذا ولكني كنت فعلا متعبة . نحن لا نختلط بأهل البلدة ، اعتقد أنهم لا يعلمون بوجودنا بصورة محددة ، أنت الوحيد الذي دخل بيتنا وحتى هؤلاء الحراس الثلاثة هم قرية بعيدة يعرفهم أبي ويعرف أهاليهم معرفة جيدة .

ـ لن أستطيع مساعدتك دون أن أعرف من هؤلاء الذين يطاردونكم.

تنظر الي عيني مباشرة فأرى كم هما واسعتان وخائفتان ، تهمس :هل تريد مني الانصراف .

تواصل النظر إلي كأنها تريد أن تطبع صورتها في أعماقي ، لا أدري ماذا أقول ، كل كلمة أقولها سوف تورطني أكثر ، ، تنتظر قليلا لتستشف الإجابة من خلال صمتي ، يكتسب صوتها نبرات حارة وهي تواصل الحديث:

ـ ورغم ذلك يمكنك أن تساعدني ، بالله عليك يمكنك ذلك بالفعل ، خذني من هذا المكان ، خذني من هنا .

أحدق فيها مبهوتا ، تمد يدها وتدخل أصابعها خلال أصابعي ، دقيقة ومرتعدة ، تواصل القول بنفس النبرات الحارة المتدفقة كأنها قد رفعت فجأة كل ما يمكن أن يفصلنا من حواجز لا مرئية :

ـ أعرف أنني أعجبك ، رأيت ذلك في عينيك منذ الليلة الأولى ، واليوم رأيتك وأنت جالس على المنحدر أمام المنزل ، عرفت أنه أنت رغم أنك كنت تجلس بعيدا ، ظللت أراقبك من فوق المنزل حتى غربت الشمس علينا معا . خذني ، أنا لك إن أردت ذلك .

أنزع أصابعي من أصابعها ولكني أظل ممسكا بيدها ، أربت عليها وأنا أقول : هذا مستحيل .

ترفع يدها بسرعة وتفتح ثوبها من أعلى، يبدو صدرها فجأة ساطعا أمام عيني ، نهدان نافران للأمام ، متصلبان من الخوف والرغبة ، تتصلب عيناي على قمتيه الورديتين فتهتف بي مستحثة :

ـ آلا يعجبك ، آلا تريد أن تلمسه .

جسمي أنا أيضا آخذ في الارتجاف ، أمد أصابعي، المس صفحة صدرها في تردد ، تغمض عينيها وترتعش شفتاها ، امسك بأطراف الثوب ، أعيده الي مكانه ، ينطفئ الضوء المنبعث من جسدها ، تفتح عينيها وتنظر الي في دهشة ، أقول لها : لا يتم الأمر هكذا ، أنت مفزوعة أكثر مما ينبغي .

تخفض وجهها في خجل طاغ ، أسمعها تتمتم وهي على وشك البكاء :

ـ ياإلهي ، ماذا علي أن أفعل .

أعدل من حواف ثوبها ، المس وجنتيها في خفة ، أحاول أن أوصل إليها مودتي الحميمة من خلال لمسات أصابعي ، لم يكن هذا وقت الحب ولا وقت الرغبة ، يكفي فقط أن ندفع الخوف قليلا ، أقول لها :

ـ تحدثي إلى أبيك ، تحدثي الى طه المتيم أيا كان يعمل أو من أي كائن يخشى ، أو حتى دعيني أنا أتحدث إليه ، لقد فشل في حمايتك وحماية نفسه وعليه أن يطلب العون من الآخرين .

ـ لم يعد يثق في أحد .

ـ عليه أن يفعل ، يجب الاستعانة بالشرطة أو الذهاب للسكنى في مكان آخر .

تصمت قليلا ، تنتظم أنفاسها وتعود عيناها للتألق مرة أخرى :

ـ ليته يصغي الي ، سأتحدث إليه في الصباح .

تعطيني أخيرا ابتسامتها الصغيرة ، أمسك يدها وقد دب فيها الدفء وأساعدها على النهوض :

ـ سوف أقوم بتوصيلك .

تخفف الريح من عصفها قليلا ، أساعدها على الاستواء فوق "الركوبة " ونبدأ في السير ، تآكلت أطراف القمر ولكنه مازال مفعما بالضوء ، لا ننطق بكلمة واحدة ، نعطي أنفسنا لليل مفعم بالأصوات الطليقة ، خليط من أصوات الجنادب والضفادع وحتى الذئاب تعوي في حنو على مبعدة ، أطراف القش تتألق فوق البيوت ونحن نجتاز الدروب الضيقة، تمد يدها وتلمس كتفي كأنها تريد التأكد من وجودي ، آخذ الكف الصغيرة في يدي ، يسري بيننا دفء من التواصل ، نخوض في القش ناعما ، ناعما ، لا أشعر بأي حساسية في صدري ، يبتسم الفلاحون في نومهم وهم يجذبون أطراف الأجولة، تفتح الأبقار عيونها في وسن ، لم نكن إلا حلما عابرا ، يعلو الطريق وينخفض بنا ومازالت أيدينا متماسكة ، وسلمى صامتة هادئة ، تعلو وجهها تلك المسحة الرقيقة من الرضا التي تعلو وجه الأنثى حين تشعر أن هناك رجلا يرغب فيها .

يبدو القمر شديد الاقتراب من النهر ، ويبدو النهر شديد الدعة ، ويهب علينا هواء دافئ لا ندري من أين يهب ، ثم يبدأ البيت في الارتفاع من أسفل المنحدر ، نتوقف عن السير لنلتقط أنفاسنا ، غير مصدقين أن الرحلة قد انتهت سريعا هكذا ، تميل علي وتمس وجهي بشفتيها، آخذها بين ذراعي وأنزلها من فوق الحمار ، يتشابك جسدانا ، شفتاها الباردتان الرفيعتان تتحولان إلي الدفء والامتلاء، تستكينان بين شفتي ، أعاود تقبيلها ، اسمع صوت الريح مختلطا بأنفاسها المتلاحقة وهي تتعلق برقبتي وتبحث عن منفذ تدخل منه إلى جسدي وتختبئ بداخله ، تضمنا معا لحظة من الأمان النادر تحت القمر وأمام النهر .

يصعد الرجلان حاملين بنادقيتهما البدائيتين من أسفل المنحدر ، يتوقفان قليلا حتى تنتهي لحظات العناق ، تبعد سلمى جسدها عني بصعوبة وتقول لاهثة :انتظرني غدا ليلا .

يتقدم أحدهما ويأخذ مقود الحمار ويدعها الثاني تتقدم أمامه ثم يبدأ الجميع في الانحدار ، أظل واقفا أراقب ظلالهم المبتعدة ، والباب الضخم يفتح ويحتويهم جميعا وصوت الكلب الوحيد يرتفع في عواء متواصل.

ـ ٣ـ

عند الفجر يهبط المطر بغزارة ، ويأتي الصباح رماديا مشبعا بالرذاذ ، أهبط من السكن فلا أجد إلا " التمرجية " العجوز التي تتولى تنظيف المكان ، أخبرها إنني ذاهب إلي " المركز " لأمر هام وأنه لا عيادة اليوم ، أخوض في الطريق الموحل حتى رأس الجسر عند مدخل البلدة ، يقف بعض أهالي البلدة ، أتبادل معهم تحية سريعة لعلي أتخلص من نظراتهم المرتابة ، نقف جميعا في صمت ، يرتفع صوت سيارة الأجرة وهي توشك أن تنزلق على الوحل،

ننحشر فيها جميعا ، لا يهم عدد المنتظرين ، السيارة يجب أن تسع الجميع فلا أحد يدري إن كان ثمة سيارة أخرى أم لا ، نعدل الأذرع والأيدي ، يميل البعض الي الوراء ويبقى البعض متقوسا الي الأمام ويجلس آخر الركاب على حجور الذين سبقوهم، وتمضي السيارة خائضة في الوحل ، على وشك الانزلاق في أي ترعة أو مصرف ، أختنق من رائحة العرق والزحام رغم أن نوافذ السيارة بلا زجاج ، نعبر الحقول ونلتقط ركابا آخرين من الدساكر الأصغر ونملأ مبرد السيارة من ماء الترعة العكر ونمرق من تحت فروع أشجار الصفصاف والجازورينا المتهدلة حتى نصل أخيرا إلى طريق الإسفلت الذي يقودنا إلى المدينة .

تظهر الشمس قليلا وتبدو وحول المدينة أقل كثافة ، أسأل أكثر من واحد عن طريق المكتبة العامة ، لم تكن هناك سوى مكتبة قديمة تابعة للبلدية لا يتخيل أحد أنها مازالت تفتح أبوابها ، أعثر عليها أخيرا مفتوحة الأبواب ، الموظف الوحيد الذي يعمل بها جالس في الخارج بحثا عن دفء الشمس ، ينظر إلى في دهشة وأنا أقف أمامه :

ـ هل لديك نسخ من الصحف التي صدرت في العامين الماضيين .

لدهشتي الشديدة يومئ برأسه ، يضع أمامي بعض المجلدات الضخمة المتربة ، يحضر لي كوبا من الشاي فأجد المبرر لأعطيه مبلغا من المال ، لا ينسى أن يقول لي إن هذا آخر ما فعله موظف كان يهوى جمع مثل هذه الأشياء قبل أن يطلب نقله .

أبدأ في تقليب أولى الصفحات ، لا أعرف عما أبحث بالضبط ، حادثة عابرة ، إشارة غامضة ، لمحة ضوء ، تتراكم الكلمات فوق الصفحات المصفرة ، تبدو الصور أيضا باهتة الملامح ، لا يوجد أثر لشخص خائف ، كل من في الصور مختالون ينظرون الى الكاميرا في وقاحة ، يرددون نفس التصريحات والوعود المؤجلة ، أتابع الإعلانات ، الشيء الوحيد الملون وسط سواد الحبر ، أتابع الأخبار والصور في دهشة بالغة ، كأنها تتحدث عن أناس آخرين ، الغرباء الذين يحكمون ، ربما كانت صفحات الحوادث هي مكان الخائفين ، أدقق البحث في سطورها ، قتل وسرقة واغتصاب ، ثم يبدأ الأمر في التغيير ، مجرمون من نوع آخر يجدون لهم مكانا في مقدمة الصور ، يفرض المتطرفون سيطرتهم على صفحات الحوادث ، هجوم على مراكز الشرطة ، اغتيال الشخصيات الكبرى ، الترصد لحافلات السياحة ، يتصاعد المد عاليا ، ولكن المسئولين لا يتغيرون ، تصريحات متوالية أن كل شيء تحت السيطرة ، وأن كل حادثة هي بالتأكيد الأخيرة ، صور المحاكمات المتوالية تنتقل من الصفحات الداخلية إلى الأولى ، صفحات تطوى ، أيام تمر ، شهور تنقضي ، ثم يبرز الوجه أمامي فجأة ، العين الغائرة والأنف الضخم والشفة الشهوانية ، طه المتيم جالس على منصة القضاء ، ها قد عثرت عليك أخيرا ، قاضى التحقيق الرئيسي في قضية العام كما تطلق عليها الصحف ، عشرة من المتطرفين يهاجمون ثلاث حافلات محملة بالسياح وهي قادمة من "سيناء " ويفتحون عليها النيران ، يهرعون بالفرار تاركين خلفهم أكثر من عشرين قتيلا وجريحا ، أقلب الصفحات لاهثا ، أيام من التخبط والحيرة تمر قبل ان تعلن السلطات أنه قد تم القبض عليهم جميعا ، هكذا في ضربة واحدة ، تفاصيل وإجراءات وتحقيقات تتم بسرعة ليوضعوا في النهاية أمام طه المتيم ، الصورة تعود مرت أخرى وهو يرتدي الوشاح ، شامخ الصدر، أتناول مجلدا آخر يحتوي على صحف المعارضة لنفس الفترة ، محامو الدفاع يشككون في إجراءات القبض

علي المتهمين وفي صحة الأدلة ، صحيفة تؤكد أن المقبوض عليهم ليسوا هم الجناة ولكن قبض عليهم فقط لامتصاص النقمة وإسكات الانتقادات ، صحيفة أخرى تنشر بيانا من المتطرفين يشكك في طه المتيم نفسه ، ، أحد المحامين يؤكد أن هذا القاضي اختارته الداخلية ولم تختره أجهزة العدالة ، الحكم محدد سلفا فهذا القاضي مشهور بمقاطعة المرافعات وعدم الأخذ بأدلة النفي مهما كانت منطقية ، أعود الى صحف الحكومة ، أجد صورته مرة أخرى ، نفس الصورة المعلقة على جدران بيته ، يرد على كل الاتهامات "الرخيصة "، إنه لا يخاف التهديد ولا يأتمر بسلطة ، ان ضميره يأبى أن يطيع سوى القانون ، أقلب الصفحات لاهثا ، تأجيل ، دفوع ، إعادة نظر ، اختفاء الأخبار لمدة طويلة ، صفحات صفراء لا تملأها سوى الإعلانات والأتربة ، الحكم يصدر في خبر موجز ، إعدام لسبعة من المتهمين وأشغال مؤبدة لثلاثة ، صحف المعارضة تنشر تفاصيل أكثر ، تهديدات بالثأر ، وفتوى بإهدار دم القاضي ، هجوم على سياح جدد ومراكز أخرى للشرطة ومحاولة لاغتيال وزير الداخلية نفسه ومحاكمات جديدة ولكن لا شيء عن طه المتيم .

أغلق المجلدات وقد ملأ الغبار حلقي ، أبدا في السير مذهولا ، لا أنتبه الى أمين المكتبة وهو يسعى خلفي ، أخوض في وحل المدينة وسط الزحام ، بشر وحيوانات وسيارات ، شمس الظهيرة تجعل الجو أكثر دفئا ولكني أرتجف ، لا أدري ماذا أفعل ولماذا سعيت لأن أكون طرفا في هذا الأمر ، هل كان علي أن أخذها بعيدا عن هذا العجوز وكلابه المسمومة ؟ أين كانت لحظة العقل وسط كل هذا الجنون ؟

أسعى الي موقف السيارات ، لا توجد سيارة متأهبة للرحيل ، كلها لا ترحل الإ مع خروج الموظفين الذين يسكنون القرى ، أخوض مساومة لا مجدية مع السائقين ثم أقبل بالثمن الذي يحددونه ، تبدأ السيارة رحلتها عائدة بي وحدي ، يحاول السائق أن يتجاذب معي أطراف الحديث ويعرض علي التدخين ولكني عاجز تماما عن التجاوب معه ، ينتهي الإسفلت سريعا وندخل في تلافيف النخيل والبيوت الطينية والترع ، يؤكد لي السائق أنه قد خسر بقبول الثمن الذي اتفقنا عليه ، أخشى أن تتعطل السيارة ، أوجهه بحذر الي الطريق المؤدي الى قسم الشرطة ، يقسم لي أنه لا يستطيع الاقتراب منه وإلا سلبه العسكر رزق يومه ، اضطررت للنزول علي مبعدة ويتركني السائق وينصرف سريعا .

أخوض وحيدا في الوحل ، يظهر أمامي السقف المغطى بالقرميد الأحمر أخيرا ، متنافرا كعهده تحت سعف النخل ، العساكر متناثرون حول المبني ، جالسون على الأرض في إجهاد ، ثيابهم وأحذيتهم ملطخة بالوحل ، ينظرون نحوي بعيون مثقلة بالنعاس ، لا يحاول أحد منهم النهوض ، في الساحة المقابلة ينام الجواد ، مستلق على الأرض وسط الطين ، غير قادر على هش الذباب ، يطقطق خشب السلم تحت قدمي ، يوشك على التداعي، أدخل الى الغرفة فأجد "حسين" واقفا في منتصفها تماما ، عار أيضا حتى منتصفه بثيابه الداخلية البنية اللون، يقول لي بلسان ملتو:

ـ ماذا بك ، هل مازال يشغلك المنزل على منحدر النهر ؟

أتطلع إليه ، إلي زجاجة " عرق البلح " الرخيصة الموجودة على مكتبه والتي توشك على الانتهاء ، يبدو من خلال عينيه المحمرتين أن ليلته قد اتصلت بهذا النهار ، أقول له :إنهم هنا

يلوح بذراعه في يأس :

ـ أعرف أنهم هنا ، أشباحهم في كل مكان حتى في مكتبي وتحت سريري .

أصيح في عصبية :

ـ إنهم ليسوا أشباحا ، لقد جاءوا خلف طه المتيم ، القاضي الذي حكم على سبعة منهم بالإعدام ، لقد عرفوا المكان الذي يختبئ فيه ، هناك عند منحدر النهر .

يحدق في ببلاهة ، يعيد تجميع الكلمات في ذهنه المتعب ، يمسك الزجاجة بيد مرتعشة ويتناول آخر جرعة منها ، أوشك أن أختنق من رائحة أنفاسه الكريهة وهو يقترب مني ويمسك بثيابي :

ـ لماذا لم يخبروني ؟

أقول في دهشة : من ؟ المتطرفون ؟

ـ هؤلاء الأوغاد في مديرية الأمن لماذا لم يخبروني أن هناك صيدا هاربا ومختبئا كان يمكن أن أستخدمه كطعم

ـ أنه ليس طعما ، أنه إنسان على وشك الموت إذا لم تتدخل لإنقاذه .

ـ ومن قال إنهم لا يريدون إنقاذه ، ومن قال أنهم يثقون في أصلا ، أو يثقون في أحد . العبيد قد تغيروا ولكن الفراعنة لا يتغيرون .

يتركني هائجا، يحمل سلاحه ويخرج إلي عساكره المستلقين على الأرض، يركلهم في بطونهم وهو يصرخ:

ـ استيقظوا عليكم اللعنة ، إنهم هنا، استيقظوا يا كلاب

يواصل الصراخ والسباب في جنون ، لا أحد ينهض ، لا أحد يأبه به ، كل شيْ عبث ، كل شيْ ينهار ، يطقطق الدرج الخشبي تحت قدمي، يتناثر الطين ، ينحني الزرع تحت وطأة الريح ، تغز الأشواك راحتي وأنا أزيحها محاولا أن أتلمس طريقا لنفسي ، أوشك أن أنزلق في الترع الملتوية وسط الزرع كالثعابين ، ينظر الي الفلاحون في استغراب وأنا أمر بهم دون أن ألقي السلام ، أعبر الحقول والنخيل وأكوام السباخ ، يبدو بحر يوسف ، جميلا وخادعا ، كلما انحدرت بدت موجاته كالرصاص المنصهر، رهيب بالليل وغامض بالنهار ، في وسطه صياد وحيد يسير بقاربه عكس التيار ، لا يفعل شيئا غير أن يواصل التجديف ويقاوم الموج .

ثم يبدو البيت هادئا ، مستكينا ، مستسلما ، تحوم فوقه طيور النهر البيضاء ، أواصل الانحدار حتى أقف أمام الباب الخشبي الضخم ، مصنوع من جذوع الشجر الخام ، يحمل أشكال تجاعيدها وتنبعث منه رائحتها ، تتقاطع عليه العوارض الحديدية والرؤوس المعدنية، أدق عليه بقبضتي ، كل شيْ صامت عدا النهر ، أدق مرة أخري فلا ينبح حتى الكلب، قبل أن أواصل الدق مرة أخرى يبدأ الباب في الانفراج ، يظهر أحد الرجال وعلى كتفه بندقيته البدائية ، يحدق في قليلا ثم يفسح لي منفذا للدخول دون كلمة ، كأنه يتوقع قدومي ، يغلق الباب خلفي في إحكام ، أتطلع الى الحديقة المحيطة بالمنزل ، لا يوجد فيها إلا بقايا أشجار ضامرة ، وفي الوسط توجد جثة الكلب الثالث

مسجاة على الأرض ، لم تتخشب بعد ولم تتصاعد رائحتها ، مازال موته طازجا ، عيناه جاحظتان ولسانه متدل ودوائر الذباب لا تكف عن الطنين ، الرجلان الآخران واقفان عند باب المنزل ، يحملان البندقيتين العاجزتين المثيرتين للسخرية ، أدخل المنزل دون أن يتبعني أيا منهما ، الصالون المعتم ، المخمل العطن ، الصور الباهتة الملامح ولا أحد ، أوشك أن أرفع صوتي مناديا سلمى ولكن الصمت المطبق يجعلني عاجزا عن ذلك ، أصعد فوق الدرج المؤدي الى أعلى ، اقف أمام غرفة طه المتيم ، اسمع صوت حركته وأنفاسه المتلاحقة ، هل يمكن أن أطرق عليه الباب ؟ هل يجرؤ على فتحه مرة أخرى خاصة بعد أن ماتت آخر الأصوات التي كانت تنبح من اجل حمايته ؟ هل يجرؤ على مواجهة هذا الصمت الموحش ؟ ولكن أين سلمى المتيم ؟ هل دخلت هي أيضا إلى إحدى الغرف وأغلقت عليها بابها ، بجواره هناك غرفة أخرى مفتوحة الأبواب ، أدخل إليها ، واسعة ، بها نافذة كبيرة مغلقة ، ينفذ منها ضوء خافت ، لا شك وأنها تطل على النهر ، أسمع من خلالها وشيشه وأشم رائحته ، الجدران عارية ، بيضاء صافية بلا شوائب ، لا تنتمي لبقية جدران المنزل العتيقة ، مرآة صغيرة ومنضدة عليها بعض أدوات التجميل والعطور وكوب ماء فيه زهرة متساقطة الأوراق ، وفي منتصف الغرفة تماما يوجد السرير ، سرير حديدي قديم له أربعة أعمدة ، تلتف حول قمتها ستائر من الدانتيلا البيضاء مرسوم عليها أطفال لهم أجنحة صغيرة يطيرون في فضاء من نسيج الخيوط ، في الأسفل على الفراش هناك مفرش آخر أبيض اللون أطرافه أيضا من الدانتيلا ، فوقه تنام سلمى، ساكنة كلحظة فجر ، أقترب منها ببطء واجف، الثوب يكشف عن عنقها النحيف وعظمتي كتفيها البارزتين ، شعرها منسدل على الوسادة، مازال مجعدا من آثار الجدائل ، بشرتها صافية ، فيها شئ من زرقة السماء البعيدة ، ويدها مضمومة فوق صدرها ، أمسك بأصابعها الباردة ، أتحسس أوردة العنق ، تسري البرودة من جسمها إلى جسمي ، أفكر في أن أعاتبها قليلا لأنها لم تقل لي كل شئ فى اللحظة المناسبة ، أن أقول لها شيئا يؤنسها في رحلتها إلى البر الغربي من النهر، لكن الإحساس بالقهر يقهرني فلا أتفوه بحرف، أنظر الى شفتيها المنفرجتين قليلا ، ليتني قبلتهما طويلا ، أنظر الى رموش العينين المغمضتين، تبدد الضوء ، أنهض واقفا ، أسير خارجا لعل هواء النهر يلفحني فتتأتى لي القدرة على البكاء ، أتوقف أمام باب طه المتيم ، أسمع أنفاسه وحركته الحيوانية ، أطرق على بابه بكلتا قبضتي ، أصرخ فيه ولكنه لا يستجيب ، لا شئ يستجيب .

الكويت ١٩٩٧/١٢/١٤

غابة بلقيس

تقول في صوت حازم : لا تدع أي أوهام تراودك ، لن تعمل خارج القفص وإنما في داخله .

لا أفهم ماذا تعني ، ولا لماذا تكلمني بهذه الحدة ، تزداد رجفتي ، كأن برودة الغرفة ليست كافية ، صوتها ليس فقط هو الحاد ، ولكن كل ما فيها حاد ، أنفها المدببة المرفوعة ، رموشها التي تستدير إلى أعلى في أقواس صغيرة ، تحتهما عينان واسعتان مدببتا الأطراف ، وحتى شفتيها الرفيعتين وهما تستديران حول أي كلمة تخرج من بينهما ، فتحيطهما بنوع من الصدى الخافت ، أقف مرتجفا في وسط الغرفة وهي تحيط بي مثل شرك مباغت في ليلة ضبابية .

أدير رأسي بعيدا عن أسر عينيها ، لا أريدها أن تتمعن في إرتجافتي طويلا، ألمح لافتة خشبية موجودة على حافة المكتب ، محفور عليه اسمها " بلقيس سليمان " ، لمسة أخرى من السخرية المريرة، أدير رأسي فأرى حارس الأقفاص العجوز " جمعة " وهو واقف في أحد الأركان ، هل كان يرتجف هو الآخر ؟ تصمت السيدة حين تلاحظ إنني قد أدرت رأسي ، تتكلم فقط وهي تنظر إلى من خلال عيني ، تريد لكلماتها أن تنفذ مباشرة إلى داخلي ، تقول :كم شهر مضت وأنت عاطل عن العمل .

أقول في تردد: سيدتي لا أهمية لذلك الآن .

تهتف : كم ؟

أقول : ستة أشهر ،

تسير في خطوات سريعة ، تفتح ضلفة خشبية في الجدار وتخرج منها كومة من الفراء وتلقيها أمامي وهي تقول :لن ترفض هذا العمل إذن

للفراء لون ترابي مائل للصفرة ، يفوح منه عفن وغبار وبقية من حياة ميتة ، أقلب فيه مدهوشا دون أن أتعرف على هويته ، شعر قصير مدبب، عينان من مادة داكنة تومضان في وهن ، ومخالب من معدن صدئ، وذيل من اللباد ، من المؤكد أن أحدا لم يشغل هذه الوظيفة منذ مدة طويلة ، أتحسس الجسد ، يسري في أصابعي بعضا من الموت الكامن في ثناياه ، أحدق في وجه حارس الأقفاص الصامت ، كان هو أيضا يرتجف ، يشعر برائحة الموت التي تجول في الغرفة، يظل وجهها جامدا وممتعضا ، قلت :

ـ أي حيوان هذا ؟

لا تجيب على سؤالي ، تقول: هذه الوظيفة ستوفر لك راتبا وطعاما ومأوى ، عليك أن تقبلها أو تغادر الحديقة على الفور ، لا وقت لدي اقضيه مع العاطلين عن العمل .

أود أن أعطيها ظهري وأن أتراجع ، ولكني كنت منهكا من شوارع المدينة الباردة التي جبتها عشرات المرات ، حفظت روائح الأرصفة في الأحياء المختلفة ، وطيف الأضواء في النوافذ ، وتشكيلات السحب في الليل، ونازعت الكلاب الضالة نفس الطعام ، وعانيت من الارتجاف من وقع أقدام رجال الشرطة، ومن الجوع إلى جسد امرأة، ومن التماس مكان لا تفوح منه رائحة العفونة ، أعيش يوما بعد آخر على هامش عالم غريب، الكلمات التي أقولها فيه فقط هي كلمات الاستجداء ، المصادفة التعسة هي فقط التي قادتني هذا المساء إلى تلك الحديقة ، وإلى مكتب هذه المرأة ، أنحني إلى الأرض ، أتناول الفراء وأضم رائحته العفنة إلى صدري كأنني أحتمي به ، تستدير وتعطيني ظهرها كأنها قد ملت من رؤيتي ، تقول للحارس :

ـ خذه للقفص ودربه على الحركات المناسبة .

لا تستدير ولو لتلقي نظرة أخيرة علي وأنا أغادر الغرفة ، هل يمكن أن تتأتى لي لحظة أمسك فيها هذا الجسد الحاد الفارع وأضاجعه حتى تتكسر كل عظمة فيه ، أسير متعثرا خلف الحارس وأنا أحمل الفراء، أتنفس الهواء البارد، أسمع خوار الحيوانات النائمة ، أحس بأنفاسها الحارة وأنا أمر بجوار الأقفاص، يمضي الحارس صامتا وكئيبا كأنه يقودني إلى قبري ، يفتح الباب فتئن كل المفاصل الصدئة ، يقول الحارس أخيرا :

ـ هاهو قفصك ، البس الفراء الآن وسوف يجعلك تشعر ببعض من الدفْ ، وعندما يقبل الصباح سوف تكون قد تعودت عليه .

اقرأ بصعوبة على باب القفص لا فتة مكتوبة بخط رديْ " أسد استوائي ، موطنه غابات أفريقيا " ، أنظر في دهشة إلى الحارس ، لا أرى ملامح وجهه بوضوح وسط الظلام ، لا أعرف إن كان يرثي لي أم يسخر مني ، من المؤكد إنه يعلم ـ من واقع خبرته ـ انه ما أن يأتي الصباح حتى أصبح سخرية الجميع ، أدخل إلى القفص، واشم عفونة الحيوان الذي سبقني ، ينغلق الباب علي فتسري رعدة في مفاصلي ، كل شيْ بارد حولي ، وانصراف الحارس السريع يزيد من درجة البرودة والجوع في داخلي ، لم يكن هناك حل لهذه التعاسة إلا أن أتشبث بهذا الفراء ، أدخل نفسي فيه ، الحيوان الذي تم سلخه أكبر حجما مني ، أتأمل مخالبي المستعارة وأنيابي الحادة وفرائي الزائف ، ثم أتحسس بطني المتخشبة من طول الجوع ، إلى أي مدى قادني هذا الجوع ؟ أتكوم في ركن من القفص ، أرى نافذتها المضيئة في مواجهتي ، وظلها وهو يتحرك خلفها ، هي أيضا كانت أشبه بنا، بكل الحيوانات الحبيسة داخل أقفاص الحديقة ، لها فرائها الخاص التي ترتديه بعد أن يمضي الجميع ، أظل أحدق في النافذة ، يربط ما بيننا ذلك الظل القلق .

أستيقظ وأنا أحس بشيْ صلب يوخزني في صدري ، حارس الأقفاص يقف خارج القضبان وهو يوجه نحوي عصا طويلة ، بدأ يعاملني مثلما يعامل بقية الحيوانات ، يشير إلى عدة أرغفة وطبق من الفول وهو يصيح :

ـ كل سريعا وارتد غطاء الرأس ، سرعان ما يأتي الزوار .

خبز يابس وفول حامض ، أحشو معدتي ، ليس لي خيار التذوق ، يرن الجرس الداخلي للحديقة فتتأهب كل الحيوانات ، تخور في وهن وهي تدرك أن أمامها يوم آخر صعب ، أضع رأسي داخل الغطاء ذي الفراء فيسود الظلام وأوشك على الاختناق ، أتبين وجود فتحتين صغيرتين وسط العينين ، وفتحة أخرى خلف الأنياب ، يصبح العالم ضيقا والهواء شحيحا ، لا أدري إلى متى يمكنني الصمود هكذا ، يبدأ الزوار في التدفق ، تعلو ضحكاتهم وروائح أطعمتهم ، أنظر من خلال الثقب فأرى جموعهم حولي ، عشرات من الوجوه ، صغارا وكبارا ، كأنهم لم يأتوا إلي الحديقة إلا لرؤيتي ، يعاود الحارس وخزي بطرف عصاه في قسوة ، أنهض وأتمشى أمامهم متوجسا من لحظة انكشافي ، أراه يجمع النقود منهم ويعاود وخزي مرة أخري ، أتأوه في صوت عال ، يشهق الجمهور في خوف وانتشاء ، من خلال الفتحات الضيقة أراهم وهم يرتدون في خوف حين أقترب من القضبان ، ثم يعاودون الاقتراب مرة أخرى حين أبتعد ، تنتظم إيقاعات أجسادهم مع خطواتي ، وتختلج تعبيرات وجوههم مع صيحاتي ، ، الرجال يدخنون بعصبية والنساء ينظرن في اشتهاء ، والأطفال يسرحون في نظرات ساهمة ، كيف جازت عليهم الخدعة ؟ كيف استطاعوا الاقتناع بجسدي الهزيل وهو يتحرك وسط هذا الفراء المتهدل ، كيف اقتنعوا بعيوني الميتة ومخالبي الصدئة .

عبثا أحاول الابتعاد عنهم والانزواء في نهاية القفص ، فعصا الحارس تطولني في كل مكان ، تأوهاتي تتضاعف داخل الرأس الزائفة فتتحول إلى زئير ، يرتفع هياجهم كلما صرخت من الألم ، كل جزء من جسدي قد أصبح يؤلمني ، أود أن أتوسل إليه أن يكف ولو قليلا عن إثارتي ، كنت في أمس الحاجة إلى لحظة من الراحة في هذا النهار الطويل ، لا أصدق عيني وأنا أرى أشعة الشمس وهي تنسحب من خلف الأشجار ، ولا أذني وهي تسمع صوت الجرس الختامي، انسحب الناس أخيرا وانقضت لحظات الجنون ، لم يبق إلا أصوات خوار الحيوانات التعسة المتعبة ، انهار نائما على ظهري وقوائمي ـ رغما عني ـ مرفوعة إلى أعلى ، أستيقظ مفزوعا على صوت مفاصل القفص الصدئة والحارس يضع أمامي طبقا من الطعام وبعض الأرغفة ، تتصاعد الأبخرة من الطبق وتطفو عليه الدهون ، يقول الحارس :

ـ كنت قاسيا عليك اليوم ، ولكن هكذا الشغل ، ويجب أن نرضي الناس الذين حضروا إلينا .

يساعدني على خلع رأس الأسد من فوق رأسي ، أبدأ في الأكل بسرعة خوفا من أن يحدث أي شيْ يحرمني من هذه الوجبة ، خليط من الأرز والطعام وقطع من الشحم اللزج دون لحم ، ولكني أحس بها تسري في عروقي وتبعث فيها الدفْ ، يتأملني "جمعة " الحارس في نظرة هي خليط من الشفقة والازدراء ، كم جمع من القروش التي انهالت عليه طوال اليوم، أخاف أن أسأله حتى لا يرفع الطعام من أمامي ، في هذه اللحظة

كانت حاجتي للطعام أقوي من حاجتي للنقود ، لابد أنه قد قرأ الأفكار التي تجول في خاطري ، ينهض فجأة ويغلق القفص خلفه ، أصرخ فيه أن ينتظر قليلا ولكنه يمضي ، لم يبق أمامي إلا أن أمسح الطبق حتى آخر قطعة من الدهن وأنتظر داخل الفراء العفن .

يلف الحديقة تعب وظلام وسكون ، يمحو ضوء القمر كل الألوان ، أحس بالغثيان من كثرة الدهون ولكن الدفء يبقى ، يسترخي جسدي ببطء ، وتضاء نافذتها في ليلي البارد الطويل، ويبدأ ظلها في التحرك ، هل يتأتى لي أن أقف أمامها مرة أخرى ، وأن تكون أقل حدة وأكون أن أكثر قدرة ، هل يقدر لي أن المس جلدها لعل فيه بعضا من الدفء الذي أتوق إليه ، أغفو قليلا ثم أستيقظ ، أراها واقفة أمامي ، تحدق في من خارج القفص ، ملامحها أكثر شحوبا تحت ضوء القمر ، لا تتكلم و تحاول أن تنفذ بنظراتها خلف جلد الأسد الذي أرتديه ، أسمع صوت أنفاسها الثقيلة ، ترتدي ثوبا ابيض فضفاض متهدل على جسدها ، ذراعيها عاريان وثدياها ناهدان ، تحدق في قليلا ثم تبدأ في السير مبتعدة ، لا تعود إلى بيتها ولكنها تجوس وسط الأقفاص ، ألمحها من بعيد مثل طيف ومثل وهم ، يظهر ويختفي كحلم في يقظة ناقصة ، تعاود الحديقة يقظتها من جديد ، كأنها من خلال هذا السريان الدؤوب تبعث بعشرات من النبضات الحية التي توقظ الحيوانات وتملأ جسدها بالانتشاء، ترتفع أصوات الخوار والعواء والنباح والهرير والفحيح والهديل والصهيل والزقزقات، تتداخل وتتحول إلى همهمات من الرغبة الجائعة ، لا أراها عائدة إلا بعد أن ينتصف الليل ويغور القمر، أرى ظلها ممتد على العشب، وثوبها ملوث ببقع داكنة كأنها دماء طرية أو كأن القمر يبالغ في خداعي .

صباح آخر، طعام يابس ووجوه مزدحمة ، وعصا طويلة تباغتني كلما توانيت ، أتجول وسط عيونهم المحملقة وأتذكر كل الذين ارتدوا ثياب الأسود وزأروا مثلي ، أباطرة وملوك قدامى، وقادة مزهوون بالنياشين ، وقتلة متربصون، كان في داخلهم نفس الشخص الخائف ، وكل الذين حولهم لم يروهم إلا بعيون الخوف كما يرونني الآن ، يضيق الجلد من حولي ، يزداد اقترابا من جلدي الحقيقي ، ببطء شديد أشعر إنني سيد الموقف ، الملك الذي يسعى كل زوار الحديقة لرؤيته كل يوم ، تعتدل خطوات وتصبح أكثر رسوخا على الأرض ، ويصبح زئيري قويا ومثيرا لرعب الرجال وشهوة النساء ، يأتي الحارس في كل مساء ، يضع أمامي طبق الطعام وهو يراقبني في حذر ، أقول له :ماذا عن بقية حيوانات الحديقة ؟

ينظر نحوي في بلاهة وهو يردد : ماذا عنهم ؟

ـ هل كلهم مزيفون مثلي ؟

ـ لا أدري ، من المؤكد أن بينهم من هو مزيف ، ولكني لا أعرف من هم ، لم أعد أستطيع التمييز بين الحيوان االحقيقي والمزيف ، الجميع حيوانات كما تعلم ، عندما يجوعون أو يخافون ، كل من في الحديقة جوعى وكل من في الحديقة حيوانات

ـ وبلقيس ، هل هي متزوجة ، أرملة ، أم عقربة سوداء ؟

لأول مرة حدق في بخوف وهو يقول :

ـ لا يمكن أن تتحدث عن المديرة هكذا .

ـ لماذا ، هل هي خطرة ، هل هي أخطر من بقية حيوانات الحديقة ؟

حدق في طويلا ثم هتف : كلا ، ولكنها تمتلك المصائر .

يتركني ويمضي دون أن يوضح كلماته ، ينتصف الليل فأراها تمضي في ظلمة الحديقة دون بقية من قمر ، تثير رؤيتها بداخلي جوعا ممضا، في الصباح و عندما تلتف حولي الوجوه الغريبة، أرى وجهها محاطا بظلمة الليل الخفية ترى كيف تبدو في ضوء النهار ؟ لم تعد تقترب من قفصي، لا تعرف أن الجلد قد ضاق علي والتصق بجلدي، وأنني حين أغفو ليلا تملأ أنفي روائح الطل والمطر والدم الطازج، وحين أرهف أذني اسمع حفيف الأجنحة وهسيس الديدان وصوت العصائر في نسغ الأشجار وارتعاد الطرائد في لحظة الافتراس، يقول لي الحارس: رائحتك أصبحت لا تطاق ، قلت: فلأستحم إذن، قال : من الصعب أن تخرج من هذا الجلد، قلت: ومن قال إنني أريد أن اخرج منه . ينصب الماء على فرائي فأحس به باردا وعذبا، كأنه مطر عذب يأتي من سحابات استوائية لا تجف ، أنفض الماء من على لبدتي وأنا أقول للحارس :

ـ الليلة سوف تترك لي باب القفص مفتوحا .

يهبط بخرطوم المياه من علي جسدي وهو يهتف :

ـ ولكنك أسد ، والأسد لا يجب أن يكون خارج القفص .

ـ أريد أن أتجول داخل الحديقة ، لن أخرج منها .

يظل مترددا ، يقول في خوف :

ـ لو عرفت المديرة ذلك سوف تقتلني .

أقول له في تأكيد : لن تعرف

ولكن الخوف لا يغادره : إنها تعرف كل شئ ، حتى قبل أن نقوم به .

اضطر إلى تهديده : إذا لم تترك القفص مفتوحا فسوف يجدني الزوار أشبه بالجثة الهامدة ، لن أتحرك ولن تجن من ورائي قرشا واحدا .

يتأمل وجهي قليلا : أعرف فيما تفكر ، إنه أخطر مما تتصور .

يستدير وينصرف مبتعدا، وانفض الماء من على جسدي وأتمسح في القضبان ، يهبط ليل داكن، وتهجع الأصوات، اخرج إلى العراء، هواء بارد مختلف عن هواء القفص البارد، لمسة من الحياة تمس جسدي الذي ما زال فيه بقية من بلل ، أسير عبر الأشجار القديمة الباسقة ، أحس بجذورها الضاربة وهي تقلق استواء الأرض ، اصعد على الدرج الضيق المؤدي إليها، أخطو بقوائمي الأربعة فوقه بسهولة، يتحرك جسدي كله بمرونة وتلقائية ، أقف أمام بابها وارهف سمعي، هل هذا صوت تنفسها أم أنه حفيف ثوبها، أرفع مخالبي واهوي فوق الباب ، لا يرد علي أحد فأدق بقوة أكبر، أضغط على الباب قليلا فينفتح وحده، المكتب الذي شهد لحظات إذلالي الأولى خال ومظلم ، أتلفت حولي فأشاهد بابا آخر يقود إلى داخل المنزل، أعبره إلى ممر مظلم،

أجوس وسط رائحة ثقيلة ورطبة ، قرنفل وبهار وصندل، الصمت مطبق ولكني ـ رغم كل الروائح ـ أشم رائحة عطرها وعرقها ، أخرج من الطرقة إلى غرفة واسعة مليئة الأشياء، لا أري تفاصيلها ولكني ألمح ظلالها، أواصل التقدم حتى أرى بلقيس، تجلس بجانب مصباح شاحب الضوء لا يكشف إلا عن جانب من وجهها، ترتدي ثوبها الأبيض الذي يكشف عن ذراعيها وعنقها الطويل، صدرها النافر يصنع ظلا على الجدار، يعلو ويهبط مع صوت أنفاسها، جالسة ساكنة ترقب خطواتي التي تتباطأ كلما اقتربت منها ، هل كانت تتوقع قدومي ، هل تقرأ حقا كل نوايا الخوف والاشتهاء ؟ أم أن حارس الأقفاص قد وشى بي ؟ لقد مضيت لأكثر مما أستطيع التراجع، أقف أمامها أخيرا وأرى التعبير المرسوم على وجهها نصف المضيْ ، بدا كأنها تنظر إلى ما أقوم به كأمر مسلم، كأنه من المحتم أن أصعد الدرج على قوائمي وأن أرخي ذيلي أمامها لاهثا وراغبا ، أجد صوتي أخيرا فأقول : هل جئت متأخرا ؟ يضيع الصوت في تجاويف رأسي ، يتحول إلى نوع من الزئير الرخو، أشم رائحة جسدها بعمق ، كل خلية من خلاياها ، حتى رائحة العرق والإفرازات التي تنز منها ، أمد يدي ـ أقصد قائمي الأمامي ـ وأضعه على صدرها العاري ، تترك مخالبي عليها خمس علامات حمراء، نقاط دموية صغيرة ، تغمض عينيها قليلا حتى أسحب مخالبي ، أسمع صوتها وهو يهتف في صوت خافت :

ـ عليك أن تتبعني أولا .

تحمل المصباح وتنهض واقفة ، تسير حافية، لا تكاد تلمس الأرض، نجتاز الغرفة إلى قاعة أخرى أكثر ظلاما، تزداد رائحة الرطوبة ويصبح الهواء ثقيلا، تمضي هي في سهولة ويسر بينما أتعثر أنا في عشرات الأشياء التي لا يراها، لا أدري إن كانت قطعا من الأثاث أم من جذوع الشجر، صوت حفيف خطواتها يتحول إلى نبضات، تتحول بالتدريج إلى إيقاعات خافتة لطبول بعيدة، أدخل في متاهات من الأغصان المتشابكة وأحس على وجهي بنوع من قطر المطر الدافئ، أين ذهبت جدران الغرفة ، كيف أصبحنا فجأة ضائعين وسط هذه الغابة الكثيفة التي يبدو واضحا أن أشعة الشمس لم تستطع التسلل إليها يوما ما، أتنفس هواء حارا مشبعا بمياه المطر وترتفع إيقاعات الطبول وتشتعل نار في مكان ما، تختفي بلقيس من أمامي تماما، وينهض من جوف الظلمة مسوخ غريبة ، أنصاف من البشر والحيوانات، طقوس من السحر الأسود تكتمل دوائرها حول النيران المشتعلة، تأخذ الأقدام في الدبيب بجنون، يظهر ساحر القبيلة من مكان ما وهو يمسك طفلة من صغيرة من قدميها، رأس الطفلة إلى أسفل وهي تصرخ، صراخها يضيع وسط صوت الطبول ودبيب الأقدام، ولكنني أرى وجهها الصغير، أتأمل ملامحها الدقيقة، تلك الملامح التي لم أنسها ولو للحظة واحدة من حياتي، أصرخ في لوعة وألم، وأريد أن أتقدم ولكن الأغصان المتداخلة تحيط بي وتشل حركتي ، كما حث أول مرة يحدث الآن ، أسد عاجز دوما ، لا يستطع أن ينقذ أحب الناس إليه حين تحين اللحظة ، تستيقظ في داخلي كل الذكريات المريرة والمؤلمة ، فرصة الحياة التي ضاعت مني قبل ن تلتهمها النيران وتدمر كل ما كنت أملك ، وكل ما كنت أريد ، أبكي : " يا ابنتي ، يا جوهرتي الغالية " يحيط بي صائدو الرؤوس البشرية ، أقزام هيئتهم بشعة ، على وجوههم ندوب غائرة ، وعلي بطونهم رسوم ملونة ، رائحة الدم الطازج تملأ المكان ،

دم من هذا ؟ أندفع هاربا ، ويندفع حولي سرب من البقر الوحشي في لحظة من الفزع الأعظم ، كل الفخاخ في انتظاري والجوع هو نقطة ضعفي ، تظهر بلقيس وهي تحمل المصباح ، تضعه على الأرض فلا ينير أبعد من جسدها الذي ينتصب أمامي مثل شجرة فارعة ، ينفرج فمها عن ابتسامة غريبة ، ألم وسخرية وسخط ، أكتم دموعي وحرقتي وأقفز عليها ، أغرس أظافري في ردائها وأنزعه من على جسدها ، كل أشيائها التي كانت خافية عني ، مستعصية علي ، تبدو أمامي الآن ، أحدق في عينيها فتحدق في دون خوف ، أريد أن أقول لها : أريدك كالموت ، ولكن صوتي يخرج زئيرا منكسرا ، أحتويها وسط قوائمي الأربعة ، أريد أن أدخلها في فرائي وأن أنفذ إلى أغوارها ، لعل بداخلها امرأة أخرى خائفة وراغبة ، ولكن عينيها باردتين ، تحدقان في بصلابة ، كأنهما تقودان إلى نفق مظلم ولبس لأعماق نفس بشرية ، تهتف في صرامة :

ـ ما زال في داخلك شيْ بشري نتن .

تدفعني من فوقها ، تغطي جسدها ببقايا ثوبها الممزق وتهتف: " أغرب عني "، مرة أخرى يمتلئ وجهها بتعبيرات الازدراء ، حتى بعد أن أصبحت أسد لم أستطع التغلب على ذلك الازدراء ، أتوقف قليلا في ذهول، أتأمل النقاط الخمس الامية على صدرها ، ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئا ، أحرك قوائمي مبتعدا ، أعبر الطرقة المظلمة، أسمع صوت بابها وهو يصفق خلفي ، أسير عبر الحديقة الصامتة ، يخيل إلي أن كل الحيوانات تحدق في بشماتة ، أدخل إلى قفصي ، ويأتي حارس الأقفاص ، كأنه كان يترقب عودتي، يغلق الباب خلفي ، يضع قفلا ضخما على الباب ويمضي دون أن يتبادل معي كلمة واحدة .

أقضي الليل مرتعدا ، ويأتي صباح بارد ، لا أرى أحدا ، حتى الحارس لا يبالي بي ولا يحضر لي طعام الإفطار ، لا يهم ، لو أنه أحضره فلم أكن لآكله ، أتجول في القفص التماسا للدفء ، وتظل الحديقة خالية ويمر اليوم بطيئا ، لا يتغير شيْ حتى تعود ظلمة الليل مرة أخرى ، ألطم القفل الضخم محبطا ويائسا ، أزأر في حنق وغضب فلا يرد أحد علي ، أغفو رغم جوعي ورغم قسوة الكوابيس ، لا أعرف كيف يمر الليل ويهبط نور الصباح التعس ، لا تفارقني الغابة التي اجتزتها ، ولا القربان البشري الذي راح هدرا ، تدخلت دقات الطبول مع وجيب قلبي ، أنتفض من كثرة الرطوبة الرابضة في أعماقي ، أحاول أن أخلع الجلد الذي يحوطني فلا أستطيع ، تداخل الجلدان ولم تعد هناك فرصة للتمييز بينهما ، كأنها لعنة أبدية قد التصقت بي ، جاء بعض الزوار القلقين ، ما أن سمعوا أول زئير أول هربوا مسرعين ، لم أر وجوههم ولم أبال بذلك ، لا بد وأن مظهري قد أصبح مثيرا للفزع أكثر مما هو متوقع ، الجوع يقتل كل ما بداخلي من رغبات ، أصبح أكثر خفة ، ولكن هل أستطيع النفاذ بين كل هذه القضبان ، وهل توجد هناك غابة ما خلف الأفق المظلم ؟

ثم أشم رائحة الدم ، دم طازج لم يتخثر بعد ، تستيقظ في داخلي طاقة صاخبة من الحياة والرغبة ، ألطم القفص بقوائمي وتشرأب كل شعيراتي جسدي وتتحفز كل مخالبي ، أرى حارس الأقفاص وهو مقبل نحوي ، يحمل تلك الشرائح الحمراء الداكنة ، ذبيحة مقطوعة من منتصفها بحيث تبدو جدائل من اللحم المتوهج ، ومن العظام التي تشد رقائق الأغشية ، وحبل النخاع الذي يمتد بطول الذبيحة قانيا مفعم بالملايين من كريات الدم

، يقترب الحارس أكثر فأستطيع التعرف على نوع اللحم من رائحته ، لحم حمار ، ليس صغيرا وليس طاعنا في السن ، مناسب تماما لأسد جائع مثلي ، يلقيه الحارس نحوي فأنقض عليه ، أغمس فيه خياشيمي وأمزق أنسجته بمخالبي وأكسر عظامه بأنيابي، وأدرك أنها في الأعلى تطل علي من خلف ستائرها المسدلة .

الكويت في ٢مايو٢٠٠١

ليـــــدي هـــــــوم

- ١ -

هواء المدينة مشبع بأدخنة السيارات ورائحة طعام الأرصفة وعطن طحالب النهر ، أمضي وسط زحامها الذي لا يتوقف ، ولكن الرجل العجوز يستوقفني، يضم كفيه إلى صدره ويواصل الانحناء أمامي، أتأمل ملابسه الرثة، ووجهه الأسيوي المشدود الجلد، داكن وشاحب، عيناه ضيقتان ولامعتان مثل قط مرتعد، يتوسل إلي في إنجليزية ركيكة :

ـ أرجوك يا سيدي، أتوسل إليك، أريد أن أريك شيئا هاما .

أتأمله مدهوشا، منذ أن هبطت إلى هذه المدينة وهناك من يقدم لي عرضا عند كل زاوية من الطريق، أحاول أن أواصل السير ولكنه يسد الطريق ويواصل الانحناء والتوسل: " لن تندم يا سيدي .. لن تندم " ، لم يكن يتسول رغم سمات الجوع والبؤس الظاهرتين عليه، أتبعه إلى حاجز خشبي عند زاوية الطريق، يمد يده في جيبه، أتوقع أن يخرج لي مجموعة من صور الفتيات العاريات كما هي العادة، لكنه يخرج لفافة من القماش المتسخ ، يفضها بأصابع مرتعدة وهو يتلفت حوله ، بريق محتوياتها يخطف بصري ، قطع صغيرة من الزجاج الملون شديد اللمعان، يقربها الرجل من وجهي حتى تمتلئ عيني ببريقها وهو يقول بنبرات مرتجفة :

ـ هل رأيت ياسيدي، زمرد أصلي لا يوجد إلا في جبال الشمال ، في " شانيج ماي " ، أحجار ثمينة بثمن بخس.

أحدق فيه ، لم يكن ينقصني إلا هذا العجوز البائس الذي يحاول أن يغشني، أقول :

ـ لا حاجة لي لأي أحجار ، ولا أفهم فيها .

ـ اقسم أنها أحجار أصيلة ، إنني لا أجرؤ على عرضها إلا على أجانب مثلك، لو عرف بها الذين يتجولون في هذا الشارع لقتلوني من أجلها .

أحاول أن أزيحه من أمامي فيبالغ في الانحناء : " أرجوك يا سيدي ، خذها بأي ثمن ، إنقذني من شرها " ، أنجح في الخلاص منه أخيرا وأواصل السير، يتردد صوته من خلف الحاجز الخشبي متوسلا، أعبر جسرا فوق نهر عطن، تنحدر الشمس فوق المعابد المدببة الأطراف، وتلمع السقوف التي يزين قرميدها الأحمر ثعابين ذهبية اللون، تماثيل بوذا الصغيرة عند كل ناصية، تحيط بها الأزهار، وتوضع أمامها أطباق الطعام،

شرطة المرور يضعون على أفواههم كمامات بيضاء تحميهم من التلوث، حروف متداخلة فوق واجهات المحلات مثل تعاويذ مجهولة، أسال نفسي لماذا جئت إلى هذا المكان القصي، وإلى أي مكان في الأرض سوف يمتد هروبي، أقف أمام إحدى محلات حلاقة الشعر، خلف الزجاج تجلس صف من الفتيات وقد كشفن عن أفخاذهن، تشير إحداهن لي بالدخول، أمضي مبتعدا، تتحول المدينة إلى شرك علي أن أثبت من خلاله رجولتي، أحاول أن أذوب بوجهي الغريب وسط زحام الأرصفة، يتبدد وهج الشمس وتنطفئ قمم المعابد، تتمهل إحدى سيارات الأجرة بجانبي، تعبت من كثرة التجوال، أركب في المقعد الخلفي دون أن أفكر في وجهة محددة، يقول السائق في إنجليزية واضحة :

ـ في " بانكوك " لا يجب أن يكون هناك رجل وحيد يا سيدي، هذا أمر يسئ إلى سمعة مدينتنا .

تأسرني خفة دمه، يمد يده إلى مقدمة السيارة ويتناول حفنة من الصور الملونة :

ـ كل هاتي الفتيات تحت أمرك فلماذا تكون وحيدا ؟

فتيات صغيرات، شعور فاحمه السواد وملامح دقيقة، كلهن في نضارة العمر، لم تترك المهنة بصماتها على وجوههن بعد ، يواصل السائق عن الكلام عنهن، إنهن سيدات بيوت ، ليدي هوم، لا يتجولن على الطرقات، نظيفات من أي أمراض، البيت الذي يجئن منه يحرص على ذلك، أمينات، لا توجد واحدة منهم تمد يدها على ما يخص الزبون لأن البيت يمكن أن يعاقبها بشدة، أتذكر وجه العجوز وهو يؤكد لي أن الزمرد أصلي، الجميع يؤمنون هنا أن للإلحاح قوة السحر، أهتف به أخيرا :

ـ حسنا ، انطلق بنا .

لا يصدق إنني وافقت، يسرع بالصعود إلى أول جسر علوي يقابلنا، تبتعد التفاصيل الصغيرة للمدينة وتحيط بنا الأبراج الشاهقة من كل جانب، تبدأ الأنوار المتناثرة عليها تضيء سماء المدينة بألوان متعددة، تنطلق السيارة كأنها توشك على الطيران، أصيح به : لماذا تسرع هكذا ؟ يقول في مرح : أخشى أن تتراجع ، تهبط السيارة إلى متاهة من الطرقات الضيقة والقنوات المائية، تتقافز السيارة فوق القناطر الخشبية القديمة التي تنوء بما عليها من باعة، أقول:

ـ هل أنت واثق أنهن كما يبدين في الصور أم أنني سوف أجد مجموعة من العجائز .

ـ لا مكان للعجائز في هذه الصناعة يا سيدي ، هذه الصور مجرد انعكاس بارد، الواقع دائما أكثر إثارة، أليس كذلك؟

سائق وفيلسوف ، تبتعد المدينة فأشعر بالقلق، نسير على طريق خال بموازاة حافة النهر لا تحيط بنا إلا الأشجار والنباتات البرية ، هل خدعني بكلماته وهل من الممكن أن يقوم باختطافي، الجميع أكدوا لي أن المدينة مأمونة وأهلها مسالمون، أجدادهم من بقايا قبائل صينية لا طاقة لها على القتال، هاماتهم محنية بسبب الغرس والقلع، أمضى أسلحتهم عصي يهشون بها على الغنم، وعندما اقبل " قبلاي خان" بجيوش المغول كالإعصار، اقتلعهم من جذورهم، حاولوا الرحيل إلى أرض يقيمون فيها دون قتال، كأنهم كانوا يبحثون عن

أرض في كوكب آخر، ظلت القبائل الغريبة تنشب أظافرها في لحمهم العاري وهم يواصلون الرحيل جنوبا، حتى لم يبق أمامهم سوى تلك الأرض السبخة، مستنقع من البحيرات الراكدة والأنهار المتشعبة ليس بعدها إلا البحر الأجاج، أرض لا يريدها أحد ، لا تنمو فيها غير أعشاب السفانا ووأشجارالعوسج، ولا يقيم بها إلا الثعابين وبنات آوى، هكذا استقروا وتشكل مصيرهم ، أقول متوجسا : لقد غادرنا بانكوك ، يقول : هكذا بانكوك دائما ، تحسب أنك تغادرها ولا تغادرها.

ينحدر بالسيارة وسط أعشاب كثيفة وتزداد رائحة النهر، صفحة الماء مظلمة كلون السماء، كان مثل قومه لا يتوقف إلا عند حدود الماء، يهتف في ارتياح : " وصلنا "، ننحدر وسط نباتات برية وأشجار شوكية، يظهر أمامنا بيت خشبي فجأة، كأنما انشقت عنه مياه النهر، تحيط به المصابيح الورقية الملونة من كل جانب، نسير إليه عبر ممر خشبي، يتردد وقع أقدامنا عبر النهر الساكن، تفتح الباب لنا امرأة صغيرة تحمل مصباحا، تنحني أمامنا، ثوبها أزرق لامع، ضيق ومشقوق حتى أعلى فخذها، تسير أمامنا إلى قاعة واسعة مليئة بالمرايا، لا يوجد بها من الأثاث إلا صف واحد من المقاعد مرصوصة بجانب الجدار، أشم رائحة المنظفات وعبق الطعام المطهو بالأعشاب، تضع المرأة مصباحها وتبدأ عملية المفاوضة، اكتشف أنها كبيرة في السن رغما عن حجمها الضئيل، يلتفت إلي السائق وهو يقول :

ـ السعر ألف "بات " لليلة، وإذا أردت أن تحتفظ بالفتاة لأكثر من ذلك فالسعر سوف ينخفض إلى ثمانمائة لكل ليلة إضافية، الأعمال كاسدة كما ترى يا سيدي، وهذا تخفيض خاص للزبائن الذين أصطحبهم فقط .

أعرف أنه يمكنني أن أساوم ، ولكني ما أزال مأخوذ بهذا الجو الغريب، أشعر بالحصار فأقول معترضا :

ـ يجب أن أرى أولا .

يرد السائق في نعومة : طبعا يا سيدي ، سترى أكثر مما كنت تتوقع.

تصفق المرأة بيدها ، ينفرج الستار عن باب في آخر القاعة ويدخل صف من البنات تسبقهن رائحة عطورهن الرخيصة، يسرن على أطراف أصابعهن دون صوت، يجلسن على صف الكراسي في مواجهتي تماما، صغيرات بالفعل، شعورهن فاحمة وأجسادهن مشدودة، يلبسن ثيابا ضئيلة تكشف عن صدورهن وأفخاذهن، زينتهن كاملة، لا أستطيع التميز بينهن، كن متشابهات بتلك البشرة البيضاء والعيون الضيقة والأنف الأقنى والجبهة العريضة ، يهتف السائق بي: "اختر منهن ما تشاء "، أريد أن أختار الأصغر ولكنهن جميعا صغيرات، لم تجرؤ الكهولة بعد على الاقتراب من أجسادهن الغضه، يشجعني السائق:

ـ اقترب يا سيدي، مد يدك وافحص بنفسك، كل شيْ مباح هنا .

أمد أصابعي في تردد، أتحسس وجها وألمس وجها واضغط على نهد، لا تعترض واحدة منهن أو تحاول الابتعاد، تعودن على تردد الزبائن وعلى لمساتهن اللزجة، أريد أن أتوقف ولكني لا أفعل، أنتقل من واحدة لأخرى، كأنني نخاس قديم مستثار، تصبح أصابعي ساخنة دون أن أتوصل إلى قرار، يجلس السائق بجوار

السيدة العجوز في الركن، تحرك مروحة ملونة أمام وجهيهما معا، لا أحد يتدخل، أحس بالذنب لأني جعلتهن جميعا أسرى ترددي، أقول لنفسي، إنها مجرد ليلة واحدة فقط على سبيل التجربة، فلآخذ أي واحدة، لا أحد يعرف أن هذه تجربتي الأولى، دائما ما كان مشهد بائعات الهوى يبعث في داخلي نوعا من الخوف والقرف ، ثيابهن الضيقة وزينتهن تجعلهن أشبه بمن يرتدين أقنعة ، ولكن هاتي الفتيات بأجسادهن الضئيلة وجلستهن المستكينة نزعت مني هذا الإحساس.

أستدير حائرا، ألمحها وهي تزيح شعرها وتركن ظهرها إلى الوراء، كيف مررت عليها دون أن أراها، عيناها أكثر اتساعا من عيون الأخريات وأشد حزنا، يبدو وجهها أقل زينة، منزوية كأنها غير مهتمة بنتيجة الاختيار، أشير نحوها، يزفر السائق في ارتياح، تنهض الفتيات كلهن في دفعة واحدة ودون صوت، تبقى هي فقط جالسة في مواجهتي كأنها مندهشة من اختياري لها، تطوي المرأة العجوز الأوراق المالية التي قدمتها لها، تحدث السائق، يلتفت هو بدوره نحوي وهو يقول محذرا :

ـ افعل بها ما تشاء، ولكن لا تكن عنيفا معها،السيدة تخاف دائما من عنف الزبائن العرب.

تنحي الفتاة أمامنا وتنصرف ولكنها ما تلبث أن تعود سريعا وهي تحمل حقيبة صغيرة، تسير خلفنا أنا والسائق خافضة الرأس، نعبر المر الخشبي، ما أن نجلس في السيارة حتى تنفخ في ارتياح، تحررت أخيرا من عبء المنزل، أتأمل وجهها، ألمح ابتسامتها رغم الظلال التي تحيط بنا، تهتف في مرح وبلهجة عربية متكسرة :

ـ ليدي هوم ، ما في نوم .

أقول لها مدهوشا : هل تعرفين العربية ؟

ـ كل الفتيات في "بانكوك " يجب أن يتعلمن شيئا من العربية ، لزوم الشغل .

لا أملك نفسي من الضحك، تنطلق السيارة بنا بعيدا عن ظلمة النهر، تقترب أضواء "بانكوك"، تلتصق الفتاة بي مثل قطة تلتمس الدفء، تذكر اسمها، طويل ومعقد، تضحك وتختصره في حروف قليلة :

ـ سمني " ماي " هكذا ستشعر إنني ملكك .

نهبط إلى قلب المدينة، لم يخف الزحام ولم يهدأ الصخب، كأنها قد بدأت تمارس يقظتها الحقيقية، تحولت الساحة الموجودة أمام الفندق الذي انزل فيه إلى مطعم مفتوح حافل، فرقة موسيقية تعزف في صخب، وفتيات يرقصن، لا يوجد من الرجال إلا أفراد متناثرون، تمسك "ماي" بذراعي وتسير بجانبي في اعتزاز، إنها ليست مثل هاتي الفتيات اللواتي يجلسن في انتظار العابرين، لقد ذهبت إليها واخترتها، إنها " ليدي هوم " وليست فتاة أرصفة، أسألها:

ـ هل تريدين الجلوس قليلا لتناول بعض الطعام .

تلتصق بي وهي تقول : إنهم يسهرون هنا طوال الليل، لنمارس الحب أولا .

أرى لمعة عينيها، يدهشني أنها ترغب في أكثر من رغبتها في السهر والطعام وهذا الجو المفتوح، أسرع بها إلى المصعد، يشرق وجهها بالفرح حين تشاهد غرفتي وتبدأ بالتقافز فوق الفراش، تهرع للحمام لتفحص أشيائي الصغيرة، وتفتش في " الميني بار " عن قطع الشيكولاته ، طائر نزق، يمارس حرية الدهشة كأنني الزبون الأول وكأن هذه هي غرفة الفندق الأولى التي تدخلها، تزيل "مكياجها" وتخلع ثيابها فأكتشف أنها مازالت فتاة صغيرة دفعت قسرا إلى بوابات النضج، جسدها مازال مفعما بالكثير من البكارة، يستقبل المتعة بنشوة خالصة وليس باحتراف، امسك بها حتى تكف عن الحركة وتهجع بين أعضائي، تقبلني على خدي وتتملص مني: " دعنا نستمتع ببطء "، كأنها تحرص على متعتي ومتعتها، تحاول أن تزيل آثار الصفقة التي عقدناها في المنزل المطل على النهر، تملأ الحوض بالماء الساخن وتخلع عني ثيابي، تخرج من حقيبتها شموعا ملونة وزجاجات صغيرة، مساحيق وأعشاب ذات روائح مختلفة، توقد الشموع وتضعها على حافة المسبح، تغمر جسدي بالماء الساخن، تطفو على الماء فقاقيع ملونة، يسبح جسدي في خليط من زيوت فواحة، تمد يدها الصغيرة وتدلك جسدي، تدور بنعومة وسط تضاريس العضلات، اكتشف تحت أصابعها إنني كنت متعبا، محملا بأثقال خفية، أغمض عيني وأرحل بعيدا عبر محيطات وذكريات غارقة، كل شيء يطفو من جديد، أخطو داخل غرف خالية من الأصوات وروائح الطعام، في الثلاجة بقايا أطباق باردة ينمو عليها عطن أخضر، تنزلق "ماي" داخل الحوض، تتناثر الفقاقيع الملونة خارج الحوض، تقول ضاحكة: هناك أماكن لا أستطيع الوصول إليها إلا بهذه الطريقة، أجوس بين البقايا، صور ممزقة وأثاث محطم، ورغبات مكبوتة وهجر مهين وعمر لم يبق منه إلا الشظايا، تضع "ماي" صدرها على صدري، يغطي شعرها وجهينا معا، ينساب دخان الشمع معطرا، وأحس بشفتيها رقيقتين ومرتجفتين، تصرخ المرأة الأخرى من بين أضلاعي: "أنت رجل صغير، لا تعرف كيف تعطي"، يحدث هذا دائما عندما يأخذون كل شيء ثم يتهمونك بالأنانية، أمزق كل الصور إلى قطع صغيرة ولكن الذكرى تبقى، استسلم لماي مثل طفل، منشق ومتعب وناقم وغاضب، هل يمكن لجسدها أن يخرج الأشباح التي تعشش في جسدي، استجيب لها رغما عني، كيف اختزن جسدها الصغير كل هذه الطاقة من الشهوة، تضحك في فرح حقيقي ، وتحول المضاجعة إلى طقس بهيج، تذوب موانع الضعف والعجز اللذان أشعر بهما وسط العطور وأدخنة البخور وشهوتها الغضة، توقد المزيد من الشموع وهي تقول:

ـ هذه الأدخنة سوف تبعث بالطاقة في داخلك طوال الليل، تذكر، "ليدي هوم" ما في نوم .

نهبط إلى ليل المدينة، نتناول طعاما، خليط من الفاكهة وقطع الدجاج والأرز المبهر، نذهب إلى أماكن صاخبة بالموسيقى ، نرقص معا ، يخرج مغني يلبس حلة تبرق ويغني بالعربية المتكسرة : " ولعها ولعها .. شعللها شعللها "، تصعد أكثر من فتاه إلى المسرح ويأخذن في تطويح شعورهن مثلما يحدث في الرقصات الخليجية، نهضت" ماي" وأخذت تدور راقصة و بدا كأن حجمها يزداد، كأن الطاقة التي تشع منها تملأ كل ما حولها من فراغ، روح متفردة، صاخبة وطليقة، نعاود الخروج إلى ليل المدينة، تحمل بذراعيها كريات " البولنج " الثقيلة وتقذفها وتصفق في مرح حين تتساقط الأقماع الخشبية، تجعلني أشرب المزيد من السوائل

المسكرة، سوائل مصنوعة من أعشاب خاصة تعيد الحيوية إلى الجسم، نذهب إلى نادي ليلي آخر، عرض راقص لنساء أنصاف عاريات، أجسادهن ناعمة وحركاتهن مليئة بالميوعة، يهبطن إلى الصالة بعد العرض ويداعبن الزبائن في حركات فاحشة، تنبهني "ماي" : هل تعتقد أنهن نساء، انتبه ، إنهم رجال يرتدين ملابس النساء، أحدق فيهم مذهولا.

نسير في الشارع متشابكي الأيدي، يتبدد ظلام المدينة، نغني معا ، لا يهم اللغة التي نغني بها، يبزغ ضوء الفجر شاحبا من خلف قمم المعابد المدببة، ناعم وشجي، كأن أيامي تبدأ من جديد، الشوارع لامعة مبللة، تماثيل بوذا على النواصي تضيء في وهن، نتوقف عن الغناء فجأة، يظهر أمامنا صف طويل من الرجال خارجين من بوابة معبد بجوار النهر، رؤوسهم حليقة وعباءاتهم الأرجوانية تبدو داكنة، يسيرون محني الرؤوس، لا يكادون يمسون الأرض بأقدامهم العارية، كأنهم قد تخلقوا فجأة من ندى الليل، تمسك "ماي" بذراعي وتقول:

ـ إنهم الرهبان.

تضم يدها وتنحني أمامهم، ينحنون هم أيضا في انكسار بالغ ، كل واحد منهم يمسك في يده طبقا صغيرا من المعدن، تضع "ماي" يدها في جيبها، أدرك أنها تبحث عن نقود، أقدم لها بضع ورقات من "البات" ، تهز رأسها: "يجب أن تكون من نقودي"، تخرج قطعا من المعدن وتضعها في طبق الراهب، ينحني أمامها وهو مغمض العينين، يضم الطبق كأنه امتلك ذهب الدنيا، أتأمل جسده النحيل، كلما قل حجم الجسد بردت ما به من رغبات، ربما يصل إلى تلك اللحظة النادرة من التسامي، يسرع الخطى ليلحق ببقية الرهط، تقول لي :

ـ يجب عليه أن يشحذ حتى يوفر طعامه، هكذا يحتم عليه نظام الرهبنة، يستيقظ من الفجر حتى الغروب وينتظر عطايا الغرباء، وإذا لم يعطه أحد شيئا نام دون طعام.

تصمت قليلا ونواصل سيرنا معا ، أقول لها :

ـ يفعل ذلك طول عمره؟

ـ كل واحد منا يجب أن يكون راهبا لفترة ما في حياته، عليه أن يتلقى هبات الآخرين وأن يتحمل إهاناتهم.

نواصل السير عبر الطرقات المبللة، ينبثق صباح وردي شاحب، نجتاز بهو الفندق ، ونسدل ستائر الغرفة في إحكام حتى لا يتسلل إلينا ضوء النهار، تضع رأسها على صدري وتستغرق من فورها في النوم، أسمع صوت أنفاسها وهو يتردد في هدوء مثل طفلة شعرت أخيرا بالأمان، تتسلل رائحة شعرها إلى أنفي، خليط من البخور واللافندر، أغمض عيني وأستغرق أنا أيضا في النوم .

يوقظني جسدها الصغير، لا أعرف كم مضى علينا من النهار، تبدو ناعسة ومنشية كأنها تستعيد حلم الأمس، هذه الرغبة المتدفقة، هل كانت اشتهاء خالص لي؟ أم محاولة لإغرائي حتى أقضي معها يوما إضافيا؟ لم تكن في حاجة إلى ذلك، كنت محتاجا إليها في مثل هذه المدينة الغريبة المتداخلة، أغرق في دفء جسدها ، ولكن المرأة الأخرى تستيقظ بين أضلاعي، تأتي من لحظة باردة بعيدة، تقول لي :"علاقتنا وصلت إلى درجة التجمد، من الأفضل أن نريح أنفسنا من أنفسنا"، ولكن حين دخل الرجل الآخر بيتي للمرة الأولى والأخيرة بالغت هي في تزين المنزل، وقال الرجل وقد احمر وجهه من شدة الانفعال :" تعجبني ستائر بيتك "، وعندما هجرت البيت حرصت على أن تأخذ معها كل الستائر، وعندما اكتشفت أن الرجل الآخر يخونها كان السبب في ذلك هو صانع الستائر.

أهرب إلى زحام المدينة، لعلي أفر من الضجيج الذي يدوي في داخلي، كنت نصف دائخ من بقايا النشوة ووطأة الذكرى، تجذبني "ماي" إلى عربة "تيك توك"، صندوق من القصدير الملون تجره دراجة نارية، ضجة ودخان كثيف ولكنها تنجح في الإفلات من زحام المواصلات، تأخذنا إلى خارج المدينة، عبر متاهات القناطر والجسور، بين حقول الأرز وغابات المطاط ومزارع النخيل، ندخل إلى عالم آسيا الغريب، لاعبون لا يكفون عن التقافز فوق أعواد البامبو، يخنقون ثعابين الكوبرا ليفرغوا سمها في أكواب زجاجية، يضعون رؤوسهم بين فكي التماسيح الجائعة، حياة على حافة الخطر، مهرجان مليء بالأسى والشجن ، بؤس إنساني مقيم خلف كل هذه الأوان المبهجة والموسيقى الصاخبة.

نركب قاربا في نهر ضيق ممتد، تقوم على ضفافه بيوتا خشبية متراصة ، قوائمها متآكلة من أثر المياه، يعضها يبدو كأنها قائمة في الهواء، يتطلع إلينا النسوة العجائز والأطفال الذين يسكنون هذه البيوت، ندخل في زحام من القوارب الطافية، سوق عائم، قوارب لا تقودها إلا النسوة، محملة بالفواكه والأطعمة والملابس والمصنوعات الخشبية، قوارب أخرى تحولت إلى مطاعم عائمة، النساء يقمن بالطهي فوق مواقد صغيرة ، وسط حيز ضيق مهتز، مساومات عبر القوارب المختلفة، تزداد حدتها مع ازدياد التأرجح فوق سطح الماء ، أكلنا أطباقا ساخنة لا أعرف ماذا بها، تعرض علينا إحدى النساء شالا مطرزا باليد، كان رائع الجمال ، لوحة من الزنابق السابحة فوق الماء، رفعت يدها الأخرى وقد كتبت الثمن على كفها، آخذ الشال دون أن أساوم كثيرا ، أضعه على كتف "ماي" فتشهق في فرح، تنحني لي السيدة في امتنان وأنا أناولها النقود عبر القوارب، نبدأ رحلة العودة ، تلف "ماي" الشال حول جسدها، أقول لها مدهوشا :

ـ لماذا تبكين؟

تقول : ربما لأنني أحسست فجأة بالحياة تدب في داخلي، منذ أن دخلت بيت المتعة وأنا أشعر كالموتى.

ـ ألست راغبة في ذلك ؟

ـ ومن يرغب في أن يضيع عمرة وأن تموت روحه، لقد اشتروني وكان ثمني هو قارب مثل هذا.

ـ من الذي اشتراكي ؟

ـ أهلي صيادون فقراء يا صديق، يعيشون في جزيرة صغيرة في بحر "العندمان"، حيث لا قيمة لمن لا يملك قاربا، كان أبي يعمل أجيرا، وخلفه أفواه كثيرة، وعندما يثور البحر غاضبا كنا نوشك على الموت جوعا، كنا في أمس الحاجة إلى قارب و ولم نكن نملك ثمنا غير أجسادنا.

ـ هل قام أبوك ببيعك؟

ـ وماذا كان يستطيع أن يفعل غير ذلك، ذات يوم جاء سماسرة بيوت المتعة، كانوا يطوفون القرى والجزر ويصعدون إلى أعلى الجبال ليشتروا البنات الصغار ويزودوا بهم البيوت، تجارة رائجة هنا يا صديق.

ـ هذا البيت يملكك إذن؟

ـ أعمل حتى أسدد دين أبي، يوما ما سوف أتمكن من ذلك وأسترد حريتي .

نهبط إلى الشاطئ، نسير على أقدامنا وأنا مازلت مدهوشا، نخاسة وعبودية، خلف كل هذه الابتسامات الوادعة والانحناءات المؤدبة تربض أشد الطقوس تخلفا، أبتلع ريقي وأنا أقول :

ـ ومتى ستسددين دينك؟

ـ إنها رحلة طويلة يا صديق، فالأجر الذي أتقاضاه عن كل زبون ينقسم إلى أجزاء صغيرة، سائق سيارة الأجرة الذي يحضر الزبون يأخذ قسما، والبيت الذي أقيم فيه يأخذ قسما، وهناك قسم آخر مقابل طعامي وشرابي، وقسم لسداد دين أبي، وفي النهاية لا يبقى لي شيئا سوى هذا الشال .

أتأملها وهي تسير ، أتأمل وجهها الذي نضج قبل أوانه، نأوي إلى غرفتنا صامتين ، لم يعد لدينا ما يقال، نجلس على حافة الفراش البارد، تحاول أن تخلع ثيابها فأشير لها ألا تفعل، نتمدد على الفراش بكامل ثيابنا، أمد يدي وأتحسس شعرها المسدل، صغيرة وضئيلة وعاجزة، أتذكر حين وقفت كالأبله أختار بينهن، حيث المتعة رخيصة والثمن باهظ، ولا وقت للأسى والتفجع، أسمع صوتها من خلال الظلام وهي تقول :

ـ لا تحزن من أجلي يا صديق، على كل واحد منا أن يرضى بالحياة التي توهب له، ربما كان فيها بعض من الشقاء والمهانة ، ولكني قمت فيها بعمل طيب، وعندما تدور الدورة، وأعيش في حياة أخرى، سوف أعود وأجد مصيرا افضل، علينا أن ندفع ثمن الحياة التي نعيشها يا صديق.

أحتضنها وأمسح دموعها بشفتي:

ـ هيا دعينا نذهب إلى أي مطعم عربي لتناول العشاء.

نهبط إلى الحواري المحيطة بالفندق ، اكتشف إنني أسير وسط أحد الأحياء العربية، لافتات المحلات بالعربية، والتجار الذين يعملون في داخلها عرب، وكذا البضائع والزبائن الذين يتجولون على الأرصفة، نسوة محجبات وشبان ذوي لحي شعثاء وثياب بيضاء قصيرة، تشير إلى أحد المطاعم وهي تقول :

ـ هذا مطعم مصري، ربما كنت تبحث عنه.

ندخل إليه وأنا ما أزال مدهوشا ، بدا كأن المطعم جاء من قارة أخرى وعالم آخر، أسمع أصوات الترحيب بالعامية المصرية، نجلس إلى إحدى المناضد، أقرأ قائمة الطعام، ملوخية، كوسة، محشي، باذنجان، تقول "ماي" أنها ستأكل أي شيْ، مهنتها عودتها على ذلك، تتناثر أمامنا الأطباق المختلفة ، أنظر إليها وهي تحاول التظاهر باستطعامها، أحس بالذنب لأنني لم أترك لها حرية الاختيار، يقبل علينا رجل مائل للسمرة يقف أمامي مبتسما، يمسك في يد كوب من البيرة، يمد لي يده الأخرى مرحبا، يهتف في صوت متدفق :

ـ أنا صاحب هذا المطعم، هل تعرفت علي ؟

أتأمل وجهه وأنا أحاول أن أنبش ذاكرتي، لم يكن صديقا قديما، ولا زميل دراسة، ومع ذلك يبدو وجهه مألوفا، يكشف عن أسنانه الصفراء من أثر التدخين، يلاحظ حيرتي:

ـ اسمي "علي زغلول " أبي هو ممثل معروف، كان دائما يقوم بدور الأب الطيب في الأفلام والمسلسلات العربية، إنني أشبه تماما حتى أننا نتشارك في ذلك الخال الأسود الموجود بجانب الأنف.

أتذكر وجه أبيه، اكتشف انه يشبهه بالفعل، كان ممثلا باهتا مثل كل الآباء الذين يظهرون في الأفلام، يسحب أحد المقاعد ويجلس بجانبي، ربما اكتشف في زبونا جديدا لم يسمع حكاياته ولم يتعرف على شخصيته ووجدها فرصة نادرة يتحدث فيها بالعامية المصرية، أقول له:

ـ ما الذي جاء بك إلى هذا البلد البعيد ؟

يتجرع كوب البيرة، ويأكل من السلاطة من طبقي وهو يقول:

ـ تعبت من التجوال، عهدت نفسي على أن أستقر في أول بلد يتحملني أكثر من شهرين.

أحدق في وجهه، هل هو هارب؟ كان هاربا من نفسه، مصري تائه يجوب الآفاق دون مستقر، يعبر البحر إلى أوربا، ويتجول عبر الدول والحدود المتلاصقة، يترك بيتا وادعا فيه زوجة وأطفال ، ربما كان هو السبب في هروبه ، وربما هي جرثومة التجوال، يعدد أسماء البلدان ، أصيح في دهشة:

ـ ماذا ، ذهبت إلى إسرائيل أيضا؟

يتجرع كوبه حتى النهاية، ويمسح فمه بظهر يده، يقول :

ـ فتحت مطعما، وتزوجت ، ماذا كان يمكن أن أفعل أكثر من ذلك .

ـ يهودية؟

ـ فلسطينية طبعا ، أتعرف إنها ما زالت زوجتي حتى الآن.

تتناول "ماي " طعامها في بط ء، لا يعجبها الطعام وكذلك صاحب المطعم، يفتح زجاجة أخرى من البيرة، ينثر أمامنا تاريخه الغريب، أبوه الممثل الشهير يدفعه دفعا إلى كلية الشرطة، مهنة لم يكن مؤهلا لها، ربما لم يكن مؤهلا لأي مهنة أخرى، ورث مال أبيه ولم يرث موهبته، وترك الكلية في اليوم التالي لموت أبيه، زواج تقليدي وأولاد يأتون بلا حب، عبور إلى أوربا ، يبحث عن نفسه المطمورة، هل كان أفاقا يبحث

عن ثروة أخرى بعد أن ضيع الأولى ، أم ذئب أغبر يبحث عن قنص؟ لا يقول ذلك ولكنه يواصل أكل السلاطة من طبقي حتى يفرغه تماما، ثم يقابل الفتاة الفلسطينية التي أصبحت زوجته فيما بعد:

ـ كانت ضائعة مثلي ، تبحث عن رجل يحميها، ولم تكن تريد أن تغادر "يافا"، كان أمرا مجنونا ولكنني وافقت على العودة معها إلى هناك وليكن ما يكون.

مجنونة حقا ، تتمسك بوهم غريب، أن تبقي جذورها في أرض تريد أن تقتلعها، كل ما بقي لها من الماضي بيتا وحيدا من الحجر الأبيض تظهر قلعة يافا من نوافذه، المدينة كلها تم سلبها ولم تبق منها إلا بيوت معدودة، وكانت هي تريد أن تقاوم الرحيل ، وحسبت أنه يمكن أن يساعدها على ذلك، مجنونة حقا:

ـ أتدري ماذا فعل بها اليهود، كان في إمكانهم أن يقتلوها، أو يهدموا البيت على رأسها، ولكنهم بدلا من لك عرضوا عليها ثمنا مرتفعا جدا، كان بقية أهالي الحي قد باعوا بيوتهم أو تم إرغامهم على الرحيل ، إلا هي.

يفتح زجاجة أخرى ، أقدم له طبقا آخر من المشهيات ، تلكزني "ماي" من تحت المنضدة تدعوني للقيام ، ولكني رغما عني مشدود إلى الصورة المروعة التي يرسمها دون أن يعي، حكايات متناثرة عن مطعمه في فلسطين، يرتاح لزبائنه من اليهود لأنهم يدفعون ، أما العرب فهم دوما مفلسون، يأكلون في فزع، ويريدون الذهاب دون أن يراهم أحد، الشرطة لم تكن تضايقه، كانوا ينظرون في غيظ فقط إلى زبائنه من العرب ، لم يكن يريدون أن يتواجدوا مع اليهود في مكان واحد ، أهتف فيه وقد عيل صبري:

ـ والبيت ، ماذا حدث له ؟

يجرع البيرة ويقول في استهانة:

ـ باعته بالطبع، لقد أقنعتها بذلك، ما جدوى أن تقيم وسط أناس يكرهونك وأكثر قوة منك، كان يجب أن نبيع البيت وأن نبحث عن مكان أكثر أمانا، أقنعتها أن نأتي إلى هنا ونقيم مشروعا.

ـ هل أتت معك؟

ـ لقد سبقتها ، مضت عدة أشهر الآن، أنت تعرف التأسيس يأخذ وقتا.

أنظر في عينيه مباشرة، أحاول أن أنفذ إلى ظلمته الداخلية، أقول له :

ـ هل تنوي أن تأتي بها؟

يقضي على آخر الزجاجة ويمسح فمه كأنه يريد أن يتخلص من أي أثر، يصمت قليلا ثم يقول في صوت خافت كأنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثني :

ـ ربما أحضر زوجتي القديمة.

نغادر المطعم، أحس برغبتي في تقيؤ كل الطعام.

في اليوم التالي أتجنب المطعم والحي وكل الشوارع التي تؤدي إليه.

تقودني "ماي" إلى مجاهل مدينتها، مباريات الملاكمة الدموية، الحانات المخفية تحت الجسور، أسواق الباتونام الملتوية الدروب، عروض الأميرة ال "جو جو"، مرح وصخب ونزق ، فردوس أرضي مليء بالبؤس والقسوة والوداعة، تأخذني في رحلة أخرى إلى جسدها ليلا، عندما ترى ترددي أحيانا تهتف في: لو تركني كل الزبائن مثلك يا صديق فلن أستطيع دفع ديون أبي، أحس بالاختناق ولكني أكتشف مدى حاجتي إليها.

تغيب عني "ماي" لساعات قليلة، تعود إلى بيت المتعة لترى إن كانت هناك رسائل من أهلها، تعود إلي مليئة بالشوق والرغبة، نتجول ونمارس الحب حتى الساعات الأولى من النهار، أستيقظ لأجدها جالسة على حافة الفراش، تجلس متكومة وقد وضعت رأسها بين يديها، متكومة مثل كرة من اللحم الحي، ترتجف حين تحس بملمس يدي وأنا أضعها على ظهرها، لم تكن تتوقع يقظتي، ترفع إلي وجها محتقنا، أقول لها :

ـ ماذا حدث ، هل كنت تبكين؟

تحدق في قليلا ثم أسمع صوتها:

ـ يجب أن أذهب

أقول ضاحكا: هل مللت صحبتي؟

لكنها لا تضحك، تنظر إلي بعينين زائغتين:

ـ إنهم يريدونني في المنزل ، إذا أردت يمكنهم أن يرسلوا لك فتاة أخرى.

اعتدلت في الفراش، الأمر جدي إذن، تتردد قليلا ثم تواصل القول:

ـ هناك زبون قديم ، تعود أن يتردد على البيت ، ولا يختار سواي ، إنه يريدني أنا.

أقول في جفاء : كلنا زبائن ، ألسنا كذلك؟

تعض شفتيها ، تحاول أن تلمسني بيديها ولكني أبتعد، لا أدري عن كانت تحس بالفخر لأنها مطلوبة ، أم أن هذا الأسى الذي يبدو عليها حقيقي إلى حد ما، تقول :

ـ إنه رجل قوي يا صديق، واحد من أكبر التجار الصينيين في المدينة، لا أحد يقدر على رفض طلب له، أنا مجرد فتاة متعة صغيرة ، ليس لي حرية الاختيار .

أقول لها في عناد: سوف أعطيك أجرا مضاعفا إن كان هذا هو الأمر .

توشك على البكاء: سوف تسافر أنت وأبقى أنا هنا، لا مكان أذهب إليه هذا البيت، إنهم يملكون مصيري.

اصرخ فيها : اذهبي ، أنا الذي لا أريدك.

تنهض وتبدأ في جمع حاجاتها، تضعها في الحقيبة الصغيرة التي أحضرتها معها، تنفجر فجأة في البكاء ، وأسمع صوتها المتقطع :

ـ أريد نقودي يا صديق .

كيف فاتني أن الأمر برمته كان صفقة، أخرج حافظة نقودي وألقي بعدة ورقات على الفراش، كان علينا أن نفيق سويا من الوهم الذي أجدنا الغرق فيه، نبذ آخر، وجولة أخرى من الافتقاد، بيت خال وفراش بارد وامرأة تهجرك من أجل صفقة أكبر، تنحني وتجمع نقودها وتضم حاجياتها وتستعد لتغادر غرفتي، تنظر إلى الشال المليْ بالزنبق وهو موضوع على ذراع أحد المقاعد، تتردد قليلا كأنها خائفة من ردة فعلي، تتقدم ببط ء وتتناوله وتلف به كتفيها، لم أتحرك، ارقبها وهي ترد الباب خلفها، أسدل الستار حتى أخفي ضوء النهار وأحاول النوم من جديد.

أتسلل ليلا إلى ظلمة المدينة حتى لا يعرف أحد أن امرأة أخرى قد تخلت عني، أشعر بالكراهية للأضواء الملونة ولطعم البيرة وللبنات اللواتي يضعن الرغوة على صدورهن العارية، أتشاجر مع سائقي سيارات الأجرة الذين يتحرشون بي عند النواصي، أعود إلى غرفتي بلا رفيقة، أتقلب في الفراش، ينهار الحاجز الهش الذي أقيمه بيني وبين الذكريات القديمة فتأخذ في مهاجمتي بقسوة، كأن في داخلي خلايا لم يكتمل موتها بعد، هل يجب أن أغادر هذه البلدة، هل تنهي هذه الرحلة التي أعددت لها طويلا، أقول لنفسي محذرا، لم تكن أكثر من "ليدي هوم"، فتاة من بيت المتعة، مثل آلاف مثلها، ضائعات لا يملكن من أمرهن شيئا ، كيف تأخذ كل هذا الحيز من تفكيري؟

أقرر أن أستمتع بالمدينة وحدي بعيدا عن أجساد النساء، نهاياتي معهن دوما مثيرة للضجر من كثرة تكرارها، أسير على حافة النهر ، وسط صفوف من المحلات الصغيرة التي تحتوي على كل أنواع الأسماك المجففة، يقف خلفها بائعون غاية من النحول ، مجففون كالأسماك، أدخل إلى مجموعة من المعابد الذهبية، أدور مع السور الممتد المزين برسوم حكايات المهابهارتا، تأخذني تفاصيل الصور، وجوه بيضاء وعيونها واسعة، "راما" الواثق من نفسه يشرع قوسه للصيد، ولكن سيد الظلام يختطف منه زوجته، كان من الممكن لهذه الزوجة آلا تذهب، ولكنها تنساق وراء رغبة خفية في داخلها، غزال صغير يثير شهوتها فتتبعه إلى ظلمة الغابة، ينكشف الغزال المتنكر عن وجه سيد الظلام ، يختطفها وتبقى معه خمسة عشر عاما كاملة ، تؤكد الزوجة أنها لم تضعف خلالها ولو ليلة واحدة، لم تدع خاطفها يلمس شعرة واحدة منها، يظل الصراع محتدما بين راما وسيد الظلام حتى ينتصر ويخلص زوجته، كان مثل العديد من الأزواج يريد أن يصدق أن زوجته مازالت شريفة ، ولكن الآخرين الأوغاد أصروا على أن تجتاز امتحان الطهارة ، يجب أن تسير على جمر مشتعل، لا أدري ما هي الحيلة التي قامت بها، ولكن الصور تريها لنا وهي تسير بالفعل فوق النار، وكعادة كل النساء استطاعت أن تنجو .

تقودني الأسوار الملونة إلى معبد غريب، فيه قاعة واحدة وتمثال واحد، بوذا نائم بجسده الضخم، مكسو بلون ذهبي ورأسه مستند إلى ذراعه، على باطن قدميه مرسوم كل الحيوات التي عاشها، كان بوذا قد تجول طويلا عبر الأزمنة والعوالم المختلفة، شقاء وحكمة وموت ، تناسخ خلالها مائة وعشر مره في صور مختلفة، لم يكن دائما إنسانا ، مرة كان فيلا ، ومرة كان شجرة تين ، ومرة كان ثعبان، لم يكن بوذا نائما، كان فقط

مسدل الجفنين ، متيقظ دوما كما قدر له أن يكون ، يترقب خطوات الشيطان وهو يحمل له وعود الغواية، أقف أمامه، لعله يرى روحي العارية المرتعدة، لعله يعدني بحياة أخرى لا توجد فيها كل هذه المرارات، يتردد صوته في داخلي : " تعال وأنظر "أدور حول التمثال كالمسوس، أحاول أن أجد إجابة لكل الأسئلة التي تؤلمني، هل من فرصة أخرى، فرصة تبرد فيها رغباتي وأستطيع التعالي عليها بحيث لا تقودني إلى كل هذه الأخطاء، أدرك بشكل غامض انه يراني ويلاحق خطواتي من خلف جفنيه، أضع نذوري، حفنات من العملات المعدنية الضئيلة القيمة، في صف من الآنية المعدنية بجوار التمثال، ينهض بوذا من غفوته تحت شجرة التين، يطرد الشياطين ويفتح جفونه المسدلة قليلا، يقول لي في صوت خافت، كف عن الرثاء لنفسك وتأملها، أقول له باكيا : الجميع يتخلون عني، يقول في صوت خافت وفي لغة أفهمها، أنت لا تفهم الطبيعة الحقيقية للأشياء، الكل زائل، لا شيْ يبقى نفس الشيء، ومن الخطأ أن تنظر للأمور على أنها دائمة ، الحب يخفت والروح تتلاشى و كل صيرورة هي حياة جديدة ، حتى الروح ليست دائمة ، كل شيْ هو ائتلاف زمني مؤقت ، تلك الروح الفردية غير موجودة ، تدهشني حكمة الرجل العجوز، أصيح ملتاعا: فما جدوى السعي إلى خلاص الروح إذن مادامت الروح زائلة ، يقول : إنه وهم الذاتية، فالعالم أوسع من حدود الأنا الذي تدور فيه، إنها تتجاوز رغباتك الضيقة وشهواتك الآنية، الحياة الحرة هي الحياة المتعالية عن الرغبة.

أخرج من المعبد حائرا وقد تكاثرت في داخلي الأسئلة ، لا أعرف إلى أين يسير بي الطريق ، ألوح رافضا كل سيارات الأجرة التي تحاول التوقف لي ، أخوض في الشوارع ، لا أرى ما حولي بوضوح، أشم فقط روائح المدينة القوية التي تقف بي على حافة الاختناق، أواجه التماثيل الصغيرة لبوذا في أركان الشوارع، يجلس صامتا وأمامه أطعمة على وشك التعفن، هذه المرة لا يجيب علي، نفدت الكلمات وساد الصمت، اكتشف أن قدمي قد قادتني دون أن أشعر إلى حيث يوجد فندقي، زحام من الناس يملأ الطريق، وجوه من البشر تتزاحم ورجال الشرطة يحاولون دفعهم إلى الوراء، أحاول أن أتفادى الزحام فأجدني وسطه ، كأن هناك قوة خفية تدفعني حتى أرى الجسد المسجى على الأرض، أسمال بالية ، ودماء غزيرة ، من الغريب أن تنزف كلها من هذا الجسد الضئيل المتداخل الأعضاء ، يحاول الشرطي أن يبعدني ولكني أشهد وجه القتيل وجلده المشدود على جمجمته، الصدر كله ملوث بالدماء ، لا أدري كم طعنة نفذت فيه، والسروال ممزق عند الوسط ، حيث كان يخبئ ثروته التعيسة ، هل كان زجاجا ملونا أم زمردا، لن أعرف ذلك أبدا، تنتاب جسدي رعدة ، يدفعني الشرطي فأتراجع، أواصل الارتجاف ، وفي غرفتي أتطلع إلى وجهي الشاحب المتعب في المرآة، فأجد دموعي ، صامتة وباردة .

- ٣ -

يوقظني طرق على باب غرفتي، أنتفض من الخوف، يحيط بي ظلام كثيف، كأن المدينة كلها قد أطفأت أنوارها، لا أرد ولكن الطرق يتواصل في إلحاح، ربما كان أحد خدم الفندق سوف يمل من الطرق وينصرف ولكني أسمع صوته وهو يقول بلهجته المصرية :

ـ آلا تريد أن تراني ، أنا "على زغلول" ، تركت مطعمي وأشغالي من أجلك.

أنهض متكاسلا وأفتح له الباب، يدخل الغرفة مندفعا وهو يتحدث، تمتلئ الغرفة برائحة البيرة، كأنه قد استحم بها، يجلس على حافة الفراش :

ـ لماذا لم تعد إلى مطعمي، هل أثرت مللك إلى هذه الدرجة، لماذا أنت وحيد، أين الفتاة التي كانت معك؟

أقول في اقتضاب: ذهبت؟

ـ ولماذا لم تحضر غيرها ، عموما سأحضر لك أنا فتاة جيدة بمعرفتي.

في لحظة أخرى كنت سأطلب منه أن يصمت وأن ينصرف، ولكني الآن، وتلك الرجفة لا زالت تهز أعماقي كنت في حاجة لأي إنسان، قلت له:

ـ كيف عرفت مكاني؟

ـ أنا شيخ حواري "بانكوك"، أضف إلى ذلك أن خطوات العرب مرصودة وأماكنهم معروفة أيضا.

يشير إلى وجهي :

ـ تبدو في حالة مرعبة، احلق ذقنك وأرتدي ثيابك، سوف آخذك للعشاء .

أتطلع إليه في دهشة ، يبادرني بالقول قبل أن يسمع مني أي كلمة:

ـ لا تخف، لن آخذك إلى مطعمي، سوف أذهب بك إلى مكان لن تنساه .

ننطلق سويا وهو مشغول بالكلام ، ماذا يريد مني بالضبط، يستوقف أحد سيارات الأجرة ويتحدث معه بالتايية، ينطلق بنا إلى خارج المدينة، نهرب من رائحتها القوية، نغرق في ظلام، كأننا ندخل في غابة قد نبتت فجأة، نظل نخوض فيها صامتين ، ثم أسمع صوت زغلول، لا أعرف عن كان يسألني أم يهمهم إلى نفسه :

ـ أنت تكرهني ، أليس كذلك؟

تبدأ الأضواء في الظهور من خلال أشجار الغابة، أصوات من الموسيقى الشاردة، نقترب من حديقة مترامية تحيط بها الأضواء من كل جانب، زحام من البشر والسيارات أمام بابها، نهبط من السيارة وينبه زغلول على السائق أن يعود إلينا في نهاية الليل، عند الباب تتقدم منا فتاتان ، تلبسان ثيابا حريرية طويلة من الرقبة حتى القدمين ، ولكنها مشقوقة حتى أعلى الفخذ، كل فتاه تعطينا وردة ثم تضع ذراعها في ذراعينا لتقودنا إلى الداخل، نسير فوق جسور خشبية عبر بحيرات تسبح فوقها زهور الباسنت، بجع سابح ، وطواويس تختل على الضفاف، وقردة فوق الأشجار تراقبنا بعيون لامعة، مصابيح من الورق تنير الطريق أمامنا، ونمور تجلس هادئة في الأركان مقيدة بالأغلال وعيونها غائمة، تجلسنا الفتيات إلى أحد المناضد، أحاول التسلي بمراقبة المكان ولكني أكتشف أن زغلول يجلس وقد سلط عينه علي و أقول له محرجا:

ـ كلا ، لست أكرهك، لا أملك الحق في الحكم عليك .

يضحك في مرارة : لا تقلق ، لقد حكمت على نفسي بالفعل ، أنظر حولك أي منفي قذر هذا.

تتقدم منا نادلات المطعم، يلبسن ثيابا بالغة القصر وفي أقدامهن أحذية التزلج، يتحركن بخفة بين المناضد، يضعن أمامنا أطباقا صغيرة فيها أطعمة متنوعة، يطلب زغلول الكثير من الشراب، يعود ويهتف في لهجة متحشرجة :

ـ هذه الفلسطينية اللعينة، لقد حاولت عبثا أن أنسها، لست مدينا لها بشيْ، كان اليهود سيأخذون بيتها على أي حال.

التفت إليه في حدة: مادام الأمر منطقيا هكذا ، فلماذا لا تكف عن التفكير فيها.

يتجرع الشراب التي أحضرته النادلات سريعا ويضحك في مرارة:

ـ لأنها لا تني تظهر لي، كلا.. ليس في الحلم ، أنا لست بائسا لهذه الدرجة، ولكني أراها على شاشة التلفزيون، واحدة من تلك الجموع اللواتي يبكين موتاهم كل يوم.

أسمع أصوات ضحكات صاخبة، على المنضدة المجاورة لنا يجلس جمع من الرجال الضخام بوجوههم الصينية المستديرة، ثيابهم بالغة الفخامة، وروائحتهم معبقة بالعطور، في وسطهم تجلس مجموعة من الفتيات في ثياب لامعة، لا أبذل مجهودا كبيرا لأتعرف على "ماي" وهي جالسة في وسطهم، أغرق عيني في قائمة الطعام فلا أفهم شيئا، في أحد الأركان يقوم بهلوان بالتقافز فوق سلك رفيع، وتصدح فتاة شبه عارية بالغناء، أتطلع إليها مرة أخرى، لم تكن تراني، ولم تكن تشاركهم الحديث، يضع أحدهم يده على كتفها العاري ، يقول زغلول وقد تثاقلت نبرات صوته:

ـ لست مخبولا، أعرف إنها بعيدة عن هاتي الأمهات، هي في يافا وهن في غزة أو في الخليل أو حتى أريحا، ورغم ذلك أراها معهن.

أقول له: لماذا تعذب نفسك إذن، أرسل إليها وأحضرها إلى هنا.

يقول: وماذا لو كانوا قد قتلوها.

يسير صف من خدم المطعم إلى منضدة التجار الصينيين، يحملون أواني فضية وأطباق ومنضدة صغيرة، يقوم أحدهم بشحذ السكاكين ليزيد من درجة حدتها، واضح أنهم سوف يقومون بإعداد طبق من نوع خاص، أتأمل ماي ، والرجل يضغط على كتفها العاري في قوة ، يحاول أن يؤكد أنه يمتلكها، يأتي ندل آخر وهو يحمل في يده قرد صغير جاحظ العينين، يتلوى ويلف ذيله على ذراع الندل الذي كان يمسكه في إحكام، يتلاشى صوت زغلول فلا أعود اسمعه، تبدو ماي غائبة عما يدور حولها، أكتشف إن المنضدة الجانبية تنقسم إلى قسمين، يضعون القرد في المنتصف ثم يعاودون إغلاقها، لا يبقى فقط سوى رأس القرد الصغيرة ظاهرة فوق المنضدة ، بينما بقية جسمه مختف تحتها، أهتف مفزوعا إلى زغلول :

ـ ماذا سيفعلون؟

ينظر نحوهم بعيون محمرة :

ـ هذا هو التخصص الأشهر لهذا المطعم.

تستدير ماي وتحدق مباشرة في اتجاهي، يبدو أنها قد بوغتت بوجودي ، يشحب وجهها وتبتعد بعينيها، يدور القرد برأسه مذعورا، تمسك المنضدة بخناقه وتمنع حركته، يكف الصينيون عن الأكل والضحك ويبدؤون في مراقبة ماذا يحدث، أحس أن المنضدة تلتف حول عنقي، يرفع الندل الذي كان يشحذ السكين يده ويهوي بها في حركة مباغتة على القرد، تدوي صرخته الحادة وتتجمد عينيه في محجريهما، تنشق جمجمة القرد بحيث تطير قشرة الرأس ببراعة ووحشية وتبدو أنسجة المخ الصغير عارية، وردية اللون، حية ونابضة، تتقلص معدتي، ينكب نادل آخر على المخ، ينتزعه من مكانه بواسطة ملقط معدني ويضعه فوق أحد الأطباق، يزينه بأعواد البقدونس والسرخس وفصوص الليمون، أمسك نفسي جيدا حتى لا أتقيأ، أرى عيني ماي وقد تعلقتا بي، لم تعد تبال بالتاجر الصيني الذي كان مازال قابضا على كتفها، يهتف زغلول بي مستغربا :

ـ ماذا بك تبدو على وشك الموت، هذا الطبق غال جدا إنه يعيد إليه قوة الشباب، وهذا التاجر واسع الثراء، في هذه الليلة سوف يستعيد كل مافقده.

يضع الندل الطبق أمام التاجر الذي يرافقها، يزيح يده من على كتفها ويستعد ليمسك الشوك والسكين، هل ستشاركه الطعام ؟ يصفق البقية له في حفاوة، يغرس شوكته فأحس بالاختناق، أنهض مبتعدا، أسمع صوت صياح زغلول :

ـ أين تذهب، السهرة لم تبدأ بعد ؟

لم يكن في هذا المكان الواسع ولا في الغابة الممتدة نسمة من الهواء النقي، أسير مترنحا، لا أصدق إنني اجتاز البوابة، تحول أحد الفتيات أن تعرف ما بي ولكني أدفعها وحيدا، لابد وأن "ماي" تشاركه الآن في مضغ الأنسجة الحية، والدم يلوث شفتيها.

تنقذني إحدى سيارات الأجرة من سيري المتخبط، تأخذني إلى وسط الغابة المظلمة حيث تتوقف ويترك لي السائق الفرصة لأتقيأ بجانب إحدى الأشجار، أشعر بقليل من الحزن والخجل لان رائحتي قد أصبحت كريهة، يقود السائق السيارة صامتا، لا يعرض علي أي عرض، ولا يريني صورا، أجتاز المدينة وجسورها العلوية وأنديتها الليلية تترك في أذني طنينا لا يهدأ، أدرك أنني لن أبقى فيها يوما واحدا بعد اليوم، انقطع ما بيني وبينها، كل رؤية لها قد تحولت إلى كابوس، اقف تحت المياه الباردة في غرفتي بالفندق ، أجمع حاجياتي من الأدراج وأدسها في حقيبتي، أضعه بجانبي جواز السفر وتذكرة الطائرة، لعل رؤيتهما تهدأ من روعي قليلا، أحاول النوم فيغمر العرق جسدي، وأتذكر إنني لم أتناول أي طعام لهذا اليوم، ولا أعتقد إنني قادر على تناول أي طعام فيها، أظل راقدا في الفراش، عاجز عن النوم وعن اليقظة.

اسمع طرقا على الباب، أشعر بالضيق لأن زغلول قد تبعني، ربما كان علي الشجار معه ورفض مصاحبته منذ البداية، هل أتجاهل الرد عليه ، كان يعرف أنني داخل غرفتي، لذلك يعاود الطرق في إلحاح، انهض

متثاقلا معتزما أن أرده دون أن أسمح له بالدخول، أجد وجه "ماي" باكيا أمامي، نقف سويا عاجزين عن الكلام، مازالت ترتدي نفس الثوب الذي شاهدتها فيه في المطعم، مددت يدي، هممت باحتضانها ولكني توقفت، شاهدت هي ترددي وأسرعت بالدخول، أغلقت الباب وهي تقول :

ـ لم أجد إلا أنت الجأ إليك، ساعدني ، أريد أن أعود إلى أهلي.

تجلس على حافة الفراش وتنفجر في البكاء، أجلس بجانبها ، أضع يدي على شعرها لعلها تهدأ قليلا :

ـ ماذا حدث؟

ـ بيت المتعة هذا قاس يا صديقي ، وأنا خائفة من كل شيْ.

ـ وهذا الرجل الصيني، هل يقسو عليك؟

ـ كان هو أول من إفتض عذريتي عندما جئت إلى المنزل أول مرة ، من يومها وهو يعتقد أنني عبدته التي عليها أن تطيع كل نزواته.

تتحدث في صراحة وتدفق، لقد غادرت فراشه في تلك الليلة ورائحة دم القرد لا زالت تفوح من فمه، تركته غاضبا وسوف يدفعه هذا الغضب إلى الجنون، سوف يشعل المدينة من حولها ولابد أن أتباع البيت يبحثون عنها في كل مكان، تتشبث بي وهي ترتعد مثل طفلة:

ـ وجودك بجانبي يشعرني بالأمان، لو كنت وحيدة فسوف يقتلونني في أي لحظة وفي أي مكان.

قلت ساخرا: أو ربما يقتلوننا معا.

ـ خذني من هنا يا صديق، خذي إلى أهلي.

هل كان يجب أن أذهب معها إلى هذا المدى؟ تتكوم في الفراش وتميل إلى جنبها، يغطي الشعر الكثيف وجهها، لا أعرف إن كانت تبكي أم لا، إن كانت نائمة أم مستيقظة، أقف بجانب النافذة، أتأمل ليل المدينة وقد خفت الحركة وخفتت الأصوات، أي رعب يحمله لنا الصباح؟

نتسلل إلى الشوارع المبللة بندى الصباح، وسط صفوف الرهبان الذين يشحذون قوتهم اليومي، وصفوف الفلاحات اللواتي يسرن محنيات تحت وطأة سلال الخضراوات، تتلفت "ماي" في خوف مع كل خطوة، يشرق وجهها حين ترى محطة الحافلات مزدحمة بالمسافرين، نختفي وسط رائحة أنفاسهم الثقيلة، نتزاحم وسطهم لنأخذ مقعدا في أتوبيس الجنوب، تجلس ملتصقة بي وتسدل أستار النافذة، نبدأ الرحيل قبل أن تشرق الشمس، نظل غارقين في مقعدنا حتى نتأكد من أننا قد ابتعدنا على المدينة، أزيح الستائر قليلا، نمرق عبر نفق جبلي، نخرج منه لنرى الشمس وقد اكتمل سطوعها، ندخل في طرقات جبلية متعرجة، سفوح الجبل منحدرة إلى أسفل، تكسوها الأشجار الخضراء، خلفها هوة بلا قرار ، إلى أين تقودنا هذه الرحلة، تنام على كتفي.

نهبط إلى السهل عند الظهيرة، نتوقف تحت ظلال نخيل جوز الهند، نستريح قليلا ونتناول أول طعام لنا، لدائن ناعمة من الجوز النيْ وشراب لبني، نتأمل عشرات من الطيور الملونة وهي تطير قريبا من رؤوسنا، تتنفس "مي " الهواء البارد القادم عبر الغابة وتقول:

ـ منذ زمن بعيد وأنا أريد أن أغادر المنزل، ولكني لم أكن قادرة على ذلك، عندما مرت بي الأيام الأولى كنت أستمتع بالجنس، كان الزبائن يضحكون على من شدة اندماجي ومن بلوغي السريع، ثم تحول كل زبون بعد ذلك إلى كابوس، الجنس يصبح مؤلما يا صديق حين لا ترغب فيه، كل من تعلقت بهم كانوا يتركونني ويرحلون، وحتى الذين كانوا يعودون منهم إلى المنزل ، كانوا يختارون فتيات أخريات، معظم الزبائن كانوا ينظرون إلي ولا يرونني حتى ونحن في نفس الفراش، ولكني لم أكن شجاعة الفرار، كنت أقول لنفسي وأنا أجفف جسدي بعد كل زبون ، أن هذا غير حقيقي، أن هذا ليس جسدي وأن روحي قد غادرته وأنها تقبع في مكان ما تتحين الفرصة لتثب في جسد آخر، ولكني لم أكن أستطيع تجاهل الألم يا صديق، هذا التاجر الصيني لم يكن يصل إلى رغبته إلا مع أقصى درجات الألم التي أحس بها، فجأة أحسست انه حتى هذا الجسد غير الحقيقي لم يعد قادر على الاحتمال.

نعاود الرحيل، عبر الغابة الممتدة كنت أنا الذي أتحدث هذه المرة، آسى ولوعات لا حد لها، تتبدد السحب وتنفرط الطيور ولا تظهر زرقة البحر، نواصل الارتفاع حتى تتسلل قطعة من الغيوم إلى داخل السيارة، تتجول بين الرؤوس مثل حلم ضائع، يسير السائق على مهل ويبدأ في الانحدار مبتعدا عن الغيوم، تبدو زرقة بحر الصين أخيرا، تأخذ في الاتساع ببطء حتى تملأ الأفق من الحافة إلى الحافة، تنحدر الشمس وسط أمواجه تاركة مزقا من اللون الأرجواني القاني، تتوقف الحافلة أخيرا على حافة الخلجان التي تكون بحر العندمان ، كأنه أحد بحار الوهم التي تبعث في كتب الحكايات القديمة، تهتف "ماي " في امتنان وهي تضغط على ذراعي:

ـ لا اصدق إنني قد أصبحت بهذا القرب من قريتي، أي قارب يمكن أن يعبر هذه المياه ويصلني إليها.

لم تكن هناك قوارب ترحل ليلا، سرنا إلى نزل صغير على الشاطئ، وابتسمت "ماي " ونحن نطلب غرفة واحدة للمبيت، تبدو سعيدة لأنها سوف تقضي الليلة الأخيرة في أحضاني، نستريح قليلا في الغرفة ثم نعاود الانطلاق، قرية صغيرة معظم بيوتها من أعواد "البامبو"، على الشاطئ وتحت أشجار النخيل تمتد العشرات من عربات الطعام، تزدان بالمصابيح الورقية الملونة، وتعرض صيد المياه الدافئة، أسماك وجراد البحر ومحار، نجلس على أحد الصخور ونأكل في شهية وهي لا تكف عن تقبيلي، نصعد إلى الغرفة ونستحم سويا في حمامها الضيق المتسخ قليلا، نتلامس في رقة، ونتدثر بالأغطية ونحن نضحك في جذل، ألمسها في حذر وأنا أتذكر كل ما قالته لي من كلمات، تريني جسمها ، كل ما فيه من جروح صغيرة، كل الأشياء التي تعودت أن تخفيها عن الزبائن، أتحسسها في شفقة ولكنها تتعلق بعنق :" عانقني يا صديق، اترك لي ذكرى طيبة

لهذه الليلة "، نمارس الحب في إيقاع دافئ متصل، تهمس: " لن أنسى هذه الليلة أبدا يا صديق"، تضع رأسها على صدري وتستغرق في النوم، أسمع أنفاسها وهي تتردد في هدوء وأتنفس من خلال شعرها.

نسير إلى الشاطئ مع إشراقة الشمس الأولى، نصعد إلى ظهر مركب قديم مليء بالبشر والحيوانات والسلال وبراميل المياه العذبة وشباك الصيد، تنظر إلي وهي تقول :

ـ إذا أردت، يمكنك أن تودعني هنا، لم يعد يفصلني عن أهلي سوى القليل من الماء.

لا أرغب في أن أتركها، تحيط بنا وجوه الصيادين العجائز والنسوة اللواتي يضعن قبعات القش فوق رؤوسهن، ينظرون إلينا في استغراب، أنا الوحيد الذي يحمل وجها غريبا، تقف "ماي" ملتصقة بي، كأنها تحاول أن تحميني من نظراتهم، يتحرك المركب عبر بحر ساج الموج، تبرز أمامنا قمم خضراء من الصخور كأنها رؤوس حيوانات غرقى، يمرق القارب وسط مغارات يكسو جدرانها الطحلب والملح، تشهق "ماي" وتملأ صدرها بالهواء وعينيها بكل التفاصيل، تترك شعرها يواصل التطاير في حرية، تعاود الامتزاج بالطبيعة التي تحيط بها، اكتشف أنها قد عادت إلى عالمها وأنني على وشك أن أفقدها إلى الأبد، علي أن أعود إلى عالمي، بكل ما فيه من زيف وحقيقة، إن كان ثمة حقيقة في انتظاري، هذه الرحلة هي نقطة التماس الأخيرة فيما بيننا.

يطوف المركب على أكثر من جزيرة صخرية، وتشتد حارة الشمس، تسبح حولنا سفن مثلثة الأشرعة تشبه سفن القراصنة، تشير "ماي " بإصبعها وهي تقول في صوت مبهور : "هاهي"، من خلف حافة الأفق، تبرز قمة خضراء ببطء من جوف الماء، جبل صغير شبيه بهرم طاف، أمام الجبل تمتد قرية صغيرة فوق سطح الماء، يقترب القارب ويظهر المزيد من تفاصيلها، قرية كلها من الخشب، ترتكز في عرض المحيط فوق دعامات خشبية، وجهها للماء وظهرها للجبل الصغير، أقول لها في صوت مبهور:

ـ كيف بنيتم هذه القرية؟

تقول: أهلي من غجر البحر، لا يستطيعون العيش فوق اليابسة، أنا نفسي كنت أختنق في "بانكوك" .

يقترب المركب من الحافة الخشبية للقرية، يلقي حباله، أتأمل الأعمدة التي ترتكز عليها القرية، لونها أسود وتتسلق عليها الطحالب، أخطو فوق الحاجز، أتأمل البيوت الخشبية الصغيرة المتلاصقة، كيف أمكنها أن تقاوم عواصف بحر الصين وأعاصيره؟ كيف تحمل أناسها ليالي البرد الطويلة، أدرك فجأة لماذا باعت "ماي" نفسها من أجل قارب، أمد يدي وأساعدها علي الصعود، لا تصدق نفسها، تدبدب بقدميها وهي تدور حول نفسها راقصة، تحتضنني في امتنان، ارتفعت صفارة المركب إيذانا بالرحيل، تمسك "ماي" بيدي وتجرني إلى داخل قريتها:

ـ اقض معنا بعض الوقت ، سيعود المركب في المساء.

نسير على الممر الخشبي الذي يقسم بيوت القرية، كل بيت حجرة واحدة، بلا نوافذ، أحس بيد "ماي" في يدي والحرارة تنسحب منها شيئا فشيئا، تتسرب منها نشوة الوصول الأولى، يندفع أمامنا صف من الأطفال

الصغار، مدرسة مفتوحة الأبواب يحيط بها سور صغير، يظهر الحوش الذي تتوسطه سارية علم، تتوقف "ماي" وتحدق في الأطفال بعيون ساهمة، تنحدر منهما دمعتين صامتتين، تبكي طفولة ضاعت وروح جفت على اليابسة، تتطلع إلينا وجوه النسوة العجائز الجالسات وهن يرتقن الشباك، نصل إلى نهاية القرية حيث يوجد سفح الجبل الضيق، ألمح شواهد القبور المتراصة، قبور الغجر من أهل القرية الذين لا يرتاحون على اليابسة إلا في الموت.

نقف أمام كوخ وحيد، أخشابه متآكلة ومليئة بالشقوق، تقول في وهن: "هذا بيتنا"، تقف عاجزة عن أن تقوم بخطوتها الصغيرة، تطلعت إلى قارب مربوط يتراقص فوق الماء، تتطلع نحوي وكأنها لا تراني ، أقول لها: " يحسن بك أن تدخلي"، تفيق من لحظة الشرود، تمد يدها وتزيح قطعة القماش، يندفع الضوء إلى داخل الكوخ المظلم، ألمح عجوزين في الداخل، رجل وامرأة، نحيلين وملتصقين كأنهما جسد واحد، يحدقان فينا في فزع، أشم رائحة الكوخ الثقيلة، تنحني "ماي" ، تخر على ركبتيها، تسير عليهما حتى تصبح داخل الكوخ، يحدقان فيها كأنه شبح عائد من موت محتم، تمد يدها وتلمس قدم أبيها فيهتز في حركة واهنة، تقول :

ـ يا أبي ، يا أمي، لقد عدت؟

تجهش الأم في البكاء فجأة وهي تقول:

ـلماذا فعلت بنا ذلك، لقد سبقوك إلى هنا، أخذوا أختك الصغرى.

الكويت ٢٠٠١/٧/٢٥

زبيدة

أقف خلف النافذة أرقي سيول المطر وهي تنهمر فوق واجهات البيوت المتربة، كأن المدينة تبكي بدمع متسخ ، حبات المياه الثقيلة تلطم الزجاج فتملأوني بالحزن ، رغم المطر لم تخف درجة الزحام في الشارع، وجوه سمر وأجساد نحيلة وعرق مختلط برائحة الكاري ، وعربات الركشة المتتابعة لا تتوقف، ودرجة الحرارة لا تنخفض ، الجو خانقا ، هواء المكيف أصبح ساخنا رغم أننا كنا ما نزال في الصباح المبكر ، أفطن أخيرا إلى أن هناك طرقات أخرى على باب الغرفة ، لا بد وإنه الخادم قد جاء ليأخذ صينية الإفطار ، افتح الباب فأجد خلفه وجه أيوب خان ، يهز رأسه وهو يبتسم ، تظهر أسنانه المصفرة وتبدو الحفر التي في وجهه واضحة ، لم أكن عندي رغبة في الحديث مع أحد ، واعتقد أن أيوب خان قد جعلني كارها للجميع ، كان يلاحقني مثل ظل شاحب منذ أن هبطت إلى هذه البلد ، يحس إنني قد ترددت في فتح الباب ، يهتف وهو يهز رأسه علامة على الاحترام ويلوح بالحقيبة الجلدية المتهرئة التي يمسكها في يده :

ـ لقد أحضرت كل شي، كل الأوراق اللازمة .

أزيح السلسلة التي كانت تسد الباب ، يدخل وينحني أمامي انحناءة طويلة وقد ضم كفيه ووضعهما أمام صدره ، ثيابه المبللة تفوح برائحة العطن النى كانت مختبئة فيها ثياب ، بدت الرائحة ثقيلة في جو الغرفة الخانق ، تمنيت أن يقول ما عنده ويذهب سريعا والأفضل ألا يكون عنده ما يقوله ، يجلس على طرف السرير وهو يحذر حتى لا يلوث الملاءات ، لا يستطع أن يقاوم بقايا طعام الإفطار الذي أمامه ، أرى نظرة الجوع وهي تستيقظ في عينيه واضحة وصريحة ، أشير له أن يأكل فيبدأ يحشو فمه الكلام في نفس الوقت :

ـ لقد وجدت الفتاة المناسبة واتفقت مع أهلها على الأجر وقد أعددت أيضا كل الأوراق، سوف تقابل أهلها بنفسك، لقد أعطوني كل ما يخصها من أوراق ثبوتية ونستطيع اليوم أن ننهي كل شيْ .

أشيح بوجهي بعيدا حتى لا أرى فمه المتلئ بالطعام ، أزيح ستارة النافذة، ازدادت حدة المطر، أقول :

ـ هل تتصور إننا نستطيع الخروج في هذا المطر ؟

يبتلع الطعام بسرعة وهو يقول :

ـ وهل تسمي هذا مطرا، إنها مجرد دموع للسحب ، تهمي أحيانا وتتوقف أحيانا ولكن الحياة لا تتعطل.

يشرب كوبا من الشاي البارد في دفعة واحدة ، ويضع الحقيبة تحت إبطه وهو يشير لي قائلا:

ـ أسرة الفتاة في انتظارنا ، إنهم يقيمون في قرية صغيرة خارج "دكا" وسوف يأخذ الطريق منا بعضا من الوقت .

ما أزال مترددا، ولكن لهجته الحاسمة، وعدم مبالاته باعتراضاتي تجعلني مسوقا خلفه رغم أنفي، يفتح الباب ويقف بجانبه في انتظار أن الحق به ، أتناول معطفي وأضعه فوق كتفي بعد أن أتأكد أن معي كل ما يلزم من نقود ، أسير خلفه عبر الردهة الطويلة الخالية ، يواصل الحديث بسرعة وهو يشير إلى الحقيبة ، ربما ليمنعني من التراجع، يتحدث عن أوراق السفر المفروض إعدادها وأذون السفارة التي يجب أن تستخرج وكمية "السومات" التي يجب دفعها لموظفي الحكومة على سبيل الرشوة ، مبالغ تافهة ولكنها بالنسبة إليهم شيئا مهولا، لا يتحدث عن أجره أبدا ، ربما بدافع من الخجل الغريزي ، أو ربما لأنه يريد ألا يبخس قدر نفسه، أضع مفتاح الغرفة على منضدة الاستقبال ، ينهض الموظف بسرعة وهو يضع يده على صدره هاتفا: سلام عليكم، هم الذين يبادرون دائما بالسلام ، يفعلون ذلك في ذل واستكانة، أمام الفندق يجلس العشرات مستندين إلى الجدار، غير مباليين بالمطر ، يحدقون فينا بعيون صغيرة مستديرة ، يبدأ في التساقط فوق رأسي، أظل واقفا مختبئا تحت الإفريز بينما يتقدم أيوب خان ويشير إلى إحدى عربات " الركشه " ، لم تكن العربة أكثر من دراجة قديمة، معلق فيها مقعد جلدي تعلوه مظلة ، يقودها غلام بالغ النحول ، رفيع الساقين لدرجة تعتقد فيها أنهما على وشك الانكسار إذا احتملت عربته أي وزن زائد ، في الأيام الأولى لإقامتي في المدينة لم أكن أجرؤ على ركوب هذه العربات ، كانت تبدو لي غير إنسانية بطريقة مرعبة، وكان لهاث السائقين وهم يحركون أقدامهم وسط الشوارع المغبرة الحارة يلاحقني حتى بعد أن اغلق علي باب غرفتي ، ولكن ندرة سيارات الأجرة جعلتني أستسلم لركوبها وأنا خجل من بطني البارزة والشحم المتدلي من وجنتي، أقول في استنكار وأنا أشير إلى السائق النحيف:

ـ هل يقدر هذا الغلام على حملنا سويا .

يقول أيوب خان وهو يقفز راكبا :

ـ إنه قادر على حمل نصف مدينة " دكا " ، هيا حتى لا نتأخر .

أركب بجانبه ، ننحشر معا في المقعد الضيق ، وتبدأ العربة في الانزلاق وسط الماء ، يبدأ ساقي الغلام في الحركة صعودا وهبوطا ، وينشق الماء أمامه كأنه موسى صغير ، لحسن الحظ تخف حدة المطر ويتحول إلى قطرات خفيفة وتبدو المدينة أخيرا باهتة وخجولة ، انكشفت ألوان الجدران التي كانت مطموسة تحت السناج الأسود، وبدا أن الشجر الأخضر يعود التنفس من جديد ، خفت أصوات الحركة والزحام وإن لم تخف درجته ، كان الناس قد اكتسبوا شيئا من النعومة والانسيابية ، أذابت الأمطار القليلة كل حدة الزحام وعدوانيته ، صفوف من النسوة الصغار في السن ، الضآل في الحجم يخرجن من الجراميس ، مصانع الخياطة التي تحتل أدوارا بأكملها في عمارات متعددة ، كان ينكفئون طوال اليم على حياكة الملابس التي تحمل أشهر الماركات العالمية دون أن تحلم واحدة منهن بامتلاك قصاصة منها، يجلسن منكفئات على الأرصفة المبللة ، يستنشقن القليل من الهواء النقي ويأكلن حفنات من الأرز موضوعة على قطعة خضراء من ورق أشجار الموز ، تواصل "الركشه "سيرها ، تفلت ببراعة من طوفان السيارات القديمة التي عطلتها الأمطار ، يصرخ شرطي المرور يصرخ ويضرب زجاج السيارات

بعصاه دون جدوى ، ندور حول منازل قديمة من الطراز الإنجليزي وقد تآكل قرميدها ، تبدو أسوار قلعة المغول عالية الأسوار، حمراء كأن قرميدها قد عجن بالدم ، والركشه تواصل سيرها .

تتراجع المدينة فجأة، تختفي المباني المرتفعة ويتآكل الإسفلت ، كأننا قد دخلنا إلى عالم آخر ، تظهر أكواخ من أعواد الغاب كأنه أضلاع عارية ، وتتوالى وجوه الأطفال الشاحبة المصوصة ، جموع من النسوة يجلسن متواجهات ، يمسكن الهروات ويقمن بكسر الحجارة الحمراء ، الأطفال يجرون حولهن ، تواصل الركشو سيرها ، أنظر إلى ظهر سائق العربة وهو يتمايل يمنة ويسرة ، أسمع صوت لهاثه ، وقد بدأ يعلو ، نسير وسط طريق طيني مليء بالحفر ، يضيق كلما واصلنا السير ، لا يعود يتسع إلا لإطاري العربة فقط بينما تمتد المستنقعات الخضراء العطنة على الجانبيين ، نجوس فوق أرض زلقة ، تكفي لفة زائدة يقوم بها سائق الركشه حتى نصبح جميعا داخل مياه هذا المستنقع ، أهتف في حنق :

ـ إلى أين تأخذني ، لقد ابتعدنا عن العمار

يحني رأسه وهو يقول :

ـ من قال هذا ، هذه المستنقعات مليئة بالناس ، أرضنا أشد بلاد الدنيا انخفاضا ، وقد تعودنا على العيش وسط المستنقعات بشكل دائم ، أنظر بنفسك .

عبر مساحات الريم الأخضر ، وسط أحراش من الغاب والعشب البري، تبرز أمامنا بعض من الأكواخ المتناثرة ، لا يظهر البشر ولكن آثارهم موجودة ، بقايا ملابس منشورة ، وقدور سوداء ، لا ألمح أي نوع من القوارب ، كيف يخرجون من أعماق هذه المستنقعات إلى اليابسة ، لا أسأل، أشعر بضيق والخوف من الانزلاق في أي لحظة، اهتف:

ـ لا يهمني ذلك ، كل ما أريد أن أعرفه هو إلى أين تذهب بي ؟

يشير إلى نقطة ما خلف الأفق، خلف المستنقعات والخضرة العطنة ، و الغلام يخب على الدراجة دون جدوى ، تظهر الحقول المغطاة بالماء ، والبيوت المبللة بالماء ، كل شيْ هنا يعيش وينمو وسط الماء، أوشك أن أصرخ فيه طالبا العودة، أتذكر وجه ابني الصغير ، ووجه زوجتي الغاضب دوما ، المنهك دوما ، هل يمكن أن يحمل هذا المشوار نهاية لهذا التعب والإنهاك، علي أن أصبر قليلا ، نخرج إلى عراء واسع، إلى حافة مستنقع أكثر امتدادا واتساعا ، مقامة عليه عدة أكواخ من الغاب ، يجلس على الأرض مجموعة من الناس في استرخاء وهم يلوكون "البان" يبدو ذلك واضحا من حمرة أشداقهم ، يشير أيوب خان بإصبعه وهو يهتف :

ـ هاهو المكان ، لقد وصلنا

على الجانب الآخر من المستنقع وفوق تله مرتفع تبدو بيوت القرية ظاهرة ، يحيط بها دغل من أشجار النخيل والموز ، بعيدة ونائية ، والمستنقع يمتد أمامها مثل حيوان رخو ، مستغرق في خضرة الريم الكثيفة، والبيوت متلاصقة في خوف ، كأنها تحاول عبثا أن تحمي نفسها من بطشه، أتلفت حول حائرا دون أن أجد قاربا واحدا، أشير في يأس إلى القرية :

ـ كيف يمكن أن نصل إلى هذا المكان المنقطع؟ لا يوجد أي قارب

يقول أيوب خان في يقين : وما حاجتنا إلى قارب ، هؤلاء الرجال سوف يقومون بالمهمة .

أتطلع إليه دون أن أفهم شيئا ، أردد البصر بينه وبينهم ، يمد سائق العربة يده ليطلب اجره ولكن أيوب خان يأمره في حزم أن يبقى في الانتظار حتى نعود، ينصاع الولد، يتناول قطعة من "البان "ملفوفة في ورق الشجر الأخضر ويجلس بجانب الرجال وهو يلوكها في صمت، أكتشف أن أيوب خان لم يعد ذلك الرجل المطيع الذي كان يسير في أعقابي طوال الأيام الماضية، أصبح الآن يكتسب سطوته من المكان ومن مواطنيه الذي يحيطون به، أتحول أن تدريجيا إلى مجرد غريب عليه أن يخضع ـ دون أن يفهم ـ لشروط اللعبة ، أقول له متضايقا :

ـ ماذا تقصد ؟

ـ سيحملوننا على أكتافهم طبعا ، هكذا تتم الأمر على ضفاف المستنقعات ، إنهم الوحيدين الذين يعرفون الطرق التي يخوضون فيها .

أحدق فيهم ، فيحدقون في بابتسامة ميتة ويواصلون لوك "البان "، أتأمل أجسادهم الضئيلة وسيقانهم النحيفة وأكتافهم الضيقة التي لا يكسوها إلا طبقة رقيقة من الجلد ، يقول أيوب خان وقد لاحظ ترددي :

ـ لا يغرك منظرهم، أنهم أقوياء ومدربون على كل الأوزان .

أقول من بين أسناني: ولكنه أمر مهين أن أجلس على كتف أحدهم ، هذا شيْ لا يستسيغه أي عقل .

ـ لا مكان للعقل في بلادنا ، لو لم نركب أنا وأنت وغيرنا فوق أكتافهم لماتوا جوعا ولبقيت هذه القرية معزولة إلى الأبد .

هل تورطت ومضيت إلى ابعد مما ينبغي من أجل غرض تافه، تخيلت نفسي أعود ووجه زوجتي المنهك في انتظاري، وهي ترفض دخول المطبخ أو القيام بالتنظيف، وهي تصرخ لأنها لن تضيع عمرها في هذه الأشياء ، في كل يوم تتشاجر مع خادمة، وتصرخ في ، مادمت ذاهبا إلى البلاد التي تأتي منها الخادمات ، لماذا لا تتنازل وتحضر لنا واحدة ، أم حسبت إنني الجارية البيضاء التي اشتروها لك ، ثم تصل سريعا بعد ذلك إلى مرحلة الارتجاف وتصبح غير قادرة على التقاط أنفاسها ، تخرج من البيت صباحا قبل أن أخرج ولا تعود بعد عودتي ، ويبقى الولد حائرا ، عاجزا عن التواصل مع الأشخاص المؤقتين الذين يتوالون عليه .

ينهض واحد من الرجال ، يدور حولي كأنه يقدر وزني ، يهز رأسه ويتحدث إلى أيوب خان الذي يقول لي:

ـ إنه يطلب أربعة آلاف سوما حتى يحملك ، إنه أربعة أضعاف المبلغ الذي يأخذه من القرويين ، ولكنك غريب كما تعلم .

كنت غبيا لأنني حسبت إنني قادر على مساومة لا معنى لها ، أقول : سوف أدفع ألفين فقط ، غاصت ابتسامة الرجل ولكنه ظل يهز رأسه ، انحنى أمامي في استسلام مبتذل ، أدار ظهره لي وأقعى على الأرض منظرا

من أن أمتطي كتفه ، يا إلهي ، لماذا وصلت الأمور إلى حد ، أتأمل كرشي ، وأحس بثقل أنفاسي ، أقول مترددا لأيوب خان : هل أنت متأكد أنه سوف يتحمل

ـ إنها مهنته ، لقد عبر هذا المستنقع آلاف المرات .

أضع ساقي اليمنى فوق كتفه ، تسري ارتجافه جسده إلي ، أضع الساق الأخرى فيمد يديه ويشد الساقين في إحكام حتى يصبح كرشي فوق رأسه وقفاه ملتصق بفخذي ، أرتفع من فوق الأرض ، أوشك أن أفقد توازني فأشد على شعره، كان مدهونا وزلقا ، لكنه لا يصدر أي صوت، يخطو في ثبات نحو المستنقع ، ألمح أيوب خان بطرف عيني وهو يعتلي كتف الرجل الآخر ، نصبح داخل الماء الأخضر العطن ، خطوات قليلة ويحيط بنا من كل جانب، أغوص ببطء حتى يلمس طرف حذائي سطح الماء ، أتشبث بشعره أكثر ، تختلط رائحة الدهون المنبعثة منه، مع رائحة الطحالب والعطن ، نبتعد عن أي ضفة يمكن أن تستند إليها ، نصبح وحدينا في مواجهة ذلك الحيوان الأسطوري ذي السطح اللامع الأملس ، غير بعيدين عن جوفه الملئ بالطين الخادع والهوام والطحالب والديدان الشرهة ، يعكس ضوءا رماديا مرتجف ، يقشعر عن دوائر صغيرة كلنا هبطت عليه قطرة من المطر ، نسير كثيرا ولكن الشاطئ مازال بعيدا ، يتوقف الرجل ، يثبت أقدامه في الطين ويتصلب جامدا ، هل يريح نفسه قليلا، أشد شعره مرة أخرى ولكنه لا يتحرك ، أقول متوجسا :

ـ ماذا بك ؟ لماذا توقفت ؟

يقل بالإنجليزية وفي لهجة باترة : عشرة

لا أفهم ، أوشك أن أركله ولكني أخشى أن أسقط في الماء ، يهتز جسده ولكنه لا يسير ، يتمايل قليلا حتى أوشك أن أفقد توازني ، أتشبث بشعره وأنا أصرخ :

ـ لا تفعل هذا ، سر أيها الغبي .

لا يفعل ، ألتفت فلا أجد أيوب خان ، ألمحه هناك وهو يهبط على الضفة الأخرى ، بينما مازالت أنا مسمرا في وسط المستنقع ، أسمعه وهو يقول مرة أخرى بإنجليزية ركيكة ولكنها مفهومة :

ـ عشرة آلاف سومو

أدرك أخيرا مدى غبائي ، أدرك أيضا أنني قد ساومت في الوقت الخاطئ والمكان الخاطئ أيضا، إنه يختار الوقت والمكان ويطلب عشرة أضعاف السعر الأول ، يؤازره في ذلك هذا المستنقع الواسع بكل ما فيه من ديدان شرهة ، كنت خائفا ، خففت أصابعي عن شعره بقدر ما أستطيع وأنا أقول :

ـ سأعطيك ما تريد ، ولكن امض بي إلى الشاطئ .

قال : إريدها الآن

لهجته لا تحتمل أي نوع من التحايل أو المفاوضة، أدخل يدي في جيوبي، وأبحث بأصابعي المرتجفة عن أي نقود من السهل الوصول إليها ، وجدت كومة من الأوراق ، أخرجتها بحذر ، ولكنها رغما عني تتساقط على سطح الماء ، أتأوه في ألم ، ولكنه يتحرك بسرعة كأنه لا يحمل شيئا ويلتقطها ، يخفيها في يده

بسرعة حتى لا اعرف قيمتها ثم يأخذ في التحرك ، يسير نحو الشاطئ الذي حسبت إنني لن أصل إليه أبدا ، أيوب خان يقف في انتظاري، يرى مقدار حنقي وغضبي ولا يفعل شيئا ، أبدأ في السباب بعد أن أحسست بنفسي أقف على الشاطئ ، ألتفت في غضب لأقبض على عنق هذا المخادع ولكنه أسرع مني ، يعود إلى منتصف المستنقع ويقف يراقبني وهو يضحك ، الرجل الآخر كان يضحك ، أصيح في أيوب خان :

ـ أرآيت ما فعله بي ، يجب أن تفعل شيئا لهذا اللعين

يقول في حكمة أسيوية :

ـ تذكر إننا سنعود على أكتافهم

أصمت فجأة ، كان يجب أن أصمت ، أتأمل وجوههم وقد دبت فيها الحياة ، والابتسامة الميتة وقد تحولت إلى ضحكة طفولية مشاغبة ، دون ضغينة أو شراسة ، كنت أنا أيضا طفلا ، لم أدرك أنه لم يكن ليلقيني في الماء ، لقد استغل فقط حالة الرعب الطفولي التي تلبستني ، فلت لأيوب خان وأنا ازفر أنفاسي :

ـ هيا فلنواصل طريقنا .

نخوض في الطين الذي يغطي التل صعودا إلى القرية ، يبتعد عطن المستنقع وتحيط بنا روائح الزرع والروث ، لا أدري إن كان المطر مازال مستمرا أو أنه توقف ، كنت أنتفض من شدة البلل ، يستوي الطريق ويتحول إلى ممر طيني ضيق تحيط به الأشجار والنخيل من كل جانب ، كانت غصون الأشجار متماسكة في الأعلى لدرجة أن قطرات المطر لم تستطع النفاذ من خلالها ، بدا كأن عبور المستنقع كان مجرد برزخ يعبر بنا من الحقيقة إلى الوهم ، أحاطت بنا من كل جانب قصور قديمة مبنية من الآجر الأحمر، بقايا جدران وأبواب محترقة وأعمدة آيلة للسقوط ورسوم قديمة جلتها قطرات المطر فدبت فيها حياة واهنة ، بعث زائف ، زخارف من الزهر وغابات تترافق فها القرود والثعابين ، ملوك رغم لحاهم الكثيفة تنحدر عيونهم النفاذة دموع من المطر ، وملكات رقيقات يذبن من البلى والنسيان ، يرقصن رقصة متضرعة للقدر الذي لا يرحم ، حلم شرقي مهيب وعتيق ، يهمس أيوب خان كأنه يخشى أن أفيق :

ـ من هنا حكم ملوك المغول كل القارة الهندية ، والآن لا يجد أهل هذه القرية طعامهم اليومي .

أفيق لأجد عشرات العيون وهي تحدق في ، رجال يلبسون أردية متسخة ونسوة حافيات وأطفال متوجسين، يملأون نهاية المر الذي نسير فيه ، يحيطون بنا عندما نصل إليهم ويسيرون معا ، ألتفت متسائلا ، يهز أيوب خان كتفيه :

ـ إنها قرية صغيرة وهم يعرفون جميعا أنك قادم لأخذ واحدة من بناتهن .

ندخل ساحة القرية فتعلو روائح السبخ والروث المحترق ، بيوت واطئة تنوء بأكوام القش المبلل فوقها ، دجاجات مرعوبة تعبر الطريق ، وبقرة بيضاء هزيلة لحد مرعب تحدق فينا وهي تلوك شيئا ما ، يبدؤون في الهمهمة والتساؤل ، أحس أن الموقف قد تحول ليصبح كابوسا بلا يقظة ولا خلاص ، نقبل على جمع آخر من الناس يحيط بأحد البيوت ، أدرك أن هذا هو البيت الذي نقصده ، ربما كان محاصرا منذ الصباح ، يهتف

أيوب خان وقد بدأ الخوف يتسلل إلى نفسه : لندخل بسرعة ، ندفع الباب الخشبي فيكاد يتداعى تحت أيدينا ، نصبح فجأة في ظلمة البيت الرطبة ، أستند إلى الجدران محاولا أن ألتقط أنفاسي ، كيف جئت إلى هذا المكان وهل أستطيع الخروج منه حقا ؟

تتعود عيناي على الظلمة فأستطيع أخيرا أن أرى الكائنات التي تسكن المنزل ، عائلة أخرى متكومة وهي تحدق فينا في خوف ، نظل واقفين مجمدين وكل منا يحدق في الآخر ، ينهض واحد من وسط الكومة ويفتح نافذة صغيرة فيبدو المستنقع من بعيد ، يتسلل ضوء رمادي شاحب فأراهم بوضوح ، الأب ـ أو الشخص المفروض أن يكون ذلك ـ يقف محني الرأس بجانب النافذة ، يعاني من خجل وجودنا داخل بيته ، وفي الركن تجلس الأم ـ أو المرأة المفروض أن تكون كذلك ـ ملتصق في حضنها بنتان واحدة كبيرة والأخرى أكبر سنا ، والثلاثة يحدقن في فزع كأنهن يشاهدن ملاك الموت ، ، وغير بعيد عنهما توجد كومة أخرى غير محددة العدد ولا المعالم ، تبرز منه عدة أذرع ورؤوس صغيرة ، لا أحد يتكلم، أحس بجفاف كبير في حلقي فأعجز عن قول أي شيْ ، أيوب خان هو الذي يبدأ في التحرك ، يقترب من الأم ويحاول أن يجذب الابنة الصغرى بعيدا عنها ، تصرخ البنت فجأة وتلتصق بأمها أكثر ، ترمقنا الأم بنظرة عدائية مقيتة ، يتراجع أيوب خان محرجا للمرة الأولى منذ أن عرفته .يقول لي وهو يشير إلى الفتاة :

ـ هاهي " زبيدة " التي حدثتك عنها ، لا تنزعج من هذه الصرخة فالجميع موافقون ، بل أنهم هم الذين سعوا خلفي متوسلين .

أبلع ريقي وأنا أقول في صعوبة : لم أكن أتصور أنها صغيرة إلى هذا الحد ..

يقاطعني بضحكة جافة :

ـ هذا أفضل ، كلما صغر السن ، صغرت المشاكل .

أحاول أن أتخيلها وهي تملأ بيتنا وتلاحق طلباتنا بجسدها النحيل ، وهي تسعى في الشوارع الغريبة ، منفى واسع ممتد ، خارج القرية وبعد حدود المستنقع والنهر والمحيط ، هل يتحمل مثل هذا الجسد الصغير كل هذه الرحلات النائية ، فلت وأنا أنظر للفتاة الأخرى :

ـ لقد حددت لك السن وأنا أفضل الكبرى .

قال متوددا : الصغرى أفضل ، صدقني ، هذه الكبيرة يعدونها للزواج الآن ، هذا إذا تمت الصفقة بينك وبينهم .

ـ أي صفقة ؟

قال : إنه نفس الاتفاق تقريبا ، ستحصل على خادمة ماهرة ، لن تبقى معك لسنوات قليلة فقط ولكن إلى العمر كله لو أردت ، كل ما في الأمر أن الاتفاق مع هؤلاء الناس قد تغير قليلا .

أنظر إلى الرجل وهو يضم يده نحوي متوسلا حتى أقبل صفقة لا أعرفها ، أنظر إلى زبيدة الصغيرة وقد اتسعت حدقتا عينيها ، هل كانت تفهم ما يقوله أيوب خان لي ، تدخل في أمها أكثر كأنها تريد أن تختفي عن أعيننا ، أهتف:

ـ أي اتفاق ، وما هذا الذي تغير ؟

تتعالى همساتهم في الخارج ، تصبح أشبه بهدير ساخط ، يقول أيوب خان :

ـ لم يتغير سوى بعض التفاصيل ، إنهم لا يريدون أجرا شهريا ، إبل يفضلون أن يبيعونها لك نهائيا .

يفتح حقيبته ويلقي ما فيها من أوراق على الأرض ، ثم يخرج آلة حاسبة صغيرة وأخذ يدق عليها في سرعة وهو يقول :

ـ الأمر ليس مكلفا ، صدقني ، أجر عام كامل من خدمتها سوف يغطي السعر كله ، إنهم في حاجة إلى كل المبلغ دفعة واحدة وهذا هو السبب الذي يجعلهم يقبلون هذا الثمن البخس .

هل كان ما فهمته دقيقا ، أم أن حروفه الإنجليزية المضغومة تحمل نوعا من اللبس، هتفت فيه :

ـ ماذا تقول ؟ أنت تخرف بلاشك .

يقول مؤكدا : إنهم فقراء يا سيدي ، وهم يريدون أن يدفعوا "دوطة " للفتاة الكبرى حتى تتزوج ، بدون ذلك لن يتقدم إليها أحد ، الرجال هنا لا يتزوجون الفقيرات ، لذلك يبيعون الصغرى من أجل الكبرى .

أقف مبهوتا ، لا أدري كيف أتصرف ، يتقدم الأب مني ، قبل أن أدرى ماذا يفعل أفاجأ به وهو ينحني ويلمس طرف حذائي الملوث بالطين والطحالب ، يشهق متوسلا نحوي ، أتراجع مفزوعا إلى الوراء ، تواجهني الأم بنظراتها العدائية فأوشك أن أنهار جالسا على الأرض ، أتوسل إلى الرجل الذي يتوسل إلي ، أرى على وجهه تجاعيد وجه أبي ، ونظرة الجوع التي أعرفها حين لا يفي الزرع بحصاده وحين يغدر بنا النهر وتخذلنا البذور ، تمتد عروق الطين في مسرى الدم ، فيختلط لحمهم بلحمي ، عاريا ومهانا ولا نجد من يستره ، ترتفع الرؤوس الصغيرة وتنفرط كومة الأطفال فيرتعد الطفل الذي في داخلي جائعا ومقرورا وشاعرا بالوحشة ، تدق أكفهم على الباب ، تتبدل الألسنة فأسمع الفاتحة والمعوذتين من كل شر مستطير ، شر يحرق قلوبنا ويكشف فقرنا ولا يتجمل في مواجهة عارنا ، هاهو أبي يزور عني ويمضي ، وهاهي أمي تحدجني بنظرة النكران ، وهاهي نفسي الهشة التي حاولت أن أشمخ بها تتفتت وتذوب وسط الطين والطحلب ، أوشك أن أبكي وأنا أهتف :

ـ اللعنة عليك يا أيوب خان ، هل حسبتني نخاسا .

أخرج كل ما في من جيبي من نقود وأسقطها أمامهم على الأرض ، أنهض وأبدا في التراجع تحت وطأة خجل طاغ ، أستدير مترنحا إلى الباب ، أدفع الوجوه المتزاحمة التي تكاد أنفاسها أن تحرقني ، أندفع من وسطهم فأنزلق فوق الطين ، أنهض وأمضي وأتعثر ، أسمع أصواتهم فلا أدري إن كانوا يطاردونني أم يرثون لحالي، أرتعد من فرط الحمي ، تذوب وجوه ملوك وملكات المغول من حرقة البكاء ، وتذبل كل زهور الآس ،

أواصل السير ، لا أدري كم مرة سقطت وكم مرة نهضت ، ولا أعرف كيف وصلت للمستنقع ، ولا على كتف أي شخص عبرته ، ولا حتى الكيفية التي حملتني بها عربة "الركشه " إلى الفندق ، لا أفيق إلا وأنا واقف تحت الماء أحاول أن أزيح الطين والقش الملتصق ببدني ، ولكنني ـ حتى بعد أن غسلت جسدي عدة مرات وارتديت ثيابا نظيفة ـ ما أزال أحس بالبرد والاتساخ ، ازدادت حدة المطر ، وأصبحت ألسنة البرق تشق قلب السماء المظلمة، أحاول أن أنام ولكن دمدمات الرعد تتداخل مع الكوابيس ، استيقظت وأنا غارق في عرق بارد، كانت هناك دقات على الباب، وتخيلت انه أيوب خان قادم يعيد دورة العذابات من جديد ، كنت مرتعبا، وكل ملاءات الفراش ملتفة حول صدري، تواصل الطرق فلم أجد بدا من النهوض، فتحت الباب، كانت طرقة الفندق مظلمة وخالية ، ولم يكن هناك سوى صوت المطر المنهمر خلف النوافذ ، أوشكت أن أغلق باب ولكن البرق المندفع من خلال النوافذ أنار كل شيْ لبرهة من الوقت ، وعلى ضوءه رأيت زبيدة الفتاة الصغيرة ، وقد تخلت عن حضن أمها وهي جالسة مكومة في الركن بالقرب من باب حجرتي .

مكان للمحبة

أتأمل حروف ورقة " الفاكس" دون أن أستطيع قراءتها بوضوح ، خط صديقي " سعيد الكفراوي " الذي احفظه جيدا يبدو غامضا ، وصل " الفاكس " بعد أن انصرف الجميع عن العمل ، وظل موجودا على الماكينة الباردة لمدة يومين دون أن يقرؤه أحد، كان في انتظاري عندما وصلت مبكرا إلى العمل في اليوم الثالث ، تقول كلماته الأولى " مات والدنا جميعا " ، يعني والدي أنا وحدي ، انهار جالسا إلى مكتبي دون أن أجرؤ على إكمال بقية الكلمات ، لا دموع في عيني ولكن لا أستطع الرؤيا بوضوح ، مكتبي مفتوح على بقية مكاتب المجلة ، ومن السخف البكاء في مكتب مفتوح، يحضر لي زميلي " محمد المخزنجي " كوبا من الماء فأخذ منه بضع رشفات ولكن غصة حلقي تظل باقية ، أسمع صوته وهو يقول لي :

ـ يكنك أن تنصرف الآن وسوف أقوم عنك بالعمل .

كيف يمكنني الانصراف وأنا لم اكمل قراءة بقية " الفاكس " ؟ أقرأ سطرا آخر " كان يوما عنيف المطر، وظللنا نخوض في الأوحال ونحن في طريقنا إلى المقبرة " ، أليس من المدهش أن يموت مثل ذلك الرجل السهل وسط ذلك الجو الصعب ، تحت وطأة طبيعة غاضبة وهو الذي لم يترك للغضب سبيلا إلى نفسه، يواصل المخزنجي القول :

ـ سأقوم ببقية الإجراءات الضرورية ، اذهب الآن لتستعد للسفر .

يبدأ بقية الزملاء في التجمع حولي فأدرك إنني لن أستطيع إخفاء صوت بكاء الطفل النائم في داخلي طويلا ، أنهض منصرفا متمتما ببعض الكلمات التي لا معنى لها وأظل أتعثر في الدرج حتى أصبح في الخارج .

أقود سيارتي بمحض غريزة التعود ، تأخذني الطرق المتداخلة في متاهة الإسفلت الأسود ، أركز عيني على الخطوط البيضاء المتقطعة وهي تتابع بلا نهاية ، على المقعد المجاور يرقد " الفاكس " الذي لم أستكمل سطوره بعد ، أتوقف بالسيارة على جانب من الطريق لأعاود القراءة ولكن العادم المتطاير من السيارات يملأ عيني بالدموع ، في هذه اللحظة كرهت خط " سعيد " ، كرهت معاودة قراءة تلك الحروف الكبيرة الحادة الزوايا ، اكتشف إنني متوقف منذ فترة ، أمامي بناية عالية أشبه بالبرج ، مكتوب عليها بحروف مضيئة أرقاما توضح الوقت ودرجة الحرارة ، تتوالى أرقام الوقت وأمامي الكثير مما يتوجب فعله ، كل شئ قد تأخر إلى حد مروع ، حجز التذكرة ، السفر، مجرد تعبير عن ندم زائف ، أقول ذلك لزوجتي " أماني " حين أمر عليها وأخذها من العمل فتقول لي :

ـ ولكنك يجب أن تسافر يا محمد ، أنت خائف وتحس بالذنب لأنك لم تره قبل موته مع علمك أنه سيموت ، ولكن هذا لم يكن ليؤخر موته ، كانت هذه الرؤية ستريحك فقط بعض الشيء ، سافر الآن ، أفعل أي شئ حتى ولو جاء ذلك متأخرا ، هذا أفضل من أن لا تفعل شيئا على الإطلاق .

حادة وصادقة كالعهد بها ، اكتشفت خوفي من العيون التي ستتهمني بالتواطؤ على موته ، من الأماكن التي مازالت تحمل رائحته ، من سماء بلدتنا الرمادية المثيرة للأسى في هذا الشتاء ، من طرقات الذكريات الموحلة ، من المدى الضيق الذي وضعني فيه موته ، تناولت " أماني " الفاكس وأخذت تقرأ لي كل التفاصيل بلا تمهل، أتذكر شهقة أمي بالبكاء، إحساسها الفاجع بالوحدة بعد أن تخلى عنها الرجلان الوحيدان التي عرفتهما طوال عمرها، أنا وأبي ، قالت "أماني " وهي تضع الفاكس في حجرها :

ـ أنت خائف منها ، ومن لومها لك ، مهما كان الأمر فحاجتها إليك أكبر من اللوم ، إذا جاء الغد سافر إليها .

في الغد كانت حقيبة سفري صغيرة ، وحيدا في مطار خال ، أرتدي ثيابي الكاملة وتوشك ربطة العنق أن تخنقني، الطائرة أيضا شبه خالية ، أرفض الشراب الذي عرضته علي المضيفة فلا يعد أحد يأبه بي ، فور أن تصعد الطائرة تختفي الأرض فجأة وأجد نفسي بين السحب ، أمواج رمادية متكاثفة لا تنقطع، ولا تخف كثافتها ، كأنها تقف في انتظارنا دون أن تدفعها الريح أو تمزقها الرعود ، صحراء قاحلة من السحب ، قمم من تلال معتمة ووديان غائرة ، تحتوي الطائرة في قبضة واحدة فيبدو كأن لا شئ يتحرك ، ننقطع عن كل ما هو واقعي وصلب ، ينخلع قلبي وأنا أشاهد طائر رمادي متدثر بالضباب يمرق كومضة قدرية داخلا إلى جوف محرك الطائرة دون عودة ، يتم ذلك في صمت الأضاحي القديمة وبلا تراتيل ، يتواصل اللون الرمادي الأشهب دون أن تتناثر فيه ولو قطرات ضئيلة من الدم ، أدخل أنا وأبي في متاهة من جبال القطن المنتوف ، كانت هذه هي المرة الأولى التي أذهب فيها إلى عمله الجديد في عنبر "حلج الأقطان" ، تحيط بنا سحب أرضية هشة، يمسك أبي بيدي الصغيرة وهو خائف علي من التوهان، أرى الدواليب الضخمة وهي تشرع أسنتها الحديدية اللامعة ثم تغوص بها في أنسجة القطن المستكينة ، تفصلها عن البذور الداكنة ، تحول نسيج القطن المتماسك إلى كتل هشة شديدة الشفافية والشحوب، اسمع صوت سعال العاملات قبل أن ألمح أشكالهن، لا يتوقفن عن الحركة وهن يحملن أكوام القطن الخام ويلقين بها في جوف الدواليب التي لا تشبع ، بنات صغيرات و عذارى لم يمسسهن الرجال، هذا هو الشرط حتى يظل القطن نقيا دون دنس، يشبعن رغبة الأنصال اللامعة التي لا تتوقف عن التهام القطن، وأحيانا تغافلهن هذه الأنصال وتبتر شيئا من أطرافهن ، إصبع أو ذراع، قربان غامض آخر، أسمع صوت أبي وهو يقول :

ـ لا يخدعنك مشهد القطن يا محمد ، فخلف هذا النسيج الرقيق توجد دائما قسوة

فماذا تخبئ لنا تلك السحب التي أسري فيها وحيدا ، وكيف أعرف طريقي في يوم غائم يليق بالموت كهذا اليوم ؟

تهبط الطائرة دون أن أرى شيئا من معالم الأرض، لا يلتفت أحد إلي وأنا أسير في الطرقة الطويلة حاملا حقيبتي، أتوقف أمام ضابط الجوازات الذي يبحث بلا اهتمام عن سجلي داخل جهاز الكومبيوتر، ألمح بطرف عيني الحروف الخضراء على الشاشة " لا شئ "، كأن السحاب مازالت تحيط بي وتحولني إلى لاشيء ، أواصل عبور الحواجز كلها دون كلمة ترحيب أو تعزية أو تعاطف دون أن أكون مرئيا من أحد، كل من حولي يتعانقون ، تطفر الدموع من أعينهم فلا تطفر من عيني دمعة واحدة، لا يجب أن أرثي نفسي أكثر من ذلك ، فالمدينة التي غادرتها وأنا شاب يجب أن تستقبلني شيخا صلب العود ، أقول لسائق سيارة الأجرة :

ـ أريد الذهاب إلى موقف الحافلات الذاهبة إلى " المحلة "

يقول لي : وما حاجتك إلى الحافلة ، أستطيع أن أقودك إلى بلدتك مباشرة ، كن سخيا وأرح نفسك .

عبثا أن أقول له إنني حزين لدرجة لا أحتمل فيها السفر وحيدا ، أصرخ فيه أن يأخذني إلى الموقف وإلا سعيت إلى غيره ، يقودني بروح من العداء طوال الطريق ، أطلب منه أن يطفئ سيجارته فيرفض ، أكتشف أن زجاج النافذة مقفول ومعطل ، أصبحت بلا سند في هذا الكون الواسع ، فهل كان من المحتم عليه الرحيل ؟

تتحرك بي الحافلة مع غروب الشمس، بعد أن تصبح المدينة أكثر ازدحاما وحزنا ، تمتلئ الحافلة بوجوه متعبة وصامتة أنهكها تجوال اليوم الطويل، يشبهون أناسا أعرفهم ولكني لا أعرفهم ، أرى مياه النيل وقد تلونت باللون الأحمر فيرتجف قلبي في حنين آسيان ، أخرج من المدينة ومازالت بقايا الشمس خلف الأشجار، لا أرتاح إلا عندما يغرق كل شئ في الظلام ، أغمض عيني دون نوم .

أضواء "المحلة " الذائبة في الماء ترسل الرعدة في نفسي ، أحاول عبثا أن أقنع إحدى سيارات الأجرة حتى تحملني إلي بيتنا القديم ، كل الطرقات التي تؤدي إليه كانت متكسرة وموحلة في هذا الوقت من العام ، يوافق أحد السائقين مقابل ثلاثة أضعاف الأجر ، ما أن تبدأ السيارة في السير حتى يرتد الزمن بي ، تستيقظ الأصوات وتصعد الروائح القديمة مشبعة بالطين والمطر، تضيق حولنا الطرقات حتى توشك السيارة أن تحف بالجدران المتشققة ، ننفذ أخيرا إلى الشارع الطويل المؤدي لبيتنا .

أهبط وسط برد الليل ، المسجد مغلق ، وكذلك المقهى ، ولا أحد في الطريق ، لا أحد من الناس الذين كانوا في دخولي وخروجي يقولون لي : طالت غيبتك يا محمد ، كأنني كنت موجودا ولم أكن في حالة دائمة من الغياب، بعدت حتى تناءيت ، تكاثرت مشاكل وجودي في هذا العالم حتى أصبحت أضيق بهذا الوجود ، أحمل حقيبتي الصغيرة وأخطو وسط الأوحال ، أخشى الانزلاق ولا أستطيع أن أرى ما حولي بوضوح ، يزحف الوحل من حذائي حتى أطراف بنطلوني ، وأصل إلى باب البيت في صعوبة ، أقف أمام عتبات السلم المظلم وأنا غير مصدق، المرة الأولى التي أجد فيها مصباح السلم غير مضاء، كان أبي يحرص على إضاءتها كل يوم من السادسة إلا الثانية عشر ويبقيها طوال الليل إذا كنت موجودا فقد كان يعرف أنني أهوى التجوال ليلا ، أنادي بصوت عال :

ـ يا أمي أنا هنا ، فليشعل لي أحد المصباح .

لا أحد يرد علي، لا أحد يتوقع قدومي ، أنادي على أختي "نادية " التي تسكن في الدور العلوي دون جدوى، العتمة مخيفة ، أصعد الدرج وأنا استند إلي الحائط ، أحس بالنشع البارد يتسلل إلى عروقي ، أخاف أن أتعثر أو أن أدوس على قطة ضالة ، أصل إلى باب الشقة وأبدأ في الدق عليه ، يا أمي أنا متعب وبردان ، لا أحد يرد ، سافرت من الصباح البارد وهاأنا ذا أقترب من منتصف الليل دون مأوى ، اعرف أن العزاء قد انتهى ، ولكن ثمة مكان لي ، فليس هذا هو العقاب الأخير ، مازال هناك المزيد من الأخطاء التي سوف ترتكب ، ومازالت هناك مزيد من العقوبات في انتظارنا .

ينفتح الباب تحت إلحاح دقي المتوالي ، ذهب الحرص بعد ذهابه ، كيف يمكن لامي العجوز أن تواصل حياتها دون الحماية التي كان يوفرها لها ، أدخل إلى الصالة المظلمة ، يشع ضوء شاحب من الغرفة التي تعود على الجلوس بها ، أقترب في بط ء دون أن أجرؤ على إصدار أي صوت ، أراه جالسا على السرير كما تعودت أن أراه ، يدير رأسه نحوي ويقول بهدوء من طال انتظاره :

ـ جئت أخيرا يا محمد ؟

بلا تذمر ولا بنبرة من لوم أو عتاب ، نفس الاستقبال الهادئ المليء بالمؤانسة ، أتقدم منه وأنا أكتم عبراتي واعتذاراتي ، وأهتف :

ـ يا لله يا أبي ، قالوا لي أنك قد .. رحلت .

يبتسم ابتسامة شاحبة تحت الضوء الشاحب :

ـ وهل كان يمكن أن أرحل قبل أن أراك .

أجلس أمامه على حافة الفراش ، أتأمل بريق عينيه الخابيتين ، وجنتيه البارزتين وأرقب ابتسامته الواهنة لعلها تسطع على وجهه ، يحاول هو أيضا أن يرى خلف ملامحي ذلك الطفل الذي حمله على ذراعيه ذات يوم قبل أن يتساقط شعره وتصفر أسنانه وتملأ البثور وجهه ، يفاجئني بالسؤال:

ـ ما الذي يؤلمك يا محمد ؟

ببساطة ينفذ إلي أعماقي ، يطيح بأسئلتي عن لحظات الغياب ويختصر كل العتابات والاعتذارات ، ومن المستحيل أن أقنعه بإجابة عائمة ، أوشك أن أجهش بالبكاء حزنا على نفسي هذه المرة ، أقول له مندفعا وغير قادر على إخفاء مشاعري :

ـ متعب يا أبي ، ولا أدري لماذا تلح علي فكرة الانتحار ، أحاول أن أبعدها عن ذهني باستمرار ولكنها لا تكف عن معاودتي .

يقول في إشفاق :

ـ أستغفرك ربي وأتوب إليك إني كنت من الظالمين ، اهدأ يا محمد ، ما يؤلمك هي نفسك المنقسمة يا محمد ، والأكثر إيلاما أنها مستعصية عن الالتئام ، كبرت وكبرت همومك .

ومن قال يا أبي أن الكون حين عشنا لحظة تكوينه كان قابلا للعطب ، وان تلك النفس الواحدة تتسع لكل هذه المرارات ، أتعرف السبب يا أبي ، أتعرف السبب يا محمد ، لقد تباعدنا ، فقدنا ذلك النجم الهادي الذي كان يقودنا عبر شوارع " المحلة " في حتى في أيام الرزق الضيقة ولحظات الفرح القليلة ، أحيانا أسير بجانبه، أحيانا أسير خلفه دون أن يراني ، يحدث هذا في اللحظات التي يكون فيها متضايقا ويرفض فيها أن يصحبني معه ، أقف بعيدا وأنا أشاهده جالسا في المقهى يضحك مع أصحابه وهو يشرب فنجان "القهوة المضبوط " ، كنت أحب أن أراه وهو يضحك ولكني أصاب بالملل حين يبدأ في لعب " الدومينو " معهم ، أحاول أن أعود وحدي إلى المنزل ، ولكن بدون نجم هاد آخذ في التخبط في حواري بلدتنا الضيقة ، أبكي من شدة التعب فيسألونني " ابن من ؟ " فأعطيهم إجابات خاطئة ، ثم أنام بجانب حائط ، أو على باب مسجد ، حتى يأتي هو ، الوحيد الذي له القدرة على معرفة مكاني ، أستيقظ ثم أتظاهر بالنوم لأظل على كتفه حتى نعود إلى المنزل ، أقول له : كيف كنت تعرف مكاني ؟ فيقول لي : كنت أشم رائحتك .

نتبادل ضحكة هادئة ، يسر لأنني تخلصت من هذه البداية الكئيبة ، كان يسعد دائما عندما أسترد جزءا من طفولتي ، ويعود هو أبي الذي ضيع علي " شقا " عمره ، يقول :

ـ خذ راحتك ، تمدد على الفراش ، ولكن أخلع حذائك أولا فأنت كالعادة قد لطخته بالطين .

معا وسط الطين ، نجتاز الشارع الضيق الذي يقع منزلنا في آخره ، بعد ليلة طويلة ممطرة لا يوجد أي مكان جاف، يقول لي : دعني أخطو أنا أولا ثم اتبعني ، كنت أرتعد ، دائما ما يأتي الشتاء وأنا لا أملك الثياب الملائمة لمواجهته ، كان أشد الفصول كراهية إلى نفسي لأنه يكشف كل ما حاولت أن أخفيه طول العام ، يقول أبي : هانت يا محمد خذ بالك وسوف نصل نظيفين إنشاء الله ، المارة الذين رأوا ثيابي النظيفة نسبيا وحرص أبي الزائد التصقوا بالجدران وتركونا نمر دون رذاذ ، نصل أخيرا إلى نهاية الشارع ، نستند إلي جدران المسجد ، ويقدم لي أبي الحذاء النظيف الذي كان يحمله طوال الوقت وهو يقول : اخلع حذائك المتسخ والبس هذا الحذاء، الآن تستطيع الذهاب إلى الكلية دون مشاكل ، مع السلامة يا محمد .

يقول مبتسما وهو يفسح لي مكانا في السرير مقابلة :

ـ ألم أقل لك ، كنا دائما معا ، في الصحو والغيم كما يقولون ، لعن الله المسافات التي تفرق بين القلوب المتحابة وجزى الله الحنين .

أريد أن أقول له إنني أكثر من يعاني من اتساع المسافات ، وأن العالم قد تباعد من حولي بطريقة تثير الأسى، تباعدت الأشجار التي كنت أعرفها والبيوت الني كنت أزورها والأشخاص الذين أحن إليهم ، فكيف تريد من يا أبي أن أعيش بنفس غير منقسمة ؟ يقول أبي :

ـ أنت مخطئ يا محمد ، الأرواح تحتل فراغ هذا العالم من حولنا إنها قريبة منا وإن كنا لا نراها ، لولاها لكنا متنا من الوحشة والافتقاد .

يصمت قليلا ثم يتأمل حقيبة سفري الصغيرة جدا ، تم يقول وعلى وجهه ابتسامة معابثة :

ـ ماذا أحضرت لنا معك .

أقول معتذرا :

ـ كنت مفاجأ ومتعجلا فلم احضر شيئا

يقول : على الأقل أحضرت كتابا نقرءوه معا

معا في ظلمة القاعة الرطبة التي تحتوي على الأنوال الخشبية التي ينسج عليها خيوط الحرير ، سوف يظل إيقاع هذه الأنوال وهي تدق اللحمة في السداه في وجيب قلبي حتى أموت ، أجلس بجانبه وهو منكفئ على النول يقذف "المكوك " خلال مجرى خيوط الحرير ليلقفه باليد الأخرى ، أرقبه مخلوب اللب وهو يحركه في براعة لا تعرف الكلل، أنتهز فرصة ابتعاده عن النول فأحاول تقليده ولكن المكوك يقع مني والخيوط الحريرية تتمزق ، أراه بعد ذلك وهو منكب عليها يعيد عقدها من جديد ، تسرح يده الضخمة الخشنة بنعومة بين الخيوط الرقيقة بينما تتمزق عند أي لمسة من يدي الصغيرة ، ويقول هو ضاحكا : الحرير كالنساء يا محمد لا يحسن التعامل معهن إلا من يفهمهن ، ولم أفهم ولم أحسن التعامل لا مع الحرير ولا النساء ، يقول أبي : لأنك تجلس وحيدا وتقضي ساعات طويلة في القراءة ، ما رأيك لو جئت بكتبك إلى القاعة وتجلس لتقرأ معي ، وهكذا بدأنا رحلتنا معا بين الصفحات القديمة لكتاب الجيب والمسامرات والقصص العالمية ، أمتع الرحلات التي سافرنا فيها معا ، ضحكنا لأيام متوالية على المقالب التي يقوم بها "أرسين لوبين " ليقع فيها المفتش " تيل " ، وساعدنا "روكامبول " على الاختباء في قاعتنا الباردة هربا من الشرطة ، وارتدى " الصنايعية " من أصحاب أبي شارات الثورة الفرنسية المثلثة الألوان ورفعوا مع "دارتنيان" الملفات الخشبية التي يلفون عليها الحرير وهم يهتفون الكل للواحد ، تحولت كل الحصر الملونة إلى سجاجيد سحرية طارت بنا إلى مدن النحاس والسحره ، بكينا معا و"فيرتر " يبعث برسائله ويموت محسورا دون جدوى ، و" غادة الكاميليا " تضحي بحبها وتبصق نفثات صدرها ، ورحلت سفينة القبطان "إيهاب " فوق بحر من خيوط الحرير ، فشربنا كؤوس الروم وطاردنا الحوت الأبيض دون جدوى ، يعلق أبي قائلا أنه أيضا قد أضاع كل الفرص وأن حيتان البحر لا تختلف كثيرا عن حيتان البر، تراكمت الرمال على آثار" قطر الندي حتى فقدت دروب العودة ، خرج الجني من قمقمه وسألنا عما نتمنى فهتفنا معا: " قاعة أقل رطوبة وحرير أقل تلفا ، شربنا حساء " "الكرنب " في ليالي الشتاء وانفتحت الحارة الضيقة عن سهوب شاسعة من الثلج الأبيض تجري عليها عربات تجرها ثلاثة من الخيول الروسية ، أصاب أنا وأبي بالفزع ونحن نشاهد صراع الأخوة " كرامازوف " تباغتنا مشاعرهم العنيفة عشقا وبغضا وهم يشربون حتى الثمالة ويتبارزون حتى الموت ، ازدحمت القاعة بخيول الفرسان والملوك وقطاع الطرق والمطالبين بالعرش والقراصنة والغواني ذوات التيه والشعراء المطاردين ، خيوط من الكلمات والنزوات تربط بين الأب المنكفئ على نول الحرير وذلك الابن الذي يمسك كتابا ممزق الأوراق ، يضحكان معا ويتأوهان في نفس الوقت ، ذات لحظة نادرة لم نعد وحيدين ولم نعد في حاجة إلى الكون المشعث

البائس في الخارج ، وفي النهاية عندما أفعمت صدورنا بكل أنواع الكلمات كنا نجلس متجاورين صامتين تماما نفكر تقريبا في نفس الشيء ، يقول لي أبي مبتسما :

ـ فيما تفكر يا محمد

فأقول له دعابتنا الشهيرة : في الشيء نفسه ،

انهض من مكاني على حافة السرير وأحتضن جسده الذي اصبح شديد النحافة والوهن ، أعتذر له عن التباعد بسبب كثرة الأسفار فيقول لي :

ـ كم أخشى عليك من تلك الطائرات ، الأرواح فقط هي التي تقدر على الابتعاد عن الأرض ، لا بد لكل واحد من أرض يلامسها وإلا ضاع الأمان .

يغمض عينيه ويرجع بظهره إلى الوراء ، أشعر بالخوف وبالوحدة من أن يتم الرحيل بغتة ، أستحضر في داخلي صمت قاعة الأنوال ورطوبتها ، أصبح ذلك الطفل الصغير المسك بكتاب ممزق ، أحاول أن أقول له شيئا مسليا كما كنت أفعل في السابق ، شيئا يعيد ربطه بلحمة الحياة وسداها فأقول له :

ـ افتح عينيك يا أبي وأستمع إلى ما أقوله عن سفرتي الأخيرة ، في مدينة أصفهان التي يقولون عليها أنها "نصف جيهان " أي نصف العالم ، هناك قصر بناه شاه قديم من خشب الورد ، كان مليئا بالغرف والقاعات ، وأهم ما فيه انه جعل هناك فراغ أجوف بين كل جدار وآخر ، بحيث أصبح القصر كله أشبه بصندوق رنان ، وكان الشاه يجلس مع زوجاته ومحظياته في أحد الغرف بينما تجلس الفرقة الموسيقية للعزف في غرفة أخري ، وتنساب الموسيقى من خلال الجدران الجوفاء إلى كل مكان في القصر ، وحتى بعد أن تتوقف الفرقة الموسيقية عن العزف يظل خشب الورد يشع بالموسيقى ، إن تجاويف الجدران التي امتلأت بالموسيقى تجعلها تسري بنعومة ثم تخفت تدريجيا ولا تنتهي إلا بعد ساعات طويلة .

أفرح لأنني قد جذبته بعيدا عن بوابة الغياب ، يفتح عينيه ويحدق في طويلا كأنه يحاول أن يحفظ آخر ما بقي من ملامحي ثم يقول :

ـ إنها روح الموسيقى ، الأرواح هي التي تبقى ولا تتبدد ، ألم أقل لك ، بدون الأرواح كان يمكن للعالم أن يكون على شاكلة قصرك ، غرف خالية وجدران جوفاء.

أتوسل إليه : بالله عليك يا أبي لا تكثر من الحديث عن الأرواح ، فهذا يشعرني بالوحدة والخوف .

يقول وقد بدا الإرهاق في صوته :

ـ أنت الذي اخترت أن تكون وحيدا متفردا يا محمد

ثم يبدأ المطر في الهطول ، يشتد صوت الريح تعلن عن مقدمه ، ثم تدق قطراته فوق السقف والأبواب الخشبية كأنها عشرات الأرواح المرتجفة تطلب الدخول ، يغمض عينيه مرة أخرى وترتخي ملامحه ويبدو عليه الراحة ، كان قد صارع الدنيا كثيرا وتلقى سهامها ببدن لا يعرف الكلل ونفس لم تذق المتعة، أصيح باسمه في رهبة وخشية فلا يرد علي، تزداد دقات المطر ، وتدوي دقات أخرى على الباب ، لابد أنها أمي وقد

عادت ، أو أختي وقد أحست بوجودي ، عادتا في الوقت المناسب بعد أن استنفدت كل طاقتي في محاولة إبقائه متيقظا .

افتح الباب فلا أجد أيا منهما ، يقف أمامي ثلاثة من الرجال ، وجوههم غير حليقة ، وعلى رؤوسهم عمائم متسخة تتساقط منها قطرات الماء المتسخ ، ويفوح منهم رائحة من العطن الخفي ، أحدق في وجوههم ويحدقون في وجهي ، كأن أحد منا لم يكن يتوقع وجود الآخر في هذا المكان ، يصيح أحدهم في وجهي : وحدووووه ، فأتراجع مذعورا ، انظر عاجزا إلى أبي الراقد على الفراش خائف من أن يزعجه وجودهم ، ولكنهم لا يبالون ، يدخل أحدهم ويرفع المزلاج حتى يفتح الباب على مصراعيه ، ويتقدم الثاني وهو يحمل طاولة خشبية بينما يحمل الثالث صندوق الموتى ، يشعلون كل أضواء الصالة فيصبح المكان ساطعا ومثيرا للرعب ، أتراجع حتى أجلس منهارا على أحد المقاعد، ويبدؤون هم في التحرك في كل مكان بلا شفقة ولامبالاة ، يحضرون الماء والصابون والأواني والمناشف ومسحيق الأعشاب العطرية ، يعملون بدقة كأنهم قد تدربوا على تأدية هذا المشهد في هذا المكان عشرات المرات ، لا يرونني ، لا يطلبون مني شيئا ، ولا حتى التحرك من مكاني ، يدخل أحدهم الغرفة ويحمل أبي من الفراش فينخلع قلبي ، أكتشف أن جسده قد اعد نفسه لهذه اللحظة منذ زمن فنحف وشف وجفت منه مادة الحياة ، أراه وهو يسجى فوق المنضدة الخشبية وهم ينزعون ثيابه فيبدو جسده شاحبا مائلا للزرقة ، فمه مفتوح وفاغر كأنه مندهش مثلي من حضورهم المباغت ، يعدل أحد الرجال من وضع يديه ويغلق فمه ويتأكد من إسدال جفنيه ، ثم ترتفع أصواتهم فجأة بالأدعية وهم يرشون الماء على جسده :

" و تطهر يا عبد الله فإن الجنة لا يدخلها غير المطهرين ، وقل لهم يا عبد الله انك شربت شرابا طهورا وأكلت طعاما طهورا وعشت عيشا طهورا وكان الإسلام دينك ومحمد نبيك والله الحي الواحد القيوم ربك الذي لا إله إلا هو .."

تنساب قطرات الماء من على جسده الشاحب فتأخذ شيئا من شحوبه ، وصوت المطر مازال متواصلا ، ووجه أبي متجه إلى أعلى بحيث لا يراني ، تخلى عني أخيرا ، لم يعد يبال بإكمال حديثنا الذي مازال ناقصا ، مستسلم لتدفق الماء والصابون والأدعية المتواصلة كتواصل المطر :

"وأخبرهم يا عبد الله انك قد أقمت الليل عابدا وقضيت النهار ساعيا وعشت العمر قانطا واستقبلت الموت راضيا، وسوف يكون مثواك الجنة مع العابدين والصديقين "

يخرجون الأثواب البيضاء ويبدؤون في لفه بها ، تفوح رائحة الشيح والزعفران التي ينثرونها بين طيات القماش ، تتوقف الأدعية وتتحول كلماتهم إلى تعليمات موجزة ، " اطو هذه " " خذ بالك من أطراف الأصابع " " إرخ قليلا "، يبدأ في الاختفاء التدريجي عن ناظري وعن عالمي ، عن كل الأشياء التي ربطتنا معا ، يتحول إلى لفة بيضاء ضئيلة الحجم وغير واضحة المعالم ، ينتمي إلى عالم لست فيه ، يحملونه ويضعونه في الصندوق ثم يغطون كل شيء برداء أخضر ، أنهض واقفا ، لو أن المطر يتوقف قليلا لتكون رحلته سهلة ،

يحملونه على أكتافهم ، لا يدعونني للمشاركة في حمله ، ولكن أحدهم يلتفت إلي ، يحدق في وجهي كأنه يراني للمرة الأولى ثم يهتف بي : ـ تشهد يا ولد

أحدق في المرآة فأجد جسمي قد تضاءل وملامحي قد صغرت ، ذهبت التجاعيد والبثور والشعيرات البيضاء فأهتف في حرقة من لا يقدر على استعادة ما ضاع :

ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإنا إلى الله وإنا إليه راجعون

الكويت ١٩٩/٥/٣١